عاشق قرقرى

الدكتور ناصر الحاني

اذا تاقت النفس ومضها الشوق كان ذلك حنينا مضنيا • ومن الحنين ما يودى ومنه ما ينغص العيش ويثير اللوعة ويسلم الى قلق دائم • وقد جاءنا لهذه الحالات كلها صور في شعرنا تهيأ لها اصالة نادرة اضفت عليها الخلود • ومن القلائل الذين ذاقوا غصص « الحنين » ولوعة الاغتراب وعانوا آلامه وكربه ، ولم يتهيأ له شهرة « يحى بن طالب الحنفي[1] » الذي عرفنا له طرفا من قصيدتين رددتهما كتب الأدب التي عنيت به •

لقد كان يحى بن طالب من المقلين ، ولكن هذا الذي وصلنا من شعره خليق بأن يرفعه الى مرتبة الطليعة بين شعراء « الحنين » في أدبنا •

واذا كان جل المألوف من شعر الحنين التوقان الى الحبيب الهاجر أو النخل النازح فان يحى قد ظل هائما يتوق الى « قرقرى » التي لم تكن خليلته أو حليلته بل كانت مهد أحلامه وآماله • فيها ترعرع ونشأ ، وفيها ادرك من اليسار ما صيره علما موفور الجانب بين قومه •

قال ياقوت[2] : « قرقرى ارض باليمامه ، فيها زروع ونخيل كثيرة وعلى قرقرى يمر قاصد اليمامه من البصرة • وكانت ليحى فيها ضيعة يقال لها البرة العليا » •

عرف يحى في اليمامه بسخائه وكرمه وايثاره ، فكان اذا أصاب أهل البادية جدب وجلوا عنها لينزلوا بقرقرى يفرق بينهم الغلات ويمدهم بما يخفف مصابهم • ويبدو أنه كثيراً ما اشترى غلات السلطان ليستطيع القيام بما عرف به من كرم بين قومه ؛ ولكن هذا اليسار لم يدم طويلا اذ أدركته ضائقة طالت واستعصى عليه أن يجد منهـا مخرجا فباع عامل السلطان املاكه ، وعزه الدين فاضطر الى ان يهرب من اليمامه قاصداً خراسان • وكان هربه هذا بداية مأساة طوحت بآماله ولاحقته منغصة عليه عيشه أينما حل •

لقد قصد بغداد أيام[3] الرشيد لعله يجد فيها ما يسعفه على قضاء دينه ، ولكنه لم يطل فيها مكثه • ولعل سبب هذا انه لم يجد من يعينه على لقاء الخليفة أو ذوى الجاه والحظوة من الذين يحفون به

ان من تخلق بالـكرم وأجاد صنعة العطاء لا يجد الوسيلة لفك ضائقته وعوزه ميسورة دوما ، وقد تخونه الحيلة ، وتكبُر نفسه كما كبرت نفس يحى وهو ببغداد وعزت عليه السبل فيمم شطر خراسان ٠

لقد كان الشوق يغلب يحى كلما أم أرضاً تباعده عن (قرقرى) ، وكان الحنين يتملـكه وتهيج ذكرياته التي تحز في نفسه وتملؤها جزعا وقنوطا ٠ فنراه يعمد اول ما يعمد ــ اثر وصوله بغداد ــ الى ايفاد رسول له اسمه موسى الى قرقرى ٠ واذا كنا نجهل طبيعة رسالته التي حملها موسى الى أهل قرقرى فاننا ندرى انه وصف حاله عشية ودعه بقصيدة تعتبر فريدة في باب « الحنين » ٠

لقد كان استاذنا المرحوم العلامة طه الراوي يردد دوما بان قصيدة « الصمه بن عبدالله القشيري » الشهيرة(٤) :

حننت الى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا

لا تداني برقتها وعمق عاطفتها وصدقها ، وما قرأ القصيدة الا عقب متداركا بأن « حنين يحى الى قرقرى من هذا الطراز » ٠

وما زلت أذكر أن رفيقاً لنا سأله رحمه الله عن وزن (قرقرى) فأجاب مازحا : لا تفسد هذا الشعر بطلب الاوزان ٠

قلت في رثاء زكي مبارك رحمه الله انني لا اعرف بين أساتذتنا أكثر حفظا للشعر وتغنيا به وتطربا بانشاده من ثلاثة هم : طه الراوي وعبدالوهاب عزام وزكي مبارك ، ولا أعرف من يهزه الشعر ويتغنى به مثل طه الراوى ٠ ولا اعرف من يأتيك بالمعنى الشعري فينشدك نظيره وأخاه كما يقول الجاحظ وينزل معك عبر عصور التاريخ ليعيش واياك بهذا الاخ والنظير مثل طه الراوي ٠ وقصيدة يحى في قرقرى خاصة مما كان يتغنى به ويؤثره ٠

أحقا عباد الله ان لست ناظرا
الى قرقرى يوماً واعلامها الغبر(٥)
كأن فؤادي كلما مر راكب
جناح عقاب(٦) رام نهضاً الى وكر
أقول لموسى والدموع كانها
جداول(٧) فاضت من جوانبها تجرى
ألا هل لشيخ وابن ستين حجة
بكى طرباً نحو اليمامة من عذر ؟
وزهدني في كل خير صنعته
الى الناس ما جربت من قلة الشكر
اذا ارتحلت نحو اليمامة رفقة
دعاك الهوى(٨) واهتاج قلبك للذكر

فوا حزني مما أجن من الأسى(٩)
ومن مضمر الشوق الدخيل الى حجرى
تغربت عنها كارها وهجرتها(١٠)
وكان فراقيها أمر من الصبر
اذا انت لم تنظر لنفسك خاليا
احاطت بك الاحزان من حيث لا تدرى
فيا راكب الوجناء أبت مسلما
ولا زلت من ريب الحوادث في ستر
اذا ما اتيت العرض فاهتف باهله(١١)
سقيت على شحط النوى مسبل القطر
فانك من واد الي مرجب
وان كنت لا تزداد(١٢) الا على عقرى

لقد ظل تمادي يحى بالمضي شرقا يرهبه ويخيفه لأن هذا نذير ببعد الشقة وبطول الفرقة عن قرقرى فنراه كلما ابتعد مشرقا التفت يبكي هذه المسيرة الطويلة • قال عندما وصل (قومس(١٣)) في طريقه الى خراسان :

أقول لاصحابي ونحن بقومس
ونحن على اثباج ساهمة جرد
بعدنا وبيت الله عن أرض قرقرى
وعن قاع موحوش وزدنا على البعد

وفي خراسان انشد قصيدته اللامية وهي ثانية قصيدتين رددتهما كتب الادب التي عنيت به ، وعرف بهما دون غيرهما :

الا هل الى ريح الخزامى ونظرة
الى قرقرى قبل الممات سبيل(١٤)
فيا أثلات القاع من بطن توضح
حنيني الى اظلالكن طويل(١٥)
ويا اثلات القاع قلبي موكل
بكن وجدوى خيركن قليل
ويا اثلات القاع قد مل صحبتي
مسيرى(١٦) فهل في ظلكن مقيل
فاشرب من ماء الحجيلاء شربة
يداوى بها ــ قبل الممات ــ عليل(١٧)
احدث عنك النفس ان لست راجعا
اليك فحزني في الفؤاد دخيل

اريد انحــدارا نحــوها فيصــدني
اذا رمتــه دين علــي ثقيــل(١٨)

قيل ان الرشيد قد غنى بهذه الابيات فسأل عن قائلها • ولما اخبر بقصته أمر برده وقضاء دينه • ولكن جاء هذا بعد فوات الاوان ، فلقد سئل عن يحى بخراسان فقيل انه مات قبل ذلك بشهر(١٩) •

رحم الله يحى بن طالب فقد مات يكابد الشوق ويغالبه ، ولم يتهيأ له في أسفاره الشاقة الطويلة ان يحرز مالا يسعفه على العودة الى قرقرى التي ظل يتعشقها ويلهج بها ويتغنى باسمها ، وان ضاع هذا الذي غناه ولم يصلنا منه الا القليل •

---

(١) سماه ابن الشجري في حماسته ١٦٤ « يحى بن أبي طالب » خطأ •

(٢) معجم البلدان ٣٢٦/٤ طبعة دار صادر بيروت •

(٣) الاغاني ٢٩٠/٢٣ طبعة دار الثقافة ـ بيروت •

(٤) شرح الحماسة : المرزوقي ١٢٤٦/٣ •

(٥) سمط اللآلىء ٣٤٨/١ وتتداخل بعض أبيات هذه القصيدة بأبيات تنسب للمجنون معجم البلدان ٣٢٦/٤ ـ ٣٢٧ • الاغاني ٢٩١/٢٣ • سنرمز بـ (س) لسمط اللآلي وبـ (م٠ب) لمعجم البلدان وبـ (غ) للاغاني •

(٦) م٠ب : جناح غراب •

غ : كأن فؤادي كلما عن ذكرها جناحا غراب رام نهضا الى وكــر

وقد نظر يحى بهذا البيت الى قول المجنون :

كــأن القلب ليلة قيل يغــدى بليــلى العــامرية أو يــراح
قطــاة غرهــا شرك فبــاتت تجــاذبه وقد علــق الجنــاح

(٧) س : جداول ماء في مساربها تجري •

(٨) غ : دعاني الهوى واهتاج قلبي للذكر •

(٩) س : الهــوى •

(١٠) س : تعزيت عنها كارها فتركتها

غ : تصبرت عنها كارها وهجرتها وهجرانهــا عندي أمر من الصبــر

(١١) س : بجوه •

(١٢) س : لا تزدار •

(١٣) معجم البلدان ٣٢٧/٤ و ٤١٥ • قومس : كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبل طبرستان •

(١٤) الاغاني ٨٩/٢٣ يبدأ القصيدة بهذا البيت الذي يجعله ياقوت البيت الرابع حسب روايته •

(١٥) حماسة ابن الشجري ١٦٤ •

(١٦) حماسة ابن الشجري : سراي ، وفي الاغاني :

ويا أثلات القاع قد مل صحبتي وقومي فهــل في ظلكن مقيــل

(١٧) سمط اللآلي ٣٦٣ •

(١٨) حماسة ابن الشجري :

أريد انصرافا نحوها فيردني ويثنيني دين علي ثقيــل

(١٩) معجم البلدان ٣٢٧/٤ •

التنافس البريطاني - التركي *

على سيادة الخليج العربي في القرن التاسع عشر

سليم طه التكريتي

ادى اقدام بريطانيا على تأسيس امبراطورية شاسعة الاطراف في اواسط القرن التاسع عشر الى ظهور طائفة من المشاكل في خضم سياستها الامبراطورية الخارجية كان من أقلها مسألة السيطرة على طرق المواصلات الى الهند البريطانية. ذلك ان البريطانيين، مثل البرتغاليين الذين سبقوهم، سرعان ما تحققوا من اهمية بعض المناطق - كالخليج العربي - في سبيل السيطرة البحرية بالاضافة الى المطامع الاقليمية في الهند. وقد وجدت هذه الحقيقة لها تعبيرا ملموسا في سلسلة المواثيق التي عقدت خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر مع القبائل التي تسكن سواحل شبه الجزيرة العربية، تلك المواثيق التي اعانت حكومة الهند على بسط حماية فعلية على الامارات العربية التي تمتد على سواحل الخليج، وبذلك تحول الخليج العربي الى بحيرة بريطانية.

ولقد قوبل بسط السيادة البريطانية على الخليج العربي باهتمام من لدن تركيا العثمانية وايران. غير ان ايا من هاتين الدولتين، اللتين كانتا تعتمدان على تأييد بريطانيا لهما في الحفاظ على كيانهما وتحقيق وحدتيها الاقليمية، لم تكن في وضع تستطيع معه ان توجه احتجاجا مؤثرا ضد انتشار النفوذ البريطاني في الخليج.

على انه اشتركت، في حدود سنة ١٨٧٠م، عدة عوامل في تهيئة انتفاضة حيوية في السياسة العثمانية في شبه الجزيرة العربية وفي الخليج العربي. ذلك ان حرب القرم تركت تركيا في وضع عسكري قوي. اذ تشجع السلطان عبدالعزيز آنذاك على التفكير في الوسائل التي يعزز بها مركزه في الاقاليم الاسيوية التي لم تكن سيادته عليها أكثر من ظل معنوي.

وما خلا ذلك فان انشاء قناة السويس قد فتح طريق المواصلات مع

(*) عن مقالة للدكتور مرافندر كومار، في مجلة الثقافة الاسلامية Islamic Culture عدد نيسان ١٩٦٣ التي يصدرها المجلس الاسلامي باللغة الانكليزية في الهند.

شبه الجزيرة العربية وبذلك تم اجتنب الطريق البري عبر فيافي الصحراء وأخيرا في « نجار » ذاتها أخذت الخصومة بين الاميرين سعود وعبدالله تزيد في وهن الوهابيين بعد وفاة الامـام فيصل ، وتفتح السبيل أمام التدخل التركي في ذلك الجزء من البلاد[1] .

وجاء تعيين مدحت باشا ذلك السياسي « ذي السجية الطموحة التي لا تعرف الكلل »[2] حاكما عاما في بغداد سنة ١٨٦٨م موعزاً له باتباع سياسة عربية فعالة من لدن الباب العالي .

كان مدحت يدرك مدى العداء الذي تثيره مثـل هـذه السياسة في الاوساط البريطانية . ومع ان تنبؤاته الحرة كانت تظهره بمظهر الرجل المتأثر بوجهـة النظر الانكليزية الا انه لم يكـن على استعداد لان يضحي بالمصالح الحيوية للامبراطورية العثمانية في سبيل الحليف البريطاني .[3] وقد هيأ التنافس بين عبدالله وسعود أيام مدحت فرصة العمل لتوسيع مخططاته الرامية الى تعزيز مركز تركيا في نجد . ففي سنة ١٨٦٩ اتخذ العداء بين الاخوين شكلا سافرا . ففي أول الامر جابه سعود الهزيمة في « المعتلى » على يد قوات الرياض[4] لـكنه ثأر لنفسه حين دحر عبدالله في جدة سنة ١٨٧٠م[5] . ولقد اوهنت الهزيمة امام الوهابيين فهرب متجها نحو العراق مخلفاً وراءه اخاه في الاشراف على نجد . وقد التقى ، وهو في طريق هربه ، بمبعوث مدحت فبدأت المساومات بين الطرفين حيث وعد الاتراك باعادة نجد الى الامير عبدالله مقابل اعترافه بالسيادة العثمانية على الاجزاء التي يحكمها[6] .

كان خديوي مصـر اسماعيل باشا هو الذي انبأ الانكليز بالحملة العثمانية المقترح ارسالها الى نجد . وقد قوبلت هذه المعلومات بهلع في الهند لسببين : فلقد كانت الدائرة الخارجية تخشى موافقة البريطانيين على فضح روسيا القيصرية لفقرات من معاهدة باريس تتعلق بحياد منطقة البحر الاسود التي حـدت بالباب العالي الى اجـراء ترتيب بهـذا الشأن مع بطرسبرغ . وكما عبر عن ذلك احد الدبلوماسيين الكبـار في الهند « لقد غدا مفهوما بصفة عامة ، منذ ان اشركنا الاتراك بشؤون البحر الاسود ، انهم كانوا على حسن تفاهم مع روسيا أكثر مما كانوا عليه قبلا ... انني أعتقد ان فتح قناة السويس قد جعل مصلحتنا تتطلب منا ان نكون على علاقات حسنة وودية مع تركيا عشر مرات أكثر من ذي قبل وان المجرى الذي سارت فيه المحادثات بشأن البحر الاسود مما يؤسف له كثيرا بالنسبة لمصلحة الهند »[7] .

ومهما يكن الامر فان الاهتمام المباشر كان يتركز في حقيقة ان تلك الحملة تهدد بتقويض اسس السياسة البريطانية في الخليج العربي[8] . ذلك ان سيادة بريطانيا على البحار كانت تستند الى حقوق افترض وجودها

بصفة تعسفية وليس الى فرضيات قانونية • فمثلا ان الحظر على الحرب البحرية لم يطبق بدقة الا في الامارات المهادنة ولو ان الهند كانت ترفض في الواقع ، تحمل العمليات البحرية من أية دولة تقدم عليها في الخليج • فمثل هذه السياسة لا يمكن تأييدها الا بشكلها الجماعي • فالاعتراف بأي استثناء لها قد يعني التخلي عن الموضع برمته • ولذلك كان نائب الملك في الهند اللورد « مايو » يضغط على الحكومة البريطانية بان تحصل من الباب العالي على أمر بالغاء تلك الحملة ، واذا ما اخفقت في ذلك ، فعليها ان تظفر منه بتأكيد في ان المعارك لن تستأنف في ذلك الطريق البحري[٩] • ذلك ان وزارة الخارجية البريطانية التي كانت الممثل الاول لسياسة الحفاظ على الوحدة الاقليمية للامبراطورية العثمانية منذ عهد « بالمرستون »، لم تكن في وضع تستطيع معه ان تمنع الحكومة التركية من تعزيز مركزها في أواسط شبه الجزيرة العربية ، تلك المنطقة التي يدعي السلطان عبدالعزيز بحق السيادة الروحية عليها[١٠] • ومهما يكن الامر فان مخاوف حكومة الهند هذه قد تم نقلها الى الباب العالي عن طريق « السر هنري اليوت » السفير البريطاني في اسطنبول[١١] •

ولقد أكد علي باشا رئيس الوزراء للسفير بان تركيا لا تفكر في تحدي مركز بريطانيا في الخليج • غير ان « نجد » كانت اقليما عثمانيا عزل حاكمها الشرعي من قبل سعود ولهذا فمن المحتم على السلطان ان يسارع الى نجدته • على ان تركيا قد تحترم استقلال الدول العربية البحرية التي لم تكن تخضع للحكم الوهابي • وهكذا فان الجيش العثماني لن يستطيع مرة أخرى ، استعمال الطريق البري للوصول الى اواسط شبه الجزيرة العربية • لكن العمليات البحرية التي تخص الحملة قد تقتصر على عملية نقل القوات فحسب[١٢] •

كان المقيم البريطاني في « بو شهر » ، السر لويس بلي ، هو الذي لفت أنظار الدائرة الخارجية الى بعض المشاكل المتعلقة بالحالة الراهنة في الخليج ، والتي لم تهييء تأكيدات علي باشا أي حل لها • فلقد طلب شيخ البحرين والامير سعود الى « السر بلي » تحديد موقف بريطانيا ازاء الغزو العثماني • فقد كان الامير سعود يخشى ان تتعرض اجنحته لعمليات بحرية • ولذلك اوضح ان على الحكومة البريطانية ان تعزز الحظر المفروض على العمليات البحرية ، أو أن تسمح له باستئناف الهجوم على البحار •

وكان عيسى بن علي شيخ البحرين يخشى ان يقدم شيخ الكويت — الذي كان نزاعه معه مستحكما — على مطالبة تركيا بالحاح لمهاجمة امارة البحرين[١٣] • ولم ترد حكومة الهند على سعود لان استفهامه ذاك لم يكن مبرئا من الرغبة في اقحام انكلترا ، في أواسط شبه الجزيرة العربية ، بمثابة ند لتركيا • غير ان عيسى بن علي وشيوخ الساحل المهادن كانوا

يؤكدون بان الحكومة قد تلتزم بالتزاماتها التعاقدية شريطة ان يقفوا هم موقفا حياديا ازاء النزاع التركي الوهابي(١٤) .

ابحر الجيش العثماني بقيادة « نفيس باشا » من البصرة سنة ١٨٧١م في طريقه الى الساحل الوهابي(١٥) . ولقد نزل الجيش في « رأس تنورة » على الارض المواجهة للبحرين تماما . وبعد ان قضى على مقاومة غير مجدية في « القطيف » و « دمام » سار الى « الهفوف » عاصمة الاحساء(١٦) . وكان عبدالله في الوقت ذاته قد التحم في معركة مع سعود غربي الرياض لكنه اندحر مرة أخرى والتحق بالاتراك في الهفوف .

وسرعان ما دب الاضطراب في صفوف سعود أيضا . ذلك ان التمرد المحلي عليه قد ارغمه على مغادرة الرياض حيث اندحر بعد ذلك على يد نفيس باشا . وبوجود عبدالله أسيرا في المعسكر التركي اقدم نفيس باشا على تعيين « عبدالله بن تركي » اخ الامام الاخير « فيصل » حاكما عسكريا على الرياض(١٧) .

سارت الحملة التركية قدما من دون وقوع أي حادث معكر لما كانت تهتم به السلطات البريطانية . في حين ان امارة قطر التي تقع بين الدول المهادنة والاحساء ، والتي كانت قد تعهدت بمراعاة الاحكام الخاصة بالملاحة التي فرضتها بريطانيا في الخليج ، غدت طرفا في النزاع الذي أدى الى التغلب على الشيخ السابق للبحرين سنة ١٨٦٨ . وهكذا أصبحت امارة قطر خاضعة للنفوذ البريطاني ولو انها كانت أقل درجة من الدول المهادنة .

بعد ان استقر نفيس باشا في الهفوف مباشرة علمت السلطات الهندية ان مبعوث القائد قد اقنع شيخ قطر بتقبل السيادة العثمانية(١٨) .

وجدت حكومة بومباي ، في حادث قطر ، اتجاها من جانب تركيا يستهدف المساس بنطاق النفوذ البريطاني في الخليج(١٩) . فهي لم تعتبر التأكيدات التي قدمها علي باشا الى « السر اليوت » كافية . وقد اشعر السفير البريطاني ان غرض « مدحت » هو استعادة نفوذ السلطان على نجد . ولكن ما هو مدى نجد ؟ وهل ان الادعاءات العثمانية بالسيطرة عليها لن تمتد الى الدول البحرية ؟ . ان الرد على ادعاء كهذا لن يكون في غير محله . ذلك لان مسقط والامارات المهادنة أيضا سبق لها ان جربت سيطرة الرياض عليها ، بل انها كانت تدفع الجزية الى ائمة الوهابيين . واذن فالوسيلة الوحيدة لصيانة المصالح البريطانية هي حمل تركيا على الموافقة بايجاد تخطيط للحدود بين نجد والدول البحرية . ومع ان الحكومة الهندية كانت متيقظة تماما للوضع الراهن في الخليج ، الا انها لم تشارك سلطات بومباي في الآراء المفزعة التي تعرب عنها . ذلك ان « السر تشارلس ايتجسون » سكرتير الدائرة الخارجية الذي كان الممثل الاول لمدرسة « لورنس » في السياسة الخارجية ، كان يؤكد ان الاتفاقات التي عقدها

شيوخ العرب البحريون مع الهند قد تم التفاوض بشأنها من دون أية اشارة الى تركيا أو أية دولة اخرى[٢٠] .

وحتى اذا كان شيوخ السواحل المهادنة قد فقدوا شيئا من ارتباطاتهم الخارجية بالسلطة العثمانية فان وضعهم بالنسبة لحكومة الهند ظل على حاله من دون تغيير . فما دامت الحكومة البريطانية تحتفظ بسيادتها على البحار فان الباب العالي ليس له حق المساس « بهذه العلاقات التي كونتها هذه الاقطار ممنا كدول مستقلة »[٢١] .

وما دام مركز بريطانيا في تلك انبحار مضمونا فليست هناك أدنى حاجة للانشغال بمشاكل شبه الجزيرة العربية ذاتها . لانه ما ان تقدم الحكومة على تخطيط حدود « عمان » فانها ستضطر الى التدخل ، كل وقت ، في أي نزاع اقليمي ينشأ بين تركيا والشيوخ العرب .

ولقد اعرب « مايو » نفسه عن معارضته لاقتراح حكومة لندن في عبارات أقوى من تلك التي رددها ايتجسون . فطبقا لما قاله نائب الملك « كان من احدى مآثر الدبلوماسية ان الحكومة التي ترغب في السلام ينبغي لها ان لا تبادر الى بحث موضوعات معقدة وصعبة ، وان لا ترد على الاسئلة المتوقعة الا بعد ان يتم طرحها . ولذلك فلست أرى أية ضرورة ــ مهما كانت ــ في الاعراب عن أي رأي يخص حدود نجد أو مسقط أو عمان او الخليج العربي »[٢٢] .

لقد كانت مسؤوليات بريطانيا في الخليج ثقيلة جدا . ولذلك لم يكن يجدر بالحكومة ان تضيف اليها مسؤوليات اخرى عن طريق اقدامها على الدفاع عن سلامة الامارات الساحلية .

وبينما كان نائب الملك يعتقد ان النفوذ البريطاني لم يصب باية طعنة جديدة نتيجة توطد سيطرة تركيا على شبه الجزيرة العربية ، الا انه لم يكن مستعدا لتعزيز سيادة الباب العالي على البحار .

كانت تركيا تعتبر من الدول البحرية في سني السبعينات (١٨٧٠) . وطبقا لبعض التقديرات كان اسطولها في قوته العددية يأتي في الدرجة الثانية بعد الاسطول البريطاني . ونتيجة لذلك فحين ذكر « بلي » ان الحكومة العثمانية صممت على انشاء اسطول بحري لها في الخليج ، ثارت مخاوف حكومة الهند بشكل بارز وكبير . في حين انبأ « مايو » الحكومة الامبراطورية بان من الضروري الاحتفاظ بالسيادة البريطانية على البحار . واذن فلابد من ابلاغ اسطنبول بان انكلترا لن تسكت عن أية محاولة تقوم اسطنبول بها لانشاء قوة بحرية لها في تلك المنطقة .[٢٣]

حين نقل « السر اليوت » مخاوف نائب الملك الى السلطات العثمانية قام « سيفر باشا » وزير الخارجية التركية بتهدئة مخاوف البريطانيين وذلك بان كرر نفس التأكيدات التي اعطاها علي باشا من قبل الى السفير[٢٤] . كما انه تكلم أيضا عن رغبة السلطان عبدالعزيز في ضم نجد

الى مملكته ، واكد بان حكومته قد بعثت بجزء من اسطولها الى الخليج لغرض استعادة نفوذها بامتداد السأحل العربي ، وان الباب العالي ليست لديه اية نية في التعرض لسيادة بريطانيا على المنطقة ٠

بلغت الحالة العسكرية في شبه الجزيرة العربية ذروتها من التأزم في صيف سنة ١٨٧١م ٠ فما ان سمع الكولونيل « سي ٠ هربرت » الوكيل السياسي في بغداد بأنباء الحملة التركية لاول مرة حتى لفت نظر المستر اليوت الى الصعوبات التي سيواجهها نفيس باشا حين يتقدم من القطيف الى « الرياض » التي تعد هدفه النهائي(٢٥) ٠ ذلك لان وجود خط مواصلات طويل جدا ، ووجود العدو في المؤخرة ، ووقوع نصف القوات من شدة المرض والاعياء ، كل ذلك قد يضطر قائد الحملة الى ان يستقر في الهفوف(٢٦) ٠

غدا مدحت باشا متشائما من احتمال وصول الحملة الى الرياض أيضا ، ولذلك قرر ان يزور الاحساء ليتأكد بنفسه من المكاسب التي حققها الجيش هناك ٠

كان وصول طلب ، مشكوك في صحته ، من الرؤساء البارزين في الاقليم الى السلطان عبدالعزيز يسألونه فيه ان يضم « نجدا » الى مملكته ، من الامور التي مهدت السبيل أمام زيارة مدحت باشا ٠ فهو ما ان بلغ الهفوف حتى اصدر بيانا يعفي فيه الاسرة السعودية من المهمة الموكلة اليها ، ويعين وفقا لذلك « نفيس باشا » واليا على نجد(٢٧) ٠ وهكذا جاء ضم نجد خاتمة « لأهم حدث »(٢٨) تميزت به ولاية مدحت باشا على بغداد ٠ ذلك ان مغادرة مدحت باشا لبغداد سنة ١٨٧٢ قد وصفت بانها النهاية للصفة الفعالة التي تميزت بها السياسة العثمانية في شبه الجزيرة العربية ٠ ومهما يكن فان الباشا قد ترك وراءه **حالة لم تستطع تركيا ان تقدرها حق التقدير ٠ فلقد كانت حملة سنة ١٨٧١ تؤلف اول اعتداء ملموس تقوم به الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية اذ أن الستراتيجية التي طبقها مدحت كانت تستحق التقدير للحنكة السياسية التي اتصف بها بوجه عام** ٠ فبالاستيلاء على الاحساء التي تمر بها طرق المواصلات من داخل شبه الجزيرة العربية الى الخليج ، تستطيع تركيا ان تمارس نفوذها المهيمن على كل من يتولى حكم نجد ٠ ولقد طبق الاتراك ذلك فعلا في الاربعين سنة التي اعقبت ذلك ٠ ومن المهم ذكره هنا هو ان أول عمل حاسم لاحياء الوهابية تحت زعامة عبدالعزيز السعود كان اخراج الدولة العثمانية من الاحساء التي كانت السيطرة الاجنبية عليها قد حولت الاستقلال العربي الى شيء وهمي ٠

* * *

في الوقت الذي حقق فيه « مايو » لحكومة الهند نصيبا ملموسا من النفوذ في الخليج العربي فان من الخطأ الاعتقاد بان وضع بريطانيا لم يتاثر

كليا ببسط النفوذ التركي على الاحساء • فقبل سنة ١٨٧٠ وبانعدام المعارضة المؤثرة نال البريطانيون حقوقا لم يكن لها أي أساس في الاجراءات التعاقدية(٢٩) •

وقد أثار ظهور تركيا في الخليج مصاعب في وجه ممارسة تلك الحقوق من قبل السلطات البريطانية • وأكثر من هذا أهمية ان ظهور تركيا كان يعرض للخطر سلامه الدول الساحلية التي حققت حكومة الهند التجانس فيما بينها •

على ان الشيء المميز للمشاكل التي ظهرت في افق التوازن الجديد في الخليج ، هو قضية الحقوق التي كانت البحرين تطالب بها في الاراضي العربية الرئيسة •• فقد كان حاكم البحرين يطالب بفرض سيادته على شبه جزيرة « قطر » ، التي كانت الحكومة الهندية قد أدركت اهميتها لاول مرة منذ سنة ١٨٦٨ • وكان عيسى بن علي قد انبأ دائرة المقيم البريطاني في بوشهر سنة ١٨٧٣ بالاعتداءات التركية على أراضيه ، وطلب الى السلطات البريطانية كبح جماح اسطنبول(٣٠) •

كان هذا الطلب قد وضع حكومة الهند في وضع صعب لانها كانت قد تعهدت بالدفاع عن سلامة البحرين طبقا لمعاهدة سنة ١٨٦١ • ولذلك رفعت الامر الى المقيم البريطاني •

وقد اعترف « بلي » بان المشكلة صعبة(٣١) • صحيح انه كانت للبحرين بعض الحقوق في ساحل قطر غير ان تلك الحقوق كانت غامضة الى درجة يستحيل معها الدخول في محادثات مع السلطات التركية بشأنها • وما خلا ذلك فان المشكلة لا يمكن تسويتها الا حين يتقرر مدى الادارة التركية على امتداد الساحل العربي • ولن يكون بحث القضية الاخيرة مفيدا الا اذا تقررت اهمية الحملة العثمانية • فليس من المهم المساحة التي يسيطر عليها الباب العالي من الساحل ، اذا لم تكن حملة ١٨٧١ موحى بها من مصدر أجنبي • اما اذا كان فتح شبه الجزيرة العربية قد اتفق عليه بين تركيا وروسيا « فان الامر سيكون خطيرا لانه في مثل هذه الحالة يعني وجود نفوذ مهيمن ••• في خليج عمان والخليج العربي »(٣٢) •

كانت مخاوف « بلي » من اشتراك روسيا في هذه الحركة لا أساس لها • فلقد خلفت القضية وضعا هادئا بعد مغادرة مدحت باشا مدينة بغداد مباشرة • وهكذا اشترك عاملان في بسط سيادة تركيا على الاحساء هما : بعد شبه الجزيرة العربية عن مركز ثقل الامبراطورية ، والصفة التعسفية التي اتصفت بها الادارة العثمانية • فحتى المصادر العثمانية كانت تعلم ان القبائل العربية قد أخذت تظهر تذمرها من العبء المالي الثقيل الذي فرض عليها نتيجة السيطرة الجديدة • وكانت عاقبة ذلك ان ثارت الاحساء سنة ١٨٧٤ ضد حاكمها التركي واستدعت احد الامراء السعوديين — هو عبدالرحمن بن فيصل — ليحكم البلاد • ولقد استولى هذا الامير الوهابي

على انهفوف لكنه اخفق في الحفاظ على مركزه حين عهد السلطان التركي بمهمة الصلح الى « ناصر باشا » زعيم « المنتفق » الجسور(٣٣) .

وحين كانت السيطرة العثمانية على الاحساء حذرة جدا كانت الحرب التركية الروسية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ قد اوجدت فوضى كاملة في تلك الولاية . وفي الوقت ذاته انتعشت القرصنة في الخليج(٣٤) . ولما كانت حكومة الهند تعمل بمثابة قوة بوليسية في المنطقة ، فقد كان من الطبيعي ان تهتم بهذا الامر وان تشعر ممثلها في البصرة باتخاذ الاجراءات اللازمة لبسط السلام في البحار بالتعاون مع عبدالله باشا والي الولاية .

ولما كانت المقترحات التي تقدمت بها الدائرة الخارجية الى البصرة تتضمن خرقا جزئيا لسيادة تركيا على المياه الاقليمية للاحساء فقد رفضت هذه المقترحات من قبل الباشا الذي أكد ان لدى حكومته من القوة ما تستطيع به تطبيق سيطرتها على شبه الجزيرة العربية(٣٥) كذلك لفتت الاوضاع المضطربة في الخليج أنظار « السر هنري لايارد » السفير البريطاني في اسطنبول(٣٦) . فقد كان لايارد ينظر الى المشكلة في زحمة العلاقات الانكليزية التركية ، وكانت نصيحته الى وزارة الخارجية تعكس الاهتمام بالاحاسيس العثمانية . فهو يرى ان الاعمال اللاقانونية التي حدثت في الخليج انما نشأت عن المنازعات المهلكة بين القبائل العربية التي لم تستطع الحكومة العثمانية ان تكبح جماحها بالنظر لحالة الضعف التي كانت تعانيها . فالوسيلة الوحيدة لمعالجة الحالة هناك هي مقاومة العدوان على الحقوق البريطانية في البحار ، و « تجنب اي تدخل مباشر في منازعات القبائل العربية على البر العربي ، واعتبار الحكومة التركية مسؤولة عن أي عمل قد ترتكبه ضد حياة الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم ضمن الاقاليم التي اعترف بحق الباب العالي فيها »(٣٧) .

لم ينل اقدام لايارد على كشف هذا الموضوع ، استحسان الحكومة الهندية التي كانت تعزي الاضطرابات التي وقعت في الاحساء الى اهمال السلطات التركية امر معالجة العابثين بحرية الملاحة معالجة جديدة(٣٨) . ومع ذلك فقد اثار السفير البريطاني نقاطا ذات اهمية اساسية في مذكرته التي قدمها الى وزارة الخارجية البريطانية ، كما حض السلطات الهندية على طرح تحليل لوضع الحكومة العثمانية في الخليج امام الحكومة الامبراطورية(٣٩) .

فقد ذكر في رسالة قدمت الى الدائرة الهندية ان توصيات « السر لايارد » يمكن اجمالها في فقرتين رئيستين هما : (أ) ينبغي للحكومة ان تتجنب التدخل في الاقاليم العربية التي تخضع لسيادة تركيا . (ب) وان يكون الباب العالي مسؤولا عن الاعمال اللاقانونية في البحار التي تقوم بها القبائل العربية والمعترف بسلطة الباب العالي عليها(٤٠) .

ومهما يكن الامر ، وقبل ان توضع هذه التوصيات موضع التنفيذ

كان من الضروري ان تتقرر حدود السيطرة العثمانية على امتداد الساحل العربي ، وحينذاك لم يكن مستطاعا سوى تقرير درجة التدخل التي تراها انكلترا ضرورية للمحافظة على مركزها في الساحل الخاضع للحكم التركي . وعندما فحصت حدود السيطرة العثمانية بينت الحكومة البريطانية ان سلطة اسطنبول على المناطق الممتدة من « البصرة » الى « العقير » أمر لا يقبل الجدل اطلاقا . اما الاعتراف بالحكم العثماني شرقي العقير فلا يمكن المطالبة به . فليس للباب العالي من سلطان على شبه جزيرة قطر عدا « بديع » الذي كان رئيسه تابعا لحاكم الهفوف سنة ١٨٧١ . فما وراء « بديع » تمتد الدول المهادنة ولذلك « فان من المستحيل المحافظة على الحقوق البريطانية وأداء واجباتنا اذا ما سمح بتوسع آخر للحكم التركي او نفوذه هناك »(٤١) .

كان التساؤل عمن هو أحق بالسيطرة على الخليج العربي سؤالا معقدا . فاذا ما استرشد بالتجربة فان تركيا لم تكن قادرة على احلال السلام في مياهها الاقليمية . فقد كانت للهند مصالح حيوية في المنطقة ، وهي قد لا تستطيع الانتظار وقتا غير محدد كيما يعود الباب العالي فيؤكد سيطرته هناك .

وما خلا ذلك فحتى لو كانت تركيا قادرة على صيانة مياهها فان دخول الاسطول العثماني الى الخليج قد يخلق حالة مستحيلة .

وفي الختام قدمت حكومة الهند بعض التوصيات بشأن الامارات الساحلية ، واقترحت ان على تركيا — مقابل الاعتراف البريطاني بالحقوق التركية على الساحل الممتد حتى العقير — ان تعترف باستقلال البحرين ، ومسقط ، والامارات المهادنة .

ولكي تعبر بقوة عن العلاقة بين الهند والدول العربية فان هذه التوصيات ينبغي أن تصاغ بشكل يؤكد احترام السلطات البريطانية .

كانت رسالة حكومة الهند تتطلع الى تسوية من النوع الذي يستحيل التوصل اليه . فهي تهدف الى تقسيم السواحل العربية الواقعة على الخليج الى منطقتي نفوذ بين انكلترا وتركيا حيث يعترف بالحكم التركي على نجد والاحساء مقابل الاعتراف بالسيادة الانكليزية على البحر العربي فيما يخص الامارات البحرية .

والشيء المؤكد هو أن توقيت تلك الرسالة قد قررته الاحداث التي وقعت في الشرق ، وأن السلطات الهندية كانت تفترض ان تركيا — التي هزمت في حرب سنة ١٨٧٨ — سوف توافق على كل ما يقدم اليها في الخليج العربي . ومع ذلك فلم يظفر ذلك العرض حتى بمصادقة وزارة الخارجية البريطانية . فقد اعترف اللورد سالسبوري وزير الخارجية أن المشروع كان فاخرا جدا من وجهة النظر الهندية فحسب(٤٢) . ولكن لماذا كان يجب على تركيا أن تقبل به ؟

لقد كان يتوقع من الباب العالي أن يلغي بعض حقوقه في مياهه الاقليمية ، وأن يتخلى عن ادعاءاته في السيادة على البحرين وعمان ، كل ذلك مقابل الاعتراف بسيطرته على الساحل الممتد ما بين البصرة والعقير ٠ وعلى هذا فلم تكن هنالك أية فائدة من تقديم مثل هذه الشروط الى اسطنبول وان من الافضل لحكومة الهند أن تنشىء حدا لا يسمح وراءه بتوسع النفوذ العثماني نحو الشرق ٠ أما غربي هذا الحد فمن المتوقع أن يمارس الباب العالي سيطرته عليه ولو أنه لا يمكن التعرض ، في الحالات غير الاعتيادية ، لتدخل البحرية البريطانية في أي مكان في الخليج ٠

ومع أن (اللورد كرانبوك) وزير الدولة البريطاني لشؤون الهند قد اعترف بتثمين اللورد سالسبوري لرسالة الحكومة الهندية تلك ، الا أنه كان متشائما فيما يخص كفاية الاجراءات المقترحة من لدن وزير الخارجية(٤٣) ٠ فقد بين أن التدخل في الخليج كان من نتائج ضعف ادارة الاقاليم التى استولت عليها حكومة اسطنبول سنة ١٨٧١ وهكذا وضعت عقبات أمام ممارسة بريطانيا لحقوقها التاديبية في الخليج العربي على يد البحرية البريطانية ٠ فالاعتراف بالحكم العثماني على جزء من الساحل سيكون مقدمة لاعمال تحضيرية يراد منها تحويل القواعد التركية الى هذه المنطقة ٠ وعلى هذا فان الحل العملي الوحيد هو اعادة مسألة السيطرة الاقليمية الى أصلها ٠ فالبحرية البريطانية لها أن تستأنف حريتها الكاملة في العمل بامتداد الساحل العربي على الخليج كله ٠

كان عرض (كرانبوك) يستهدف احياء الدور الذي كانت تقوم به البحرية البريطانية في الخليج قبل سنة ١٨٧١ ٠ لكن اللورد سالسبوري لم يرد أن يتخذ مثل هذا الموقف الصارم(٤٤) ٠ فقد كان يعترف بالرغبة في التوصل الى تسوية مع تركيا في الخليج ٠ لكنه كان حذرا بأن لا تغدو مثل هذه التسوية غير وافية بالغرض من اتخاذ « سبيل في ذلك الامر الذي قد يعتبره الباب العالي عملا عدوانيا غير قانوني ، أو أن يفسر من قبل دولة أخرى على أنه دليل يؤكد تقويض حكم السلطان أو اضعافه في جزء من ممتلكاته الاسيوية »(٤٥) ٠

وقد كشفت المراسلات بين حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية بأن الادارة البريطانية كانت قد جوبهت بمشكلة التوفيق بين هدفين متناقضين ٠ فالحل الذي حاوله اللورد سالسبوري للمشكلة نجد التعبير عنه في الرسالتين اللتين بعث بهما الى (السر هنري لايارد) ٠ فعند اتصاله لاول مرة بالسر لايارد طلب اليه وزير الخارجية أن يلفت نظر الباب العالي الى القلق الذي يسود المياه خارج الاراضي العربية التي تخضع للسيطرة العثمانية في الخليج ، والذي لم يستطع الموظفون الاتراك الهيمنة عليه(٤٦) ٠ فالحكومة البريطانية لم يكن يتوقع منها أن تتحمل وجود مثل هذه الاوضاع على وجه التحديد ٠ ولذلك ينبغي ايجاد صيغة لنظام بوليسي

فعال يطبق في الخليج . ولهذا الغرض اقترح بأن تقوم السفن البريطانية العاملة في الخليج بممارسة عملياتها خارج المياه الاقليمية للاراضي العربية شمالي (عديد) جهد المستطاع(٤٧) . على أنه كان لهذه السفن حق تعقب سفن القراصنة والاستيلاء عليها حتى داخل المياه التي سبق ذكرها حينما يكون مثل هذا الاجراء ضروريا .

وفي الرسالة الختامية أنبأ اللورد سالسبوري السر هنري لايارد بأنه قد كف عن اثارة المسالة التي تخص نطاق السيادة التركية في الخليج وذلك بسبب المطاليب المبالغ بها التي عرضها الباب العالي عندما بحثت مثل هذه القضايا ، وبسبب العناد الذي رافقها فيما بعد(٤٨) .

ومع هذا كان الموقف البريطاني واضحا . فالحكومة الامبراطورية قد تعترف بالسلطة العثمانية حيثما وجدت مثل هذه السلطة في حالة مناسبة . لكنها لا تعلق أية أهمية على مجرد الادعاءات . وأكثر من هذا فانه بالنسبة الى « مسقط ، والبحرين ، ورأس الخيمة ، ترى حكومة صاحبة الجلالة البريطانية أنه وان لم يكن من الضروري استحصال تصريح شكلي من الباب العالي يلغي به كل ادعاءاته بالسيادة على مثل هذه الاقاليم ، الا أن حكومة جلالته لا تجد أمامها أية طريقة تتراجع بها عن رفضها المتكرر لهذه الادعاءات ، وانها تعتبر نفسها ملزمة بمعاهداتها مع بعض الرؤساء في مقاومة أية محاولة يراد منها اضفاء الصفة العملية لتلك الادعاءات »(٤٩) .

كانت شكوك وزير الخارجية البريطانية بشأن امكانية التوصل الى تسوية مع تركيا تعكس بصفة مؤكدة التوتر الذي أصاب العلاقات بين البلدين عقب الحرب التركية الروسية(٥٠) .

فلقد قفز دور انكلترا في مؤتمر برلين الى حد التخلي عن سياستها التقليدية في مساندة وحدة الامبراطورية العثمانية ، واستبدالها بسياسة أخرى تنطوي على (تقسيم تركيا) بالشكل الذي دللت عليه عبارة « بيكنسفيلد » عن « اعادة توزيع الاقاليم »(٥١) .

فقد كانت تلك السياسة تتضمن محاولة بريطانيا فرض الاصلاحات على تركيا الاسيوية وتحويلها الى عائق في طريق التوسع الروسي نحو الجنوب مما كان يمثل أعظم خطر على البريطانيين . ولهذا أثارت بريطانيا السلطان عبد الحميد ضد ذلك التوسع . وما أن زالت المخاوف من روسيا مباشرة حتى غدت انكلترا « تحتل في ذهن السلطان ذات المنزلة التي كانت روسيا تحتلها قبلا »(٥٢) . ورغم أن عروض اللورد سالسبوري كانت تهيء الفرصة امام ظهور رد ايجابي الا أن الوضع ظل مستقراً أثناء سقوط حكومة المحافظين سنة ١٨٨٠ والتي كان سالسبوري عضوا فيها .

كان الحكم في بريطانيا قد انتقل الى (الاحرار) الذين تالفت الوزارة منهم بزعامة (غلادستون) ذلك الذي أكثر الحديث في خطبه الانتخابية عن (تحرير الترك !) .

وحين نقل المستر جورج (الفيكونت فيما بعد) غوشن ، السفير البريطاني الجديد في اسطنبول رسالة اللورد سالسبوري الى الباب العالي ، انبىء بلطف أن الحالة في الخليج العربي اعتيادية ولو أن احدى الكتائب البحرية كانت قد أرسلت الى هناك لمعالجة بعض الحوادث الطارئة(٥٣) .

كان الموقف الذي اتخذته اسطنبول قد أقنع وزارة الخارجية البريطانية بأن المحاولات الرامية الى ايجاد اتفاق مع تركيا ستكون عديمة الجدوى . ولذلك انبئت الحكومة العثمانية بأن انكلترا قد تستغل كامل حريتها في العمل داخل الخليج لحماية تجارتها « دون الاشارة الى ادعاءات السلطان بالسلطة الاقليمية في هذا المضمار » .

جاء بلاغ وزارة الخارجية البريطانيـة الجاف الى حكومة اسطنبول نهاية للمحاولة التي حاولتها بريطانيا لتخطيط مناطق النفوذ في الخليـج العربي طبقا لاتفاق يجري عقده مع الحكومة العثمانية .

ولم يكن الموقف السلبي الذي وقفته تركيا ازاء العرض البريطاني مثيرا للدهشة وذلك بالنظر لعدم ثقتها بالمسلك الذي سلكته الدول الاوربية في مؤتمر (فينا) الذي ألحق كثيرا من الاضرار بحكومة اسطنبول .

ومما تجدر الاشارة اليه أن السلطان عبد الحميد كان يعتبر الحالة المائعة في الخليج العربي وسيلة لممارسة الضغط على الحكومة البريطانية في سبيل الحصول منها على تنازلات في أي مكان . ومع ذلك فلابد أن يكون السلطان عبد الحميد قد أسف لان قراره جاء في المرحلة الاخيرة . فبينما كان اللورد سالسبوري يرغب في الموافقة على امتداد السيطرة التركية حتى (عديد) التي تقع داخل شبه جزيرة قطر ، أخذت الحكومات البريطانية المتعاقبة فيما بعد تعامل شبه جزيرة قطر وكأنها بلد مستقل . وأكثر من هذا أهمية أن الحقوق التي ادعتها الحكومة البريطانية في الكويت في أواخر القرن الماضي ــ عندما أصبحت سكة حديد بغداد من المشاكل الحية ــ كان من الصعب الادعاء والتمسك بهـا لو أن العرض الذي تقـدم به اللورد سالسبوري سنة ١٨٨٠ كان قد أدى الى عقد اتفاق بين بريطانيا وتركيا .

---

(١) هـ . ر . ب . دكسون : « الكويت وجاراتها » [لندن ١٩٥٦] ص ١٢٥ مذكرة عن الخليج من قبل الكوماندو تي . دوتي مؤرخة ٢٩ تشرين ثاني ١٨٧١ م الوثائق السرية لوزارة الخارجية في حكومة الهند رقم ١٢١ تموز ١٨٧٢ م . مذكرة عن نجد للكولونيل تي سي . روس المقيم البريطاني في الخليج ، تقرير دائرة المقيم البريطاني في الخليج لسنة ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠ مختارات حكومة الهند رقم ١٧١ .

(٢) دكسون : المصدر ذاته ص ١٢٦ .

(٣) أحمد حلمي مدحت بك : « حياة مدحت باشا » [لندن ١٩٠٣] ص ٥٠ ـ ٥٧ .

(٤) هـ . س . ج . فلبي « العربية السعودية » [لندن ١٩٥٦] ص ٢١٩ .

(٥) من الوكيل السياسي في بغداد الى السفير البريطاني في اسطنبول في ٢٠ شباط ١٨٧١ م الوثائق السياسية للدائرة الخارجية في حكومة الهند رقم ١٤٥ آيار ٨١٧١ م .

(٦) من الوكيل السياسي في بغداد الى السفير البريطاني في اسطنبول في ٢٤ و ٢٩ آذار ١٨٧١ م ٠

١٨٧١ م ٠ الوثائق السرية الداخلية للدائرة الخارجية في حكومة الهند رقم ١١٧ ، ١١٨ سنة ١٨٧١ م ٠

(٧) مذكرة سكرتير الدائرة الخارجية في حكومة الهند مؤرخة في ٥ نيسان ١٨٧٢ م الوثائق السرية للدائرة الخارجية في حكومة الهند رقم ١٢٠ ، ١٢٢ تموز ١٨٧٢ م٠

(٨) مذكرة سكرتير الدائرة الخارجية لحكومة الهند مؤرخة في ٣ أيار ١٨٧١ ، الوثائق السرية للدائرة الخارجية في حكومة الهند رقم ٥٨١ ، ٦٥٥ سنة ١٨٧١ م ٠

(٩) برقية نائب الملك الى سكرتير الدولة لشؤون الهند مؤرخة ٣١ آذار ١٨٧١ الوثائق السرية للدائرة الخارجية في حكومة الهند رقم ٥٨٨ لسنة ١٨٧١ ٠

(١٠) سي٠ وبستر : « سياسة بالمرستون الخارجية للسنوات ١٨٣٠ ـ ١٨٤١ » [لندن ١٩٥١] الجزء الاول ص ٦٢٨ ٠ هـ٠ ل٠ هوسكنز : « الطرق البريطانية الى الهند » [فيلادلفيا ١٩٢٦] ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ٠

(١١) من السفير البريطاني في اسطنبول الى سكرتير الدولة للشؤون الخارجية في ٣ نيسان ١٨٧١ الوثائق السرية لحكومة الهند رقم ٧٣ لسنة ١٨٧١ ٠

(١٢) مذكرة من السفير البريطاني في اسطنبول الى الحكومة العثمانية مؤرخة ٢٥ نيسان ١٨٧١ الوثائق السرية رقم ١١٠ لسنة ١٨٧١ ، مذكرة عن حديث جرى بين ني٠ بسماني المترجم في السفارة البريطانية باسطنبول وعلي باشا مؤرخة في ٢٥ نيسان ١٨٧١ الوثائق السرية لحكومة الهند رقم ١٢٠ لسنة ١٨٧١ ، رسالة السفير البريطاني في اسطنبول الى سكرتير الشؤون الخارجية مؤرخة ٢٦ نيسان ١٨٧١ الوثائق السرية لحكومة الهند رقم ٢١٦ لسنة ١٨٧١ ٠

(١٣) من المقيم البريطاني في الخليج الى حكومة بومباي في ٦ أيار ١٨٧١ الوثائق السرية رقم ١٩٨ ٠

(١٤) من سكرتير الدائرة الخارجية لحكومة الهند الى سكرتير حكومة بومباي في ١٧ ايار ١٨٧١ الوثائق السرية رقم ٦٤٥ لسنة ١٨٧١

(١٥) برقية الوكيل السياسي في بغداد الى سكرتير الدائرة الخارجية لحكومة الهند في ١٢ أيار ١٨٧١ الوثائق السرية لحكومة الهند رقم ٦٣٩ لسنة ١٨٧١

(١٦) مذكرة عن حملة نجد من قبل السفير البريطاني في اسطنبول مؤرخة في ٢٧ حزيران ١٨٧١ في الوثائق السرية لحكومة الهند رقم ٧٠ آب ١٨٧١

(١٧) انظر مذكرة عن نجد من وضع الكولونيل ني٠ سي٠ روس دائرة المقيم البريطاني في الخليج ٠ تقرير عن سنة ١٨٧٩ـ١٨٨٠

(١٨) برقية حكومة بومباي الى حكومة الهند بتاريخ ١٨ تموز و٧ آب ١٨٧١ الوثائق السرية لحكومة الهند رقم ١٧٦ ، ٢٢٥ آب ١٨٧١

(١٩) من سكرتير حكومة بومباي الى سكرتير الدائرة الخارجية لحكومة الهند في ٢٢ تموز ١٨٧١ الوثائق السرية رقم ١١ كانون اول ١٨٧١ ، وكذلك مذكرة ذات السكرتير المؤرخة ٩ ايلول ١٨٧١ في الوثائق السرية رقم ١٤٥ لسنة ١٨٧١

(٢٠) مذكرة سكرتير الدائرة الخارجية لحكومة الهند بتاريخ ٢٨ تموز ١٨٧١ في الوثائق السرية رقم ١٥٣ كانون اول ١٨٧١ ٠

(٢١) نفس المصدر السابق ٠

(٢٢) مذكرة نائب الملك بتاريخ ٢٠ تموز ١٨٧١ في الوثائق السرية رقم ١/١٥٣ كانون الاول ١٨٧١ ٠

(٢٣) الرسالة السرية رقم ٥٩ الى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ ٢٦ ايلول ١٨٧١ ٠

(٢٤) من السفير البريطاني في اسطنبول الى سكرتير الدولة للشؤون الخارجية بتاريخ

٢١ كانون الاول ١٨٧١ اقتبست في مذكرة عن الحكم التركي في الخليج العربي ٠ الوثائق السرية لحكومة الهند رقم ٢٣ أيار ١٨٨٠ ٠

(٢٥) من الوكيل السياسي في بغداد الى السفير البريطاني في اسطنبول بتاريخ ١٦ نيسان ١٨٧١ الوثائق السياسية السرية لحكومة الهند رقم ٤٩ آب ١٨٧١ ٠

(٢٦) برقية المقيم في الخليج الى سكرتير حكومة بومباي بتاريخ ٢٤ تموز ١٨٧١ الوثائق السرية رقم ١٤٤ لسنة ١٨٧١ ٠

(٢٧) انظر مذكرة الكولونيل روس عن تجدد دائرة المقيم البريطاني في الخليج في تقرير عن سنة ١٨٧٩-١٨٨٠ ٠

(٢٨) مدحت بك في كتابه عن حياة مدحت باشا ص٥٥

(٢٩) مذكرة سكرتير الدائرة الخارجية لحكومة الهند في ٢٨ تموز ٨١٧١ ٠

(٣٠) رسالة عيسى بن علي الى المقيم البريطاني في الخليج بتاريخ ١٧آب ١٨٧٣ الوثائق السياسية لحكومة الهند رقم ٤١٦ كانون أول ١٨٧٣ ٠

(٣١) رسالة السر لويس بيلي الى سكرتير الدائرة الخارجية لحكومة الهند في ٢٧ ت١ ١٨٧٣ الوثائق السياسية لحكومة الهند رقم ٤٢٠ كانون أول ١٨٧٣

(٣٢) ذات المصدر وكذلك مذكرة المقيم في الخليج الى حكومة الهند في ٤ ايلول ١٨٧٣ الوثائق السياسية لحكومة الهند رقم ٤١١ كانون أول ١٨٧٣

(٣٣) جي جي٠ لورمر : « أخبار الخليج وعمان وأواسط الجزيرة العربية [كلكتا ١٩١٥] القسم الاول ص ٩٧٢-٩٧٣ وكذلك كتاب مدحت بك ص٥٩

(٣٤) الرسالة السياسية رقم ٢٠ الى سكرتير حكومة الهند في ٢٤ ايلول ١٨٧٨ ٠ الوثائق السياسية لحكومة الهند رقم ٢٦٤ كانون ثاني ١٨٧٩ ٠

(٣٥) برقية الوكيل السياسي في بغداد الى سكرتير الشؤون الخارجية لحكومة الهند في ١٢ كانون الثاني ١٨٧٩ الوثائق السياسية رقم ١٥٨ ايلول ١٨٦٩ ٠

(٣٦) ن السفير البريطاني في اسطنبول الى سكرتير الشؤون الخارجية في ١٦ ايلول ١٨٧٩ الوثائق السرية رقم ٤ ايلول ١٨٧٩

(٣٧) ذات المصدر ٠

(٣٨) الرسالة السياسية رقم ٩١ الى سكرتير شؤون الهند في ٢٨ تموز ٨١٧٩ الوثائق السياسية رقم ٣٥٠ ايلول ١٨٧٩ ٠

(٣٩) مذكرة من نائب سكرتير الشؤون الخارجية لحكومة الهند في ٢٨ آذار ١٨٧٩ ومذكرة سكرتير الشؤون الخارجية لحكومة الهند في ٧ نيسان ١٨٧٩ الوثائق السرية رقم ٤٧/٢٥ ايلول ١٨٧٩ ٠

(٤٠) رسالة سرية رقم ١٣٧ الى سكرتير شؤون الهند في ٢٢ ايار ١٨٧٩ الوثائق السرية رقم ٤٦ ايلول ١٨٧٩ ٠

(٤١) نفس المصدر ٠

(٤٢) الدائرة الخارجية لمكتب شؤون الهند في ٢٣ آب ١٨٧٩ ٠ الوثائق السرية رقم ٢٨ ايار ١٨٧٩ ٠

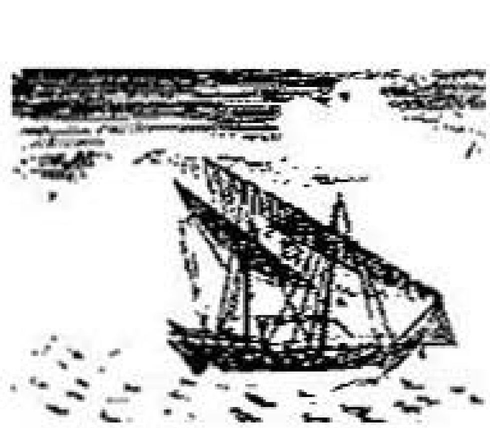
(٤٣) من مكتب شؤون الهند الى وزارة الخارجية في ١٧ ايلول ١٨٧٩ ٠ الوثائق السرية رقم ٢٢ ايار ١٨٧٩ ٠

(٤٤) من وزارة الخارجية الى مكتب شؤون الهند في ٢٢ ايلول ١٨٧٩ الوثائق السرية رقم ٤٧ ايار ١٨٧٩ ٠

(٤٥) نفس المصدر ٠

(٤٦) من سكرتير الشؤون الخارجية الى السفير البريطاني في اسطنبول في ٨ كانون الثاني ١٨٨٠ الوثائق السياسية رقم ٥٢ ايار ١٨٨٠

(٤٧) عديد تشير الى الشرقي للدول المهادنة الخاضعة للحماية البريطانية ٠
(٤٨) سكرتير الدولة للشؤون الخارجية الى السفير البريطاني في اسطنبول في ٨ كانون ثان ١٨٨٠ الوثائق السياسية رقم ٥٣ ايار ١٨٨٠ ٠
(٤٩) نفس المصدر ٠
(٥٠) طبقا لما ذكره « فمبيري » ان رفض انكلترا مساعدة الباب العالي في سنة ١٨٧٨ جعل السلطان عبدالحميد جد متشدد ضدها انظر مقالة فمبيري « السلطان عبدالحميد والكارثة التركية » في مجلة « آمستيك كوانرلي ريفيو » عدد تموز ١٩١٣ ص ٣ـ٤ ٠ كذلك انظر تاريخ كمبرج لسياسة بريطانيا الخارجية (كمبرج ١٩٢٣ مجلد ٣ ص ١٢٤) ٠
(٥١) دي ئي ٠ لي « بريطانيا العظمى واتفاقية قبرص ١٨٧٨ » [كمبرج ١٩٣٤] ص٣ ٠
(٥٢) نفس المصدر ٠
(٥٣) ف٠ شيرول : « المسالة الشرقية » [لندن ١٩٠٣] ص١٨٦ ٠ ج٠ ا٠ د٠ ماريو « المسالة الشرقية » [اكسفورد ١٩١٧] ص ٢٩٢ـ٢٩٣ ، ٣٣٧ـ٣٤٨ ٠
(٥٤) من السفير البريطاني في اسطنبول الى وزير الخارجية في ١٣ تشرين ثان ١٨٨٠ ٠ الوثائق السرية رقم ٢٢٧ كانون أول ١٨٨١ ٠



الحياة والحركة في اللغة العربية

الياس قنصل

الحيـــاة :

تختلف اللغة العربية عن غيرها من اللغات بأن (الحياة) التي فيها حياة خلاقة مبدعة ذات عبقرية خاصة • وفي الحين الذي نجد بقية اللغات أدوات للتعبير ، متى بلغتها فقد بلغت غايتها القصوى وانتهت مهمتها نجد أن الضاد لا تكتفي بهذه الغاية ، بل هي تريد أن يكون التعبير جميلا ، وتريد أن يمتد هدفها الى أكثر من ذلك بكثير فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال والذوق والذكاء ، فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتولد من نفسها كالطاقة الذرية سواء بسواء •

ولو أحببنا أن نضع للامر مثلا بسيطا يقربه الى الاذهان لاستطعنا القول أن بقية اللغات كالساعات العادية تضبط لك الوقت أقرب ما يكون الى الدقة ، أما اللغة العربية فكالساعة الذهبية التي لا يمكن الا أن تكون مثال الدقة في ضبط الوقت لان غلاء معدنها يحمل صانعها على مراعاة قيمتها وتوفير الانسجام بين الاتها الداخلية وغلافها الثمين ، فهي في وقت معا آلة لمعرفة الوقت بالدقة المتناهية واداة للزينة تلفت الانظار ، ورصيد مادي يحتفظ بقيمته الابرائية •

ويأتيك البرهان في صيغة من صيغها العديدة :

المبالغة في أبسط صورها هي تضخيم الشيء بحيث يتوجه اليه الانتباه وقد حلت اللغات الاخرى هذه المشكلة (اذا جاز لنا أن نسميها مشكلة) بطريقة شكلية خلاصتها اضافة زوائد على الكلمة أو تغيير اخرها • وهذا التحوير يكبر الكلمة في العين فقط •

وما هكذا اللغة العربية •

ان اللغة العربية حين تود أن تضع الكلمة في قالب المبالغة تعمد الى (الحياة البشرية) فتقتبس منها ما يبث في الكلمة روح هذه الحياة •

واترك الموضوع قليلا على أن أعود اليه بعد سطور قليلة :

ان الرجل الذي ينعم بميزات الرجل لا يستطيع أن ينال من تحديقك اليه ما ينال الرجل الذي شاءت الطبيعة أن تضع فيه بعض ميزات المرأة •

انك تمر بالرجل (العادي) فلا تحفل به •

ولكنك اذا مررت برجل قد برز نهداه ـ مثلا ـ فلا يسعك الا التفكير به قليلا أو كثيرا ، لان بروز النهدين من خصائص المرأة لا من خصائص الرجل ٠

وما نقوله عن الرجل نقوله عن المرأة ٠

ولا نعبأ بشعورك أزاء هذا التجاوز أو ذاك على الحدود المرسومة لاحد الجنسين : ما نشير اليه أن هذا التجاوز يلفت نظرك ٠

وقد أدركت اللغة العربية هذه الظاهرة فطبقتها على صيغة المبالغة ٠

فاذا شاءت أن تصف رجلا كثير الرحلات قالت عنه انه (رحالة) ٠

انها تقدمه لك وقد لحقت به التاء التي كان من حقها أن تلحق بالكلمة المؤنثة ، فعلت ذلك لتلفت نظرك الى صفة المبالغة فيه ٠

واذا وصفت لك رجلا واسع العلم قالت عنه انه (علامة) ٠ وهكذا

ان اللغة العربية في عبقريتها لا تكتفي بالطريقة الشكلية : باضافة التاء الى الكلمة ، بل تعمد كذلك الى المعنى فتغير صفته ، وتملأ (عينك وخاطرك) في نفس الوقت ٠

ان خصائص التانيث في الكلمة هي الوجه الاخر الذي يضع امام (الفكر) صورة صادقة عن المبالغة ، في حين أن اضافة الحرف ـ التاء ـ وتشديد عين الكلمة هي الوجه الاول الذي يضع أمام (العين) الصورة المطلوبة ٠

وأنت تنتقل بالمبالغة من (العين الى (الفكر) ليتم المقصود من التحوير ، لتستطيع أن تلم أشمل الالمام بالمبالغة المتوخاة من التغيير ٠

وما ينطبق على الكلمات المذكرة ينطبق على الكلمات المؤنثة ولكن بوسيلة عكسية ٠ ان صيغة المبالغة في الاولى هي الحاق علامة التأنيث عليها فمن الطبيعي والمنطقي أن تكون صيغة المبالغة في الكلمات المؤنثة حذف علامات التأنيث منها واذا بالمرأة التي تصون نفسها (مصون) لا امرأة مصونة ، واذا الحرب التي لا تبقي ولا تذر الحرب (الضروس لا الحرب (الضروسة) ٠

ان هذا التغيير ـ أو هذا القلب ـ يجعل عينك تلتفت الى ما اريد به من المبالغة ، ويجعل عقلك يمتليء بالصورة التي وضعت لها ٠

ان تاء (علامة ورحالة) وما اليها هي بروز النهدين في الرجل ٠

وان حذف تاء التانيث من (مصونة وضروسة) وما اليها هي اللحية في ذقن المرأة ٠

وليعذرنا الجنسان ـ اللطيف والخشن ـ فما أردنا الا تقريب القضية الى الاذهان ٠

ان لغتنا تمتاز كما أشرنا بهذه النفحة من الحياة التي تطل من تراكيبها وصيغها ومشتقاتها ومن كلماتها أيضا ، وهذا سر من أسرار عظمتها وجبروتها ٠

لقد حاربها الطغاة في مختلف عهودهم ، وحاولوا أن يقضوا عليها ٠ ثم ٠٠ ذهب الطغاة ، وظلت لغة الضاد تزود القومية العربية بالقوة والجمال والخلود ٠

الحـــركة :

(الحياة) في اللغة العربية حياة خلاقة مبدعة ذات عبقرية خاصة ـ كما قلنا ـ وهي لا تكتفي بمسايرة التطورات المستحدثة ـ كما تفعل بقية اللغات ـ بل يجد الباحث فيها (حركة بشرية) في تفاعلها ، فكأنها كائن حي يذهب ويجيء ، وتموج فيه العواطف والاحاسيس ٠

ومن أبرز الميزات في اللغة العربية أن (كلماتها) تنعم بهذه الحياة وبهذه الحركة التي نصف ، في الحين الذي نجد الكلمات في سائر اللغات أدوات جامدة لا يدب فيها شيء من الحياة الا بعد أن تجتمع طائفة منها الى بعضها ، وتؤلف عبارة ٠

كتبت فئة من المتبحرين في علم اللغة أن الكلمات العربية ذات أصول ثابتة تتفرع منها المعاني المتقاربة مثلا : النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف معاني البروز والنبو ـ فانظر الى فروع هذا الجذر :

نبت : برز من الارض ٠
نبط : اخرج ماء البئر ٠
نبع : خرج من العين ٠
نبغ : خرج وظهر
نبك : ارتفع ٠

الى اخر ما هناك من الكلمات التي تتشابه في الاصل ٠

هذا ما كتبه فريق من العلماء ، وقد اتخذوا من كثير من الاصول أدلة بينة واضحة صريحة ٠ واجتهادنا الوضيع في هذا الصدد أن اللغة العربية في عبقريتها لم تكتف بهذا (المنطق) الذي هو في حد ذاته قاعدة ، بل عمدت الى أكثر من ذلك ، وهاهي ظاهرة جديدة من ظواهر حياتها وحركتها حتى في الكلمات :

ان اللغة العربية (تتساهل) أشمل ما يكون التساهل حيـال من يتكلمها كما يفعل الرجل الشهم الكريم أزاء صاحبه تماما ٠

خذ مثلا كلمة (غضروف)

ان اجتماع الغين والضاد يثقل أحيانا على اللفظ ٠ وتناسق الحركات في الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن أخواتها في العبارة ـ وفي السـرعة الزلل ـ ٠

فماذا تفعل اللغة العربية لتتلافى هذا الامر ؟

انها تتساهل معك ، وتقول لك :

اذا لم تستطع أن تلفظ كلمة (غضروف) فالفظ كلمة (غرضوف) فانها هي نفسها .

وهكذا تترك لك اللغة المجال واسعا حتى اذا استثقلت اجتماع الغين والضاد وضعت بينهما الراء ، أو اذا انسابت الكلمة من فمك سريعةالانفصال عن مكانها في العبارة ، امنت الزلل الذي يمكن ان تقع فيه من تناسـق الحركات في الكلمة .

ان اللغة العربية لا تتعنت الى الدرجة التي تشعر بالبغض لها ، بل هي تاخذك بالحسنى ، فاذا أنت من (نبالة عواطفها) ومن (شهامة أخلاقها) اسير لا تكاد تملك من امرك شيئا .

وهاك مثلا ثانيا :

(القاف) حرف حلقي يصعب لفظه على البعض ، ولابد من لفظـه على من يتكلم الضاد ، ولكن اللغة لا تترمت ، بل تتساهل كعادتها ، وتقدم لك برهانا جديدا على طيب عنصرها .

اذا لم يكن من الهين عليك أن تقول :
دق - ومعناها كسر .
فلا بأس ، قل :
دك - ومعناها هـدم .

ان اللفظتين تتقاربان في الاداء ، بحيث يمكنك أن تنيب الثانية مناب الالى - هذا اذا كنت كما أشرنا ، ترى من الصعب التلفظ بالقاف .

وهذا التساهل من طبع اللغة العربية ، ولا يسري على كلمة مفردة ، بل على كلمات كثيرة .

وليس من عمل الصدف أن تكون لفظة (ركيك) قريبة جدا من لفظة (رقيق) .

وليس من عمل الصدف أن تكون لفظة (قط) مرادفة لكلمة (قد) و (قت) .

وليس من عمل الصدف أن تكون (لضلض) و (لظلظ) بمعنى واحد تقريبا .

واذا لم تشأ أن تقتنع بهذا التساهل الفريد بين جميع لغات العالم ، أحلناك الى الدليل الذي ما بعده دليل : على أن التساهل هو من طبع هذه اللغة ومن خصائصها البارزة .

لقد نوعت اللغة الحركات على كثير من الكلمات حتى اذا لفظتها - على غير يقين من شكلها - لم تكن فيها على خطأ .

البصل البري اسمه العنصل (بضم الصاد) والبنصل والعنصـل (بفتح الصاد) والعنصلاء (بضم الصاد) والعنصلاء (بفتح الصاد) .

وهذا التنويع والتشكيل في المصدر :

غاص غوصا وغياصا وغياصة ومغاصا
أتريد أرحب من هذا الميدان ؟
أتريد أكرم من هذا الكرم ؟
لا ٠٠لا

اننا نحن الذين لم نعرف قيمة هذه اللغة الفريدة من نوعها ٠
اننا نحن الذين لم نجل حتى الان الا القليل القليل من اسرارها ٠
اننا نحن الذين لم ندرك ما في كلماتها وحروفها من حياة ، وما في تراكيبها من منطق وشعور ٠



الجاذبية

ناجي عبد الصاحب

يتساءل الناس منذ القديم عن السبب أو الاسباب التي تدعو الاجسام لتتساقط متجهة نحو مركز الارض اذا ما افلتت عما يمسكها • وقديما قال الشاعر :

ما طار طير وارتفع الا كما طار وقع

ولكن لماذا يقع ذلك الطير ولم ينساب الماء في النهر من المنبع المرتفع الى المصب المنخفض ويساقط في الشلالات وما الذي يحدث المد والجزر ويمسك الكواكب تسبح في افلاكها حول الشمس بنظام دقيق لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون مما جعلنا نأخذ دوران كوكبنا حول الشمس كأساس في التقويم وقياس الازمان بدقة فتلك اشياء لم تكن معروفة لدى القدماء •

والواقع ان الصرح العظيم الذي توصلت البشرية لاقامته في علم الفيزياء تكون من لبنات صغيرات ساهم في وضعها في ذلك الصرح خلق كثير خلال حقبة طويلة من الزمن •

وفي اكتشاف ناموس الجاذبية يجد الباحث عنها في كتب التاريخ اسماء اعلام كان لعملهم الفضل الاكبر في اخراج هذا القانون الى الوجود أمثال تيكو براهي وكبلر وغاليليو ونيوتن •

فقد امضى تيكو براهي عشرين عاما في مراقبة آلاف النجوم وتسجيل كل ما يلاحظه عنها في جداول مفصلة تعتبر لدقتها الى يومنا هذا مرجعا يرجع اليه علماء الفيزياء والفلك • فقد كان تيكو براهي موهوبا في استنباط الالات التي تساعده في قياساته وتجاربه ومشاهداته •

وجاء بعده كبلر وكان موهوبا بالرياضيات لايميل الى القياس والتجريب العملي فاعتمد على جداول تيكو براهي وأمضى سنين طويلة في محاولة معرفة النظام الذي تسلكه الكواكب بدورانها حول الشمس وكان مصيره الاخفاق في كل مرة ولكنه لن يكل ولن ييأس وواصل العمل حتى اخرج للعالم ثلاثة قوانين تسمى باسمه يصف فيها حركة الكواكب حول الشمس ينص اولها على ان :

كل كوكب يدور حول الشمس في مدار بيضوي تقع الشمس فياحدى بؤرتيه ·

وينص الثاني على أن المستقيم الواصل بين الشمس وأى كوكب يمسح مساحات متساوية في أزمان متساوية ·

أما الثالث فيشير الى أن مربع زمن دوران كل كوكب حول الشمس يتناسب مع مكعب بعده عنها أى ان :

$$ن^2 \propto م^3 \text{ او ان } \frac{م^3}{ن^2} = \text{عدد ثابت لكل كوكب باعتبار أن (ن)}$$

تمثل زمن دوران الكوكب مرة واحدة حول الشمس ، (م) بعد الكوكب عن الشمس ·

وكان كبلر بجهده العظيم المتواصل قد قدم للعالم صورة بديعة واضحة بسيطة للنظام الذي تسلكه الكواكب في أفلاكها حول الشمس ·

وان ننس لا ننس هنا المجهود الكبير الذى قام به غاليلو والتجارب العديدة التي كان يجريها باسقاطه أجساماً مختلفة من قمة برج بيزا المائل ودراسته لحركات الاجسام على السطوح المائلة مما كان له أكبر الاثر في التمهيد للعلامة نيوتن (الذي ولد في نفس العام الذي توفى فيه غاليليو) لاكتشاف قانونه العام في الجاذبية ·

ولد نيوتن في سنة ١٦٤٢ وفي سنة ١٦٦٣ حل الطاعون الاكبر في الجزر البريطانية فاضطر نيوتن الى هجر جامعته كمبردج والاستقرار في بيته مدة عامين مثمرين اكتشف خلالهما نظرية ذات الحدين ووضع حساب التكامل والتفاضل وابتكر النظرية الصحيحة للالوان والقانون العام للجاذبية ولما يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ·

ويقال ان الذى حدى به الى اكتشاف قانون الجاذبية هو انه بينما كان جالسا في حديقة داره يفكر في دوران القمر حول الارض سقطت من الشجرة تفاحة فأوحى اليه سقوطها بالتفكير معا في سقوط التفاحة وسقوط القمر نحو الارض ·

اما سقوط التفاحة بتعجيل فكان معروفا من تجارب غاليليو واما بعد القمر عن الارض والزمن الذي يستغرقه القمر في دورته حول الارض ونصف قطر الارض فكان معروفا ومسجلا في جداول تيكو براهي مما سهل لنيوتن حساب تعجيل القمر ومقارنته بتعجيل الجسم الساقط قريبا من سطح الارض ومعرفة سبب الاختلاف · كما انه استعان بقانون كبلر الثالث فوجد ان قوة الجذب بين الشمس واى كوكب تتناسب مع كتلة الكوكب · ثم وسع معرفته بهذه القوة باستعراضه أمثلة من جذب الارض للاجسام وجذبها للقمر وجذب الشمس للكواكب وتوصل الى قانونه العام في الجاذبية الذى ينص على أن :

أية كتلتين في الكون تجذب احداهما الاخرى بقوة تتناسب مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسيا مع مربع المسافة بينهما . اي أن

$$ق \propto \frac{ك \times كَ}{م^2}$$

حيث تمثل ق قوة الجذب بين الكتلتين اللتين احداهما ك والثانية كَ المفصولتين بالمسافة م .

ومعنى ذلك ان قوة الجذب تتضاعف عند مضاعفة احدى الكتلتين المتجاذبتين وتقل الى الربع اذا ضوعفت المسافة بينهما وتقل الى التسع اذا زيدت المسافة بينهما الى ثلاثة أمثال ما كانت عليه . ولكتابة القانون بشكل معادلة يضرب أحد الحدين بعدد ثابت أي أن

$$ق = عدد\ ثابت \frac{ك \times كَ}{م^2}$$

ويسمى العدد الثابت بثابت الجاذبية وتتوقف قيمة هذا الثابت على نوع الوحدات المستخدمة في قياس الكتل والمسافات وقيمته في النظام المترى

$$٦٫٦٧ \times ١٠^{-٨} \frac{سم^3}{غم \cdot ثا^2}$$

وهذا القانون من الدقة والشمول بحيث اعترف كثير من العلماء الذين جاءوا بعد نيوتن بأنه باكتشافه هذا القانون لم يترك لهم شيئا يمكنهم عمله . ولتبيان اهمية هذا القانون في الفيزياء والفلك دعنا نستخدمه لحساب كتلة الارض التي نصف قطرها ٦٫٣٨ × ١٠^٨ سم . فبما ان كل جسم يسقط قريبا من سطح الارض بتأثير جاذبيتها يكون تعجيله أثناء سقوطه ٩٨٠سم/ثا^٢ فان الجسم الذى كتلته غرام واحد يزن عند سطح الارض ٩٨٠ داين(١) .

وحيث ان الذي نعنيه بوزن الجسم هو قوة جذب الارض له فان :

$$٩٨٠\ داين = ٦٫٦٧ \times ١٠^{-٨} \frac{سم^3}{غم \cdot ثا^2} \times \frac{١غم \times كتلة\ الارض}{(٦٫٣٨ \times ١٠^8 سم)^2}$$

---

(١) الداين وحدة لقياس القوة يعادل جزءا من الف من وزن الغرام تقريبا .

حيث ينتج من هذه المعادلة أن :

كتلة الارض = $٥ر٩٨ \times ١٠^{٢٧}$ غرام

= $٥ر٩٨ \times ١٠^{٢١}$ طن

= ٥٩٨٠ مليون مليون مليون طن ·

وحيث ان حجم الكرة = $\frac{٤}{٣}$ مكعب نصف القطر × النسبة الثابتة

$$\text{اذن فحجم الارض} = \frac{٤}{٣} \times (٦ر٣٨ \times ١٠^{٨}\text{سم})^{٣} \times \frac{٢٢}{٧}$$

$$= ١ر٠٩ \times ١٠^{٢٧}\ \text{سم}^{٣}$$

ولما كانت كثافة المادة نسبة بين كتلة جزء منها وحجم ذلك الجـزء فان :

$$\text{معدل كثافة الارض} = \frac{٥ر٩٨ \times ١٠^{٢٧}\ \text{غرام}}{١ر٠٩ \times ١٠^{٢٧}\ \text{سم}^{٣}}$$

$$= ٥ر٥ \frac{\text{غـم}}{\text{سم}^{٣}}$$

وهذا المعدل يعطينا فكرة عن تركيب باطن الارض ذلك لان قشـرة الارض تتكون من مياه تغطي ثلاثة ارباعها تقريبا واتربة وصخور تغطـى ربعها الباقي · وهذه مواد تقل كثافتها كثيرا عن معدل كثافة الارض الـذي مر ذكره فوق هذه الاسطر مما يدل على أن باطن الارض مكون من مواد تزيد كثافتها عن المعدل كثيرا ·

ان ثابت الجاذبية وهو مقدار صغير جدا يمكن اعتباره قوة جـذب بين كتلتين كل منهما ١ غرام والمسافة بينهما ١سم · على انه اذا كبـرت احدى الكتلتين المتجاذبتين فأصبحت بكبر الارض مثلا فأن قوة الجذب عند ذاك تصبح من الكبر بحيث يصعب الافلات منها كما يتضح لنا ذلك مـن الصواريخ التي ترسل الى الفضاء اذ انها لكي تتخلص من جذب الارض لها يزود بعضها بمحركات تبلغ قوة للصاروخ مليون ونصف المليون باوند · واذا وضعت في الصاروخ مركبة فضائية يقبع فيها ملاحو فضـاء وجب بالبداهة أن تكون للصاروخ قوة دفع اكبر · هذا في كوكبنا الارض · فأذا أراد ملاح فضاء ان يفلت من جذب المشترى وهو كوكب كتلته تكبر كتلـة الارض ٣١٨ مرة فتصور أنت ما يحتاجه من قوة لدفعه بصاروخه ومركبته الفضائية بعيدا عن المشترى ·

وما لنا نذهب بعيدا وقد جاءنا في الفرقان وفي سورة الرحمن (يامعشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان) والسلطان يعني القوة ٠

لننظر الان الى جذب القمر للارض ٠ والقمر جرم أصغر من الارض بـ ٨١ مرة ولكن جذبه للارض يسبب ارتفاع ملايين الاطنان من الميساه في المنطقة المقابلة له من الارض مما يسبب المد والجزر ٠ واذا أصبح القمر والشمس في جهة واحدة من الارض تعاون جذباهما للارض فولدا أعظم مد في ناحية الارض المقابلة لهما ٠

ولقد كان لقانون الجاذبية أكبر الاثر في اكتشاف كواكب جديدة لم تكن معروفة في زمان نيوتن ٠ فبعد ان اكتشف العلماء الكوكب يورنيس وجدوا ان هذا الكوكب لا يسير دائما على فلكه المحسوب ٠ ونتيجة للحسابات الفلكية قرر اثنان من الفلكيين أنه لابد أن يكون خروجه المؤقت عن فلكه المحسوب ناجما عن وجود كوكب قريب منه يجذبه ويغير مساره قليلا ٠

وعندما وجهت المراصد الفلكية صوب المنطقة التي يخرج فيها يورنيس عن فلكه اكتشف احد الفلكيين كوكبا جديدا سماه نبتون ٠

وختاما فان الانسان بمعرفته قانون الجاذبية اصبح يفهم كيف تتماسك جسيمات المادة مع بعضها بالتجاذب وكيف يحسب كتل الكواكب واقمارها وكيف يرسل الاقمار الصناعية والمركبات الفضائية لتدور حول الارض كما يدور القمر حولها ، ولماذا يحصل المد والجزر وتختلف جاذبية الارض للاجسام باختلاف المناطق لاختلاف نصف قطر الارض في الاماكن المختلفة ٠ واخذ علماء طبقات الارض يتنبأون عن نوع طبقات الارض وما تحتويه من خامات ومعادن في مكان ما بقياسهم تعجيل الجاذبية في ذلك المكان وسيظهر لنا المستقبل القريب اهمية هذا القانون في ارتياد الفضاء وسبر غور هذا الكون الفسيح ٠

• •

اغنية الى قلبي

علي جعفر العلاق

نم يا جريح .. غداً يحلو لك العمر … ويعذب اللهو في دنياك والسمر
غداً .. تمنه لك الدنيا مرافئها … خضراء بالصحو والانداء تنغمر
وتستظل بك الصحراء .. وحشتها … وينهل اللحن من تطرابك الوتر

◆

لاتسهر الليل .. عبر الليل انفصدى … من مذبح الامس .. من ماضيك ينحدر
يدمي بقاياك ، يفري الجرح .. يملؤه … تأوهاً .. ينفث النيران يستعر
اتعبر الليل .. ملفوفاً على جرح … تزيفه الصبوة المفتان والعمر ؟
ماذا حصدت ؟ .. زرعت الافق اشرعة … من كل لون فلم يحفل بها البشر
اتنزف النار ما شاقتك غانية … وما مشت حلوة بالطيب تأتزر ؟
اتعبتني .. اذبلت شكواك قافيتي … وآهة الحرف .. يندى تحتها الحجر
علمتني فرش اهدابي .. لتعبرها … درب ممزقة يرتادها السهر

◆

تثاءبت اكؤس السمار وانسفحت … تأوهاً متعباً .. للصمت ينهمر
وها هو الليل .. اغفى عند نافذتي … وانسل منطفئاً .. خلف الربى القمر
وانت انت صحارى تلتظي ظمأ … تعانق الجدب لم يحلم بها مطر
غداً .. تسيل ظلالي خضرة وندى … يطفي انسفاح الظما تهطالها العطر
غداً .. يمد الربيع النضر .. اذرعه … وتنتشي ربوة ولهى ومنحدر

الشعر في الجنوب الثائر

(١٢٦٢هـ ـ ١٣٤٠هـ)

هلال ناجي

يعتبر ـ أبو بكر العلوي[1] ـ شاعر اليمن الاول في زمانه ٠ وقد عاش طويلا وترك بعده ديوانا ضخما ٠ ان التيارات الاساسية في شعر ابي بكر يمكن اجمالها في الآتي :

١ ـ التيار الديني :

وهذا التيار يضم في اطوائه مدائحه للرسول الاعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) كقصيدته التي مطلعها :

لذى سلم والبان لولاك لم أهـوى ولا ازددت من سلع وجيرانه شجوى

---

(١) ولد بقرية حصن آل فلوقه من مضافات تريم ، وتربى بتريم في حجر والده وتحت رعاية أخيه الفقيه عمر المحضار وتعلم القرآن والكتابة بكتاب المعلم الصالح باغريب ثم تلقى فنون العلم عن والده وأخيه المحضار وعن عدد كبير من كبار العلماء في وطنه ناهزوا المائة أكثرهم من أهل حضرموت ٠

نظم منظومته المسماة (ذريعة الناهض الى علم الفرائض) وعمره نحو ١٨ سنة ، وله مصنفات في العلوم المعروفة في عصره تناهز الثلاثين أكثرها لم يطبع ٠

رحل من تريم الى الحجاز عام ١٢٨٦ هجرية ، واقام بمكة مدة غير قليلة ثم عاد الى تريم ، ثم رحل عنها سنة ١٢٨٨هـ الى عدن وما جاورها من اليمن واتصل بامراء لحج ثم توجه الى الشرق الاقصى وأمضى أربعة أعوام في (سورا بايا) بجاوا يتعاطى التجارة ، ورجع الى حضرموت عام ١٢٩٢ واشتغل بالتدريس والافتاء ، وكان له موقف حميد في اطفاء الحرب التي نشبت بين أمير يافع سلطان الشحر وامراء آل كثير سلاطين تريم وسيون والتي استمرت من ١٢٩٢ ـ ١٢٩٤ وتم الصلح على يده وبنفوذه ٠ وبعد مضايقات تعرض لها هجر حضرموت وطاف بلاداً كثيرة منها الحجاز ومصر والشام ثم الاستانة ٠ وقلده السلطان العثماني النيشان المجيدي ٠

رحل بعدها الى الشرق واقام في حيدرآباد دكهن بالهند وتولى التـدريس في مدرستها النظامية ، وتزوج هنـاك ورزق أولادا ، وفي عام ١٣٣١ عاد الشاعر الى وطنـه فاستقبل استقبالا عظيما ٠

وفي عام ١٣٣٤ عاد الى الهند لقطع علائقه بها ، فحالت دون ذلك ظروف الحرب العالمية الاولى حتى انتقل الى رحمة الله في ٢٩ ديسمبر ١٩٢٢ ببلدة حيدرآباد دكهن وترك ولدا واحدا اسمه مرتضى وأربع بنات وبنتى ولده الكبير علي ٠

وفيها يقول :

الا يا رسول الله يا من بنـــوره ... وطلعته يستدفع السوء والبلوى
ويا خير من شدت اليه الرحال من ... عميق فجاج الارض تلتمس الجدوى
اليك اعتذاري عن تأخر رحلتي ... الى سوحك المأوى عمن جنى عفوا
على ان خمر الشوق خامرني فلم ... يدع في عرقا لا يحس ولا عضـوا
واني لتعروني لذكـــراك هـــزة ... كما أخذت سلمان من ذكرك العروا
وما غير سوء الحظ عنك يعوقني ... ولـكنني احسنت في جودك الرجوا
وها انا قـد وافيت للروضة التي ... بهـا نير الايمان ما انفك مجلوا
وقفـــت بذلي زائرا ومســلما ... عليك سلام الخاضع الرافع الشكوى
صلاة وتسليم على روحـــك التي ... اليها جميع الفخر اصبح معـــزوا
عليك ســـلام الله يا من بجاهـــه ... ينال من الآمال ما كان مرجـــوا
عليك ســـلام الله يا من توجهت ... الى سوحه الركبان تطوي الفلا عدوا
سلام على القبر الذي قـــد حللته ... فأضحى بانوار الجـلالة مكسوا
اليك ابن عبدالله وافيت مثقـــلا ... باوزار عمـــر مر معظمه لهـــوا

وكقصيدته المهملة(٢) التي أولها :

ساد رسل الله طه احمد ... مصدر الكل له والمورد

* * *

كما يضم هذا التيار في اطوائه مراثيه ومدائحه لآل البيت الكرام ·
فمن جيـاد مراثيه لأمير المؤمنين علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه ، قصيدته التي أولها :

تنا وانثرا دمعا على الترب احمـرا ... وشقا لعظم الخطب اقبية الكرى

ومن جيد مديحه لامير المؤمنين قصيدته التي أولها

خذوا الحذر منها ان تطوفوا خيامها ... وان تجهروا يوما برد سلامهـــا

* * *

ومن جيد مراثيه للامام الحسين (عليه السلام) ،
قصيدته التي أولها :

بـــراءة بر في بـــراء المحـــرم ... عن اللهو والسلوان من كل مسلم

وكذلك مدائحه لآل البيت الطاهر المنبثة في ديوانه في الصفحات : ٤١ و٤٦ و٤٩ و٥١ و٥٢ وسواها · ومما يصنف في هذا التيار قصائده الطائفية ومحاججاته المذهبية ، وهذه القصائد واغلبها برهاني عقلي ، يطفح بها الديوان ·

في بعض قصائده الدينية يكشف عن عميق ايمانه بوحدة المسلمين على اختلاف طوائفهم :

ما كل طائفة من الاسلام مذ … عنة بوحدة فاطر الاكوان
وبان سيدنا الحبيب محمدا … عبدالاله رسوله انعدناني
وامام كل منهم في دينه … اخذاً ورداً محكم القرآن
فآلهنا ونبينا وكتابنا … لم يتصف بالخلف فيها اثنان
والكعبة البيت الحرام يؤمها … قاصي الحجيج لنسكه والداني
وصلاة كل شطرها وزكاته … حتم وصوم الفرض من رمضان
افبعد هذا الاتفاق يصيبنا … نزغ ليفتننا من الشيطان

* * *

لكن شاعرنا بعد هذه النظرة الرحبة يكبو كبوات وينزلق لسانه في وحدة الطائفية ، استمع اليه يقول في هجاء السلفيه واللذين سموا بالوهابية خطأ :

ارشد الله شيعة ابن سعود … لاعتقاد الصواب كي لا تعيشا
فرقة بالغرور والطيش ساروا … في فجاج الضلال سيرا حثيثا
جسموا شبهوا وبالأين قالوا … لوثوا اصل دينهم تلويثا
من يعظم شعائر الله قالوا … انه كان مشركا وخبيثا
ولهم بعد ذاك خبط وتهو … يس تولى مجسدهم والمريشا
او يقل ضرني فلان ونجا … ني فلان يرونه تثليثا
واذا ما استغاث شخص بمحبوب … الى الله كفروا المستغيثا
لابن تيمية استجابوا قديما … وابن عبدالوهاب جاء حديثا
اعرضوا عن سوا الحقيقة يبغون … بما يدعون مهدا اثيثا
وتعاموا عن التجوز في الاسناد … عمدا فيبحثون البحوثا
اوليس المجاز في محكم الذكر … اتانا مكررا مبثوثا
وتسموا أهل الحديث وهاهم … لا يكادون يفقهون حديثا

وتسوقه الخلافات المذهبية الى نقد (البخاري) :

قضية اشبه بالمرزئة … هذا البخارى امام الفئه
بالصادق الصديق ما احتج في … صحيحه واحتج بالمرجئه
ومثل عمران ابن حطان او … مروان وابن المرأة المخطئه
مشكلة ذات عوار الى … حيرة ارباب النهى ملجئه
وحق بيت يممته الورى … مغذة في السير او مبطئه
ان الامام الصادق المجتبى … بفضله الآى أتت منبئه
اجل من في عصره رتبة … لم يقترف في عمره سيئة
قلامة من ظفر ابهامه … تعدل من مثل البخارى مئه

* * *

ومثل هذا يقال في ردوده على مسودتي الخليفة معاوية بن ابي سفيان :

كشفت بقال الله قال رسوله ضلال ابن هند والذي فيه من عاب
واثبت ما نيطت بـه من بوائـق وبغى بمـا لم يبق ريبا لمرتاب
فسرت قلوب المتقين ورحبـت فحول ذوي التحقيق اجمل ترحاب
وانكـر اقوام يخالون انهـم رجـال وان العلم لعبـة لعـاب
ومن هم وما هم لو عجمت قناتهم سوى كل سباب سفيه وصخاب
ساضرب عنهـم لا لعجز وانمـا ارى الكف عن صيد الثعالب اولى بي
الم تر ان الليث يحمي عرينـه ويفرق من انيـابه كل ذي ناب
ويعرض ان نقت ضـفادع غابه ولو ملأت اصواتها افق الغـاب

* * *

وكقوله رداً على السكلواذي في عقيدته :

قـل لابن كلواذي وخيـم المورد اوقعت نفسك في الحضيض الاوهد
افأنت تطمع يا سخيف العقل في ارغـام طـه والوصي المهتـدى
والمسـلمين الصادقي ايمانهـم بالله جـل وبالنبـي محمـد
اولست انت القائل البيت الذي تصلي به وهج السعير المؤصـد
(ولابن هند في الفـواد محبـة مغروسة فليرغمن مفنـدي)
ارايت ويلك ذايقين لا يفتنـد ما يفوه به لسـان الابعـد
او هل ترى الا بقلب منافق غرست محبة عجلك المتمـرد
او ما علمت بان من احببته رأس البغاة وخصم كل موحـد
لعن الوصي وبدل الاحكام وار تكب الـكبائر باللسان وباليد
ان المحب مع الحبيب مقره وسوف تعلم مستقرك في غد
فعليكما سخط الاله ومقتـه وعلى الذي بك في العقيدة يقتدي

* * *

وهو في شعره الديني يقع ليس فقط في وحدة الطائفية بل في وحدة العنصرية والطبقية اللتين ينكرهما الاسلام فقد نهد الشيخ أحمد محمـد السوركتي الانصاري الى تأسيس جمعية الاصلاح والارشاد في (بتا فيا) لانقاذ الحضارمه من رق الامتيازات الطبقية التي يفرضها العلويون عليهم . وكانت دعوته في اصلها موافقة لروح العصر ولمبادىء العدالة ولجوهر الدين فانبرى له (أبو بكر العلوي) يهجوه هجاء مرا دفاعا عن امتيازات طبقية ، ليس ذلك فحسب بل انه كشف عن روح عنصرية تؤمن بتفضيل عنصر على عنصر وهي روح غريبة عن الاسلام تماما ، استمع اليه يقول :

وذات آل الرسـول الـ اطهـار بيتنـا ونبتنـا
كـذات ابنـاء سـنا ن السود من قد عنمتا
والذفـر فطس الانوف العبـدان خـابوا وخبتـا
كـم آيـة وحـديث مكـذب مـا زعمتـا

وحدت ضدين جهلا   والمستحيل اجزتا
اتجعل الزفت مسكا   أم تجعل المسك زفتا

* * *

ومما يندرج في هذا التيار تعرضه بالنقد لبعض ادعياء الدين في زمانه (الديوان ص ٢٥٥) :

نشكو الى الرحمن من هذه الغوغاء شكوى من رماه الزمان
من ماكر ذي سبحة او مرا   ء قارىء همسا وذي طيلسان
ورامز بالغيب ذي حيلة   يلفظ بالقول الكثير المعان
رواد صيد كلهم حاذق   في الرمي لا يصطاد الا السمان
شباكهم دعوى الكرامات والكشف وتزوير المراثي الحسان
هذا يرى المختار في نومه   وذاك يستخبره بالعيان
كانه من بعض اتباعهم   يحضر في كل مكان وآن
ومنهم المخبر عن برزخ الموتى شقي او سعيد فلان
وقد أراني الله شيخا له   جماعة رجلاه مصفرتان
فقلت ماذا نابه قيل من   وطىء حشيش الجنة الزعفران
اف لقوم همهم كيدهم   وجمعهم للمال من حيث كان
بالمال تلقاهم سكارى كما   يسكر من يشرب خمر الدنان
ان احسن انظلس بتلبيسهم   عتر راوا تطهيره بالختان
من كل ما الانسان يخشاه من   مستقبل الدارين يعطى الضمان
وان رأوا في عقله خفة   باعوه في الدنيا قصور الجنان
وكم وكم قد موهوا زائفا   فظنه البله ثمين الجمان

ونظير هذا هجاؤه لدجاجلة المتصوفه ، استمع الى قوله من مطولة : (الديوان ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩) :

معط الذئاب الناطقات هم الاولى   جعلوا التصوف صنعة للداجل
لبسوا العبايا والمسابح والحبى   والطيلسان يدار فوق الكاهل
والمظهرين البر والتقوى واد   مان التنسك خدعة للجافل
واذا خلوا عكفوا على شهواتهم   من لاعب او شارب او آكل
هجروا كتاب الله واستغنو بالحان السماع ورقصه المتداول
زعما بان الطار والمزمار والـ   اوتار تنعش كل قلب ذاهل
ايقوم دين الله بالسفهاء من   ذى مزهر او زامر او طابل
ولكم لهم في السر غامض حيلة   ابليس لم يطمع لها بمماثل
ولهم مع الجنس اللطيف لطائف   ابت المروءة شرحها للناقل

* * *

ولقد ساقه المساق الى ايضاح عقيدته الدينية والمذهبية شعرا :

ان لي من تمسكي بكتاب الله منا اتقي بـه الاخطـارا
ولما صح من حديث ابي القا سم انقـاد راضيا مختارا
لا اعاني التأويل فيها اتباعا للهـوى او تعصبا او ضرارا
مذهبي مذهب الوصي ابي السبطين فالحـق دائر حيث دارا
وتمسـكت بالشـهيدين اني سائر في عقيدتي حيث سارا
ديننا حب اهل بيت رسول الله حبـا يكفـر الاوزارا
وكذا حب صاحبيه الضجيعين العنيـين عنـده مقـدارا
بهما رب فتنـة أخمـد الله ازاغـت لهولها الابصـارا
وبعثمـان نعـرف الفضل لما جاد بالفضل حين نال اليسارا
والاولى بشروا بان لهـم في جنـة الخلد مستقرا ودارا

* * *

وهو في موضع آخر من ديوانه يكرر فكرته بايجاز :

تبـاينت المذاهـب واستطالت بهـا الاهواء واحتـدم النزاع
لئن كان اقتفاء كتـاب ربي وسـنة مصـطفاه والاتبـاع
ضـلالا وابتـداعا ان ديني وان زعمـو الضلال والابتداع

* * *

ولقد ساقته هذه المناقشات واشباهها الى صراع مرير مع مخالفيه في الراي ، كشفت عنه قصائده فهو القائل

جئت من آي الكتاب ومن خبـر الهـادى بمخرسـهم
فـأبوا الا مكـابرة وتمـادوا في تغطرسـهم

* * *

وهو القائل قصيدته التي أولها :

انادي وكم ناديت سرا واعلانا وجادلت بالحسنى وبالرفق احيانا

وبعـد فان الحديث عن التيار الديني في شعر (ابى بكر العلوي) حديث يطول كثيرا ، فنكتفي بما قدمنا .

ثم ان شعره في الاستغفار ، هو من اصدق شعره الديني في رأينا :

يظنـون بي خـيرا واني لمخطىء مقر بان انظهر بالوزر مثقل
ولي امل ان يجعل الله خير ما يظنون حقا والخطايا تبـدل
ومن دينـه حب النبي وآله بيوم التنادى كيفما كان يقبل

* * *

٢ ـ تيار المديح :

والتيار الثاني في شعر ـ ابي بكر العلوي ـ هو تيار المدح ، والمدح يستغرق في مجموعه أغلب ديوانه شأن أغلب شعراء العرب في القرن التاسع عشر .

وهذا المدح تقليدي في صوره والفاظه والشاعر يفتتحه بالغزل التقليدي المعروف في زمانه ٠ ان الشاعر يمدح حتى الطاغية (عبدالحميد الثاني) المشهور بظلمه وتجبره ، مهنئا اياه بسلامته من القنبلة التي القيت عليه سنة ١٣٢٣هـ :

غلت يد العادي الى صـــدره ... ورد كيـــد الخصم في نحـــره
والله جلـــت ذاتـــه حافـــظ ... حـــافظ دين الله في عصـــره
خليفـــه الحـــق الذي اختاره ... في بره انباري وفي بحره

وله ممتدحا السلطان عبدالحميد خان :

امـــير المؤمنين اجـــل غـــاز ... بقائم سيفه الدين استقـــاما
به تزهـــو المنابر حـــين تتلى ... شـــمائله وتهتـــز احتـــراما
شاءى ما شاء في العلياء حتى ... على هام السهى ضرب الخياما
تؤمل من جلالتـــه وتخشـــى ... ملوك الارض صفحا وانتقـــاما
مليك تعجز الايام عـــن ان ... تجيء بمثله بطـــلا همـــاما

ثم يختتمها بقوله :

أمير المؤمنين انعم صبـــاحا ... ودمت تقي من الدهر الـــكراما
فانت العروة الوثقى ولســـنا ... نرى للعـــروة الوثقى انفصاما
اتيت اليك من بلـــد بعيـــد ... لاقرئك التحيـــة والســـلاما
واقضي حـــق بيعتك التي من ... تخلف دونهـــا يلـــق اثامـــا
ولم تكمـــل لمن لم يعتنقهـــا ... ديانتـــه وان صـــلى وصـــاما
وقابل بالقبول مهـــاة خـــدر ... حيـــاء منك تعثر واحتشاما
تمد اكف معـــذرة وعجـــز ... عن استقصائها المـــدح التماما
وكيف بحصر مالك من فخار ... ولو حاولته خمسين عامـــا
فانك زينـــة الدنيا جميعـــا ... ونثر ثنـــاك قـــد زان النظامـــا

ويمكن ان ترد هذه المدائح ونظائرها الى الشعور الاسلامي العميـــق للشاعر ولاعتقاده بان الخليفة (حافظ دين‌الله في عصره) ٠

وقد غص ديوان ابي بكر بمدائحه لخديوي مصر توفيق باشـــا ، ملتزما في مدائحه حرفا واحدا في أوائل الابيات وقوافيها ٠ مثال ذلك ، مدحته التي أولها :

خطايا الهوى العذرى تنسى وتنسخ ... وآياته في اللوح تتلا وتنسخ

ومدحته التي أولها :

حنينى الى حى الاحبـــه والسفح ... وشوقى الى وادى البشامات والطلح

ومدحته التي أولها :

جـــد بالمعتقة التي لم تمزج ... واجـــل الدجى بشعاعها المتاجج

ومدحته التي أولها :

ثقى بامانتى ان طـــال مكث ... فما في مذهبي للعهد نكـــث

وهذه المدائح تطفح بالمبالغات وكل قصده منها يبدو في هذين البيتين :

ثبي يا هند نحو عزيز مصر   فكــل مملــك الآه غـث
ثمين المــال في يــده رخيص   وللبأساء من جــدواه جـث

فالركض وراء مال الممدوح كان وراء هذه القصائد كلها ·

مثال هذا يقال في مدائحه لسلاطين الهند والجنوب وزنجبار وشريف مكة وسواهم

ومن الانصاف ان نقول ان الشاعر نفسه استشعر الندم العميق لان مدائحه كانت في غير أهلها ، بل استشعر الندم لانه أضاع شعره في المدائح في حين عاف الغزل والنسيب وهو بهما اولى · استمع اليه يقول (الديوان ص ١٠٢ ـ ١٠٤) :

فكم من مدحة ذهبت ضياعا   سبكت نضارها واليك تنسب
ظلمــت نفيسـها ووضعته في   اسافل لم تكن في الحمد ترغب
كما ظلمت عقود من جمــان   اذا ما قلدت في جيــد ارنب
بنيت من البديع لهم قصورا   فهدمهــا قصــورهم وخــرب
وشمت بروقهم فظننت مــاء   ولم تعلم بان البرق خلــب
اذا ما كان للممدوح مجــد   والا فالمديح بعينــه ســب
وحسبك ان من يتلو مديحا   بهــم فهو المــكذب والمــكذب
فبئس القوم لا بطش لديهــم   يخاف ولا ندى يرجى ويطلب
شعــارهم الملابس والمــلاهي   وفخرهم المفضض والمذهــب
بهــم يشقى جليسهم وتبت   يدا من ظل مرتقبا لهــم تب
فـــوا اسـفا على در نفيس   بسوق الجزع اضحى اليوم يجلب
وواعجبا لجهلك كيف كــانوا   وجهلهم بمــا ارتكبوه اعجب

ثم عاج الى بعض ممدوحه فهجاهم في القصيدة ذاتها هجاء مرا ·

واذا كان ثمة ما يقال في هذه المدائح فهو ان الشاعر قد كشف فيها عن فنون من الصنعة الشعرية عجيبة ، فقد كتب قصيدة يمتدح بها مير عثمان عليخان ملك حيدر آبادكن فريدة في بابها (تتفرع الى خمس قصائد كلها مستقيمة الاوزان متناسقة المعاني وهي أربعون بيتا تكون مئتي بيت ، وبيان ذلك ان القصيدة من بحر الرجز الذي هو ستة أجزاء فالقصيدة برمتها من بحر الرجز التام وبحذف الجزء من الاولين تكون قصيدة من مجزوء الرجز وبحذف الجزءين الوسطين تكون قصيدة أخرى منه أيضا ، وبحذف الاخيرتين تكون قصيدة أخرى منه كذلك ، وبحذف الاولين والآخرين تكون قصيدة من منهوك الرجز) مثال ذلك :

اسنى الملوك زعيمها عثمان ضر   غام الشرى رب الجحافل والبنـود

فهو يتفرع الى الآتي :

اسنى الملوك زعيمها ... عثمان ضرغام الشرى
اسنى الملوك زعيمها ... رب الجحافل والبنود
عثمان ضرغام الشرى ... رب الجحافل والبنود

وفي مثل هذا واشباهه ضاعت طاقاته الخلاقة عبثا .

٢ ـ التيار الحماسي :

قصائد الشاعر في الفخر وفي الهجره دفعا للذل وشجبه الفساد كلها مما ينتظمه التيار الحماسي - والهجرة دفعا للذل قديمة في الشعر العربي قدمها في الطبع البدوي فالبدوي اذا ما ضيم ولم يملك لهـذا الضيم ردا اسرع الى بيته يطويه والى راحلته يغذ بها السير عبر الفيافي دفعا للذل :

وقديما قال الشاعر العربي :

وفي الارض منأى للكريم عن الأذى ... وفيهـا لمن رام القلى متحـول

وحفيده الحضري بعد مئات السنين لا يملك غير هذه السنة دفعـا للذل وابتعـادا عن دار الهوان ان من قرأ اشـعار عبدالحميد الشـاوي وعبدالغني الجميل والاخرس في الهجرة ، لا يعجب اذا ما قرأ لشاعرنا (ابى بكر العلوي) مثل قوله :

هـل في القضية ان اقيم ببلدة ... يخشى الكرام بها اذى اوغادهـا
في الارض متسع لحر نفسه ... عصماء يأمن مستحيل كسادها
فلتثكل الغنـا حلوى دورهـا ... وعلي فلتلبس ثيـاب حدادها
فسنام اى الارض اذهب منزلي ... ولي الندامى الغر من امجادها
وتريم تعلم والمدائن حولهـا ... اني لدى اللأواء من اجوادهـا
واذا جرت خيل الكرام الى مدى ... فمن المجلي في كرام جيادهـا
ولربما التبست بها سبل المعا ... نى والبيان فكنت قس ايادهـا
ولطالما اجهدت نفسي ساعيـا ... في لم فرقتها ودرء فسادهـا
كم فتنة فيها اكفهر وبالهـا ... حمد الانام سراي في اخمادهـا
اني لتكرمني الاسود بارضهـا ... لشريف منزلتي وعظم مفادهـا
وتسومني بكم ثعالب ارضـكم ... سوأ ويأبى الله نيـل مرادها
يأبى الابي الذل لو عين الحيا ... ة بدارها لم يلف من ورادها
آه لضيعة سـنة العدل التي ... فيها صلاح بلادهـا وعبادها
أبمسمع منكم ومرأى يا بني ... بدر تضام الأم من أولادهـا
هلا اتبعتم امر ارباب الحجا ... وذوى الهدى والرأى من اطوادها

وبالفعل لقد رحل ابو بكر عن وطنه الصغير غير مرة دفعا للذل وكان لسان حاله يردد :

وارحل فان العجز شر مصاحب … عجلا وطأ في السير شوك قتادها
واخطب عذار المجد في آفاقها … واشهد مواسمها على ميعادها
وجب المشارق والمغارب واسع في … اغوارها واركب صها انجادها
فنفائس الياقوت تؤخذ من معا … دنها وتشرى من يدى نقادها

لكن هل كان أبو بكر سعيدا في هذه الهجرة وهل طابت له غربته ، ان من يتعمق في ديوانه يجده غير سعيد أبدا فهو القائل :

جئست للدكن الخصيبة لكن … خانها الميم لي بالاستبدال
وغدوت النزيل في دار من كا … ن اختلاطي بهم كمثل اعتزالي
غربة في ديار من ليس جنسي … جنسهم والمقال غير المقال
سمت فيهم نفيس علمي فلم ينفق وقرظتهم بسحر حلال
وبمحض العفاف صار كتابي … مستعارا وصافناتي نعالي
ذهبت حكمتي ضياعا وشمسي … في استتار وعزتي في ابتذال
فيهم قد قضيت تسعة اعوا … م اذابت نفيس عمري ومالي

وهو القائل في موضع آخر من ديوانه :

علام التمادي في مكابدة البلوى … وحتام ادمان التجافي عن المأوى
ومن عجب اني نزيل ببلدة … شمائل اهليها الحماقة والدعوى
يرون من العار الفصاحة بالفتى … وليس بعار منهم اللحن والاقوا
يقولون مهما جئت بالحق ان ذا … اخو جدل يستوجب السب والهجوا
الى الله اشكو غربتي بينهم فما … الى غيره من مثلهم تنفع الشكوى

ومن شعره الحماسي ذبه عن عدن معارضا قصيدة القائل في عدن :

هي عدن لسكنها من جهنم … عندها يمرض الصحيح ويسقم

يقول أبو بكر العلوي :

عندليب الحبور والبشر نمنم … وهزار السرور بالسر ترجم
وجرى سجسج النسيم عليلا … شافيا للفؤاد من زعزع الهم
والاغاني على بساط التهاني … والمثاني رخيمها يترنم
وعلى ذكر من نحب شربنا … ما براح الافراح يا صاح مأثم
حق لي ان أتيه زهوا وان اختال فخرا وليس ذا بالمحرم
اذ قضاني الزمان غاية آما … لي فمالي بذمة الدهر مغرم
حيث حطت ركائبي برحاب … قدست ان يحل ساحاتها الذم
عدن وهي في الحقيقة عدن … جنة ازلفت لمن سوحها أم
بلد طيب ورب غفور … وقصر سرور سكانها عم
ومغان كانها في جنان … وغوان كالحور أو هي انعم
حيث يرعى الذمام والجار يحمي … ويعز القطين فيها ويكرم

ومن شعره الحماسي قوله مفتخرا :

عاذلي في كــرم الــكف وفي ... كرم الاخلاق والنفس ســلاما
هو من طبعي وارث من ابي ... بعد اجدادي الاولى مروا كراما
والفتى لم يبق مهما مات الا ... احد الذكرين حمدا او ملامــا
يحمد الخالق والخلــق كرا ... م الساعي ويذمون اللئامـــا

٤ ـ التيار الوجداني :

على الرغم من المظهر الديني الذي كان لابى بكر العلوي والذي كان يلزمه بالابتعاد عن شعر الغزل فهو كشاعر ذى وجدان رقيق كان يحس في اعماقه صراعا بين قلبه ودينه استمع اليه واصفا هذا الصراع بين نواحي الدين ونزغات القلب :

انا من هوى سود الذوائب ذائب ... أصلت مودتهــن في كبدي ضــرم
ولطالما دعت المحبـــة والهوى ... لعناق خرعبة يزول به السقم
فيصدني عنهـــا مخافة خالقي ... وعفاف نفس والمرؤة والــكرم
فيقرع داعية الهوى وسماع نا ... هية التقى أرد المنية لاجـــرم
ما الحب للعشاق الا محنـــة ... سبق القضاء بها عليهم في القدم

واذا صرفنا النظر عن مقدمات الغزل التي كان يبدأ بها قصائد المديح جريا على عادة زمانه ، ففي شعره نفثات حرار تحس على رغم ما فيها من صنعة بديعيه انها من الشعر الحي :

ست الحسان لماذا ... سماك اهلك تقوى
ففيك طال اغترابي ... وكادت الدار تقوى
كم صغت فيك نسيبا ... ليست قوافيه تقوى
نفسي فداك صليني ... فالوصل بر وتقوى

وهو يقول في قصيدة أخرى رقيقة الجرس :

يا حبيب القلوب صلني ... في الدجى وقت الظــلام
وارتشــف يا نور عيني ... من يدي كأس المــدام
يا اعز الناس عنــدي ... وســروري والمــرام
لا تعــذبني فــاني ... فيــك حــرمت المنــام
فيك قــد خاصمت عذا ... لي ولم اسمع مــلام
حبــك اســتولى فؤادي ... بعــد ما فت العظــام
ليتني لــم اعرف العـــشق ولــم ادر الغـرام
في الهوى انفقت عمري ... والهــوى طبــع الكرام
يا امير البيض هل من ... زورة تشــفي الســقام

زان غصن البان لما ان حكى منك القوام
واستعار البدر من نو ر محياك التمام
طرفك الفتان يرميني بمسموم السهام
ان قتل العبد يارو حي بلا ذنب حرام
ما الذي ضرك لو سا عدت صبا مستهام
حجة في مذهب العشق اليكم والصيام
واذا صلى فانت الركن والبيت الحرام
انت والله من الدنيا له اقصى المرام
انت في الحسن امام وهو في الحب امام
انت مولاه ووالي امره وهو الغلام
في يديك الحكم فاصنع كيف تهوى والسلام

وما ارق قوله :

محجوبة عذراء لو اسفرت لافتتن الشيخ بها والفتى
ناديتها يا ربة الحسن كم في الحسن من حق فحتى متى
قالت انا البدر ولكنني مسلوبة النفع كبدر الشتا

لقد احس ـ أبو بكر العلوي ـ انه اضاع كثيرا من طاقاته الشعرية في مدائح لا نفع من ورائها فقال :

بهما وبمثلها فالهج وعرض وعنها فانظم الدر المثقب
وفي سير الحسان فغن واطرب فذكرك غيرهن هوى مركب
فكم من مدحة ذهبت ضياعا سبكت نضارها واليك تنسب

٥ ـ التيار الاجتماعي :

في الفترة التي عاشها (أبو بكر العلوي) برزت بحدة في الوسط العربي مشكلة سفور المرأة ومشكلة تعليمها ، حمل لواء الدعوة في مصر (قاسم أمين) نثرا وفي العراق ـ الزهاوي ـ شعرا • وكان لابد لشاعر كبير مثل ابي بكر من ان يحدد موقفه وقد كان •• قال رحمه الله :

خذ من كتاب الله در سا والاحاديث الصحاح
واجعل قديم تراثهم كالعهن تذروه الرياح
وانبذ من الحزبين من كانت جريمته السفاح
من كل مخلوع العذا ر وكل غاويه وقاح
لم يمح عن جان بغير التو ب سيء الاجتراح
والصلح خير والامو ر تدور بالقدر المتاح

ولابي بكر العلوي ارجوزة مشهورة في آداب النساء كانت قد طبعت

منفردة سنة ١٣٨٧ هجرية ، وهذه الارجوزة تفصل آراءه في مشاكل المرأة ، ان هذه الآراء قد تتهم بالرجعية في يومنا هذا ولكنها كانت موافقة لزمانه ولبيئته الاجتماعية :

قد جاء مشحونا كتاب الله جل ... وسنة الداعي الى خير الملل
بذم ذات الفحش والتبرج ... وامرأة تخرج للتفرج
ومن تكن بين الرجال ماشيه ... بالطيب فهي في الحديث زانيه
بحبسهن في البيوت وردا ... حديث خير المرسلين احمدا
وانها اقرب ما تكون ... لله في بيت لها يصون

وهو يختتم ارجوزته بنصائح دينية للنساء منها :

يا معشر النساء هل من سامعه ... نصائحا تتلى لكن جامعه
والله الله اماء الله في ... لزوم دوركن والتعفف
والخير كل الخير في الصلاة ... وفعلها اوايل الاوقات
وكن باليسير قانعات ... تظفرن يوم الحشر بالجنات
وارفضن للكبر المشوم والحسد ... وكل ما حرمه الفرد الصمد
واقبح القبائح الوخيمه ... الغيبة الشنعاء والنميمة
وطاعة الازواج فرض لازم ... به ينال الفوز والمغانم

ومن يعمق النظر في شعر ابي بكر العلوي ، يجده كثير الاتهام للمرأة سيء الظن بها للغاية .

استمع الى قوله :

اذا نشأت بين الاقارب فتنة ... بها اشتعلت نار الضغائن والحقد
وحار أولوا الالباب فيما استفزهم ... الى نقض ميثاق الاخوة والعهد
ففتش تجد اصل البلاء نساءهم ... بما اسطعن من بذر التنافر والبعد
جبلن على وضع القذا حيث يعظم ال ... أذى وعلى التفريق بين ذوي الود
كواذب يسلبن الفحول عقولهم ... بالسنة ممزوجة الهزل بالجد

واستمع الى قوله :

اربعة لا يتركون الشر حتى يقبروا ... العبد والمرأة والسحار والمتكبر

وقوله :

أحسن الى الانثى مدى عمرها ... فغرس احسانك لا يثمر
ان اظهرت بالقول حمدا فلا ... تحمد في السر ولا تشكر
وان تسيء يوما اليها وتستغفر فذاك الذنب لا يغفر
تنسى جميل الفعل لكنها ... لكل امر ساءها تذكر
يعود مثل الزفت في صدرها ... عبير احسانك والعنبر
جبلة فيهن موروثة ... تفصيل جزئياتها يعسر
لماظفر بذات الدين قالدين عن ... جماحهن الوازع الاكبر

ثم استمع الى قوله :

اذا اقسمت انثى وجادت بدمعـــة وابدت حنانا من فم يقطر العسل
فاياك تصديق الكذوب فربما تحاول نفث السم في ذلك العمل
فلا تأمن الانثى وان خلت عندها وفاء واخلاصا به يضرب المثـــل
ولا تستشرها في الامور فعقلها منوط بذاك العضو ان جار أو عدل
اتوجد انثى لا يكن فؤادهـــا عظائم من مكر وكيد ومن حيل
ومن ظن ان لا سم في ناب حية فذلك مصفوع القفا سفلة السفل
نعم يغلب الدين الطبيعة ان يكن متينا وخوف الله في القلب لم يزل

شغلت الموضوعات الفردية الخاصة حيزا غير ضئيل في ديوان ابي بكر ، فهو يؤرخ ولادة اولاده بقصائد من الشعر شأنه شأن شعراء عصره من ذلك قصيدته في نجله مصطفى (ص ٨٤) ، وأولها :

جئت يا مصطفى فلاح الضياء وبمأتاك سرت العليـــاء

ومن ذلك قصيدته مؤرخا ميلاد حفيده الحسـين بن مرتضى والتي اولهـا :

ولد الحسين فمرحبا بلقيه وبما نؤمل من عظيم رقيبـه

وهو يؤرخ ايضا ولادة آخرين (راجع الديوان ص ٢٧٩) . وهو يرثي أم اولاده حين بلغه وفاتها وهو بمصر :

أسى وافي بحـادثه البريد وحزن دائم وجـوى يزيد

وهو يعزي ناظم الدولة الموسوي مؤرخا وفاة ابنتيه في يوم واحد . وتحدد بعض قصائده في الموضوعات الخاصة علاقاته الادبية ، من ذلك قصيدته المهداة الى احمد فارس الشدياق (ص ١١٤) والتي فيها :

رب القريض وترجمان عويصـــه وهو المثير عجاجه العجاجـــا
جـاءت جوائبه تساقط لؤلؤا اضحى به الدر النفيس زجاجا
يا عصر ته جذلا باحمد فارس والى رباه فيمـم الحجاجـــا

وتشكل الالغاز وما نظمه فيها جزء مهما من شعره الاجتماعي من ذلك قوله ملغزا في (تريم) :

بها رديف البحر والرى مهما تم مـــن اطرافهـــا فاقـــده
كلامها اجعـــل فائها تلقهـــا ام نبي الرحمـــة الماجـــده
اذا نزعت الصدر كانت بـــه نعت ظبـــاء المحجر الشارده
وان قلعت العين منها تكـــن قبيلة مـــن مـــرة السائده

ولعل دعوته لطلب العلم التي اكثر من ترديدها في شعره هي من خير دعواته الاجتماعية :

بالعلم تعلو كل نفس حيث لم تنهض بها انسابها أو مالهـــا
فعليكم بالعلـــم ان بنـــوره للناس يبدو رشدها وضلالهـــا

لقد عاش شاعرنا في مجتمع اتسم بضعف القيم الروحية وتهالك الناس على المادة وحلول الدينار محل الصديق والقريب ولذلك رسم ابو بكر صورة صادقة لمجتمعه في قوله :

نبئوني من هـو المخذول ان   نابه من حادث ما لا يطيق
هو راجي الغوث والنجدة من   صاحب أو من قريب أو صديق
سيراهم بين مستخف وبا   سط عذر من بنيات الطريق
ليس الا الاصفر الناصر والكافل   الضامن انقاذ الغريق
ان في الدينار سـرا وبـه   طلسم تفسيره عون الرفيق
واذا لم يحوه كيس امرىء   فهو في يم من الهم عميق

حين يتحدث ابو بكر العلوي عن شؤون حياته اليومية ومشاكله الخاصة تحس انه يعبر بصدق عن خلجات نفسه الانسانية ، فهو يقول في أمر جرى بينه وبين بعض معارفه :

قصرت بيننا أيام عز   مباركة يروق بها الظلال
ونلنا باجتماع الرأي امرا   من الطلبات صعبا لا ينال
فغيرهم زمان السوء حتى   الى ما مال أهل العذل مالوا
تنكرت الطباع اليوم حتى   قلبناها وانكرها العيال
ومالي كان من ود قديم   تفانى فهو عندهم انحلال
لقد سمعوا من الواشين قولا   فظنوا الحق ما انتحلوا وقالوا
فصبرا ايها القلب المعنى   على ما ليس تحمله الجبال

وهو في قصيدة أخرى يتحدث عن صديق له غيره الزمن :

كان لي صاحب وكنت اظن الصدق   من ذلك الصديق يدوم
فاذا البرق خلب والاماني   خيب والنسيم ثم سموم

اما معالجة الموضوعات العامة فهي نادرة في شعره ولعل ابرزها قصيدته عن الحرب ، ووجهة نظره فيها دينية محضة فهي عقاب من الله للبشر بسبب سوء فعله ، (الديوان ص ١٠٩) :

شؤم السنين الاربع الخاليات   هاجت به ريح الشقا والشتات
لما بغى في الارض سكانها   وامتلأت جورا جميع الجهات
وجاهروا الجبار سبحانه   بموجبات النقمة الموبقات
وقارفوا ما حرم الله من   اكل الربا والفحش والمسكرات
حل بهم ما عجل الله من   عقاب آثامهم المخزيات
صالت على الصالح والطالح ال   آفات والمكتوب في اللوح آت

رحم الله ابا بكر العلوي، فرغم انّ معظم صوره برهانية عقلية ، فقد كان رأس المدرسة الشعرية في اليمن كلها في زمانه .

الغزو المغولي كما صوره ياقوت الحموي

بشار عواد معروف

يعتبر الغزو المغولي للعالم الاسلامي من الاحداث المهمة ذات الاثر البالغ في التاريخ الاسلامي بكافة نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فقد استطاع جنكيزخان احد زعماء القبائل المغولية ان يوحد هذه القبائل التي كانت تسكن المنطقة الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب وجبال كنجان على حدود منشوريا في الشرق . ونصب نفسه خاقانا عليها سنة ٦٠٣هـ . وبدأ هذا الرجل توسعاته فاستولى على شمال الصين ثم اتجه بعد ذلك نحو البلاد الاسلامية(١) .

وكان العالم الاسلامي أبان الغزو المغولي يعج بعدد كبير من دول الطوائف ، وكانت أقوى دولة اسلامية هي دولة خوارزم التي كانت ذات موارد عسكرية ومالية ضخمة الا انها كانت خاضعة لطبقة عسكرية من اتراك ما وراء النهر لم يكن همها الا جمع المال بجميع الطرق الممكنة فأثارت كراهية السكان(٢) . وكان سلطانها ، في الوقت الذي بدأ به المغول غزواتهم ، علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه (٥٩٦-٦١٧) . وقد تمكن جنكيزخان ان يجهز على هذه الدولة الاسلامية بمدة وجيزة لم تزد على اربع سنوات (٦١٦-٦٢٠) مبتدأ بما وراء النهر ، ثم خراسان .

وقد كتب عدد من المؤرخين المسلمين عن بداية الغزو المغولي للعالم الاسلامي ؛ ومن هؤلاء : ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الاثير « ت ٦٣٠ هـ » في كتابه الكامل ، ومحمد بن احمد النسوي « ت ٦٤٧ هـ » الذي كان كاتبا عند آخر سلاطين خوارزم جلال‌الدين منكبرتي ، فكتب سيرة له هي « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » . والجوزجاني ، مجدالدين ابو عمر عثمان بن سراج‌الدين محمد في كتابه ، الذي وضعه بالفارسية سنة ٦٥٨ هـ ، « طبقات ناصري » ثم علاء الدين عطا ملك جويني « ت ٦٨١ » في كتابه المشهور « جهان كشاسي » أي غازي العالم . ومنهم أيضا رشيد الدين فضل الله الهمداني صاحب الكتاب المشهور « جامع التواريخ » وغيرهم كسبط بن الجوزي ، وتاج‌الدين السبكي وابن العبري ... الخ(٣) .

وسأحاول في بحثي هذا ان اقدم الصورة التي رسمها ياقوت الحموي للغزو المغولي مقارنة مع أهم تلك المصادر مبينا قيمتها جهد الامكان .

ولد شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي سنة ٥٧٤(٤) ببلاد الروم واسر وهو صغير ، وابتاعه ببغداد تاجر يعرف بعسكر بن أبي نصر ابراهيم الحموي ، وجعله معيناً له في ضبط حساباته بعد ان رباه وعلمه . وفي سنة ٥٩٦ اعتقه مولاه على أثر نبوة فاشتغل بالنسخ بالاجرة . وبينما كان مسافراً الى كيش علم هناك ان مولاه قد فارق الحياة ، فعاد الى بغداد واعطى اولاد مولاه وزوجته ما ارضاهم به ، وبقيت بيده بعض الاموال صار يتاجر بها ويكسب عيشه عن طريق المتاجرة بالكتب(٥) .

سفره الى المشرق :

قضى ياقوت كثيراً من حياته متنقلا في البلدان سائحاً فيها طلباً للرزق والعلم ، ومع ان الذين ترجموا له من المؤرخين لا يقدمون معلومات مفصلة عن سفراته ، الا ان المعلومات العرضية الواردة في كتابة « معجم البلدان » مكنتنا من أن نكون فكرة لا بأس بها عن رحلاته هذه واستطعنا بعد ذلك ان نبين الطريق الذي سار فيه الى المشرق وعودته الى الموصل هاربا من المغـــول .

واول ذكر وجـدناه لياقوت في المشرق سنة ٦٠٧هـ . حيث كان في هراة(٦) كما ذكر انه كان في تبريز عام ٦١٠هـ(٧) . ويبدو انه رجع الى الموصل بعد ذلك ، اذ توجه منها الى دمشق وكان بها سنة ٦١٣(٨) . ومن هذه السنة تبدأ رحلة ياقوت الطويلة الى المشرق ؛ اذ حدث وهو بالشام ان قعد في بعض اسواقها وناظر بعض من يتعصب لعلي بن ابي طالب (رض) وجرى بينهما كلام ادى الى ذكره عليا (رض) بما لا يسوغ ، فثار عليه الناس فخرج من دمشق منهزما بعد ان بلغت القضية الى والي البلد ، ووصل الى حلب خائفا يترقب ، ولم يطمئن على نفسه فيها فخرج منها في جمادي الآخرة سنة ٦١٣ قاصدا الموصل متنقلا منها الى اربيل (اربل) ، وخاف ان يدخل بغداد ، لان المناظر له بدمشق كان بغداديا ، وخشي أن ينقل قوله فيقتل ، ولذلك سار الى خراسان(٩) . ويذكر ياقوت انه كان بنيسابور قاعدة خراسان في نفس السنة وهي سنة ٦١٣ هـ(١٠) ويبـدو انه بقي فيها مدة قصيرة(١١) غادرها بعد ذلك متوجهـا الى مرو حيث استوطنها قرابة الثلاث سنوات(١٢) . ومن المحتمل انه تركها قبيل شهر رمضان(١٣) سنة ٦١٦هـ(١٤) متوجها الى خوارزم . فمر بمدينة درغان في رمضان من نفس السنة « وهي اول حدود خوارزم من ناحية أعلى جيحون دون أمل وعلى طريق مرو ايضاً ... وبينها وبين جيحون نحو ميلين »(١٥) ومن هناك ركب سفينة في نهر جيحون متجها الى خوارزم فوصل مدينـة ارتخشميش(١٦) . ويبدو ذلك من قوله عن هذه المدينة : « قدمت اليها في شوال سنة ٦١٦ ، قبل ورود التتر الى خوارزم بأكثر من عام ... وكنت قد وصلتها من ناحية مرو بعد ان لقيت من ألم البرد ، وجمود نهر جيحون

على السفينة التي كنت بها ، وقد أيقنت انا ومن في صحبتي بالعطب الى ان فرج الله علينا بالصعود الى البر ..»(١٧). ثم انه مر بعد ذلك بمدينة هزار أسب التي تبعد عن خوارزم ثلاثة أيام(١٨). ووصل خوارزم وبقي بها مدة(١٩). وكان موجودا بها حتى اواخر سنة ٦١٧ على ما يبدو(٢٠)..

وحينما أخذت الاشاعات تنتشر عن قصد المغول لمدينة خوارزم هرب ياقوت مع الهاربين راجعا الى خراسان فمر ببليدة سبرني وهي آخر حدود خوارزم من ناحية اقليم شهرستان(٢١) ثم وصل الى بليدة شهرستان(٢٢) الواقعة على بعد ثلاثة اميال من مدينة نسا فوجد معظم أهلها قد جلوا عنها خوفا من المغول(٢٣) ولابد انه مر بنسا وهو في طريقه الى نيسابور . والظاهر ان ياقوت لم يمكث في نيسابور واستمر في هربه متجها نحو العراق فمر ببلدة سمنقان التابعة لنيسابور والواقعة بالقرب من جاجرم(٢٤) ثم وصل الى بيروزكوه الواقعة قرب دنباوند(٢٥) فالري(٢٦) فمدينة خلخال الواقعة في طرف اذربيجان متاخمة لجيلان(٢٧) فاردبيل(٢٨) ثم تبريز(٢٩) مجتازا ببحيرة ارمية(٣٠) فمدينة اشنة وهي آخر اذربيجان من جهة اربل(٣١) ثم وصل الى اربل في رجب من سنة ٦١٧ هـ كما ذكر ابو البركات بن المستوفي في تاريخه الذي صنفه لاربل(٣٢) وانتقل بعدها الى الموصل(٣٣).

وقد لقي ياقوت في رحلته المتعبة هذه كثيرا من المشاق والمخاطر ، وصور ذلك أحسن تصوير في رسالته التي بعث بها الى الوزير جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي من الموصل فقال : « .. فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكصا ، ومن الاوبة الى حيث تستقر فيه النفس بالامن آيسا ، بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب ، فتوصل وما كاد ، حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار ، وابتداء واصطبار ، وتمحيص الاوزار ، واشراف غير مرة على البوار والتبار ، لانه مر بين سيوف مسلولة ، وعساكر مغلولة ، ونظام عقود محلولة ، ودماء مسكوبة مطلولة .»(٣٤) ولم يبق بعد هذا في الموصل الا مدة يسيرة سار بعدها طالبا الوزير القفطي في حلب(٣٥) واستمر مقيما هناك . وفي سنة ٦٢٤هـ . توجه الى فلسطين(٣٦) ومصر(٣٧) ثم عاد الى حلب مرة أخرى حيث وافته المنية في العشرين من شهر رمضان سنة ٦٢٦هـ(٣٨) وكان قد وقف كتبه على مسجد الزيدي(٣٩) الذي بدرب دينار(٤٠) ببغداد ، وسلمها الى الشيخ عزالدين ابي الحسن علي بن الاثير المؤرخ المشهور صاحب تاريخ الكامل فحملها الى هناك(٤١) .

القيمة التاريخية لاخبار ياقوت عن المغول :

ان المعلومات التي يقدمها ياقوت عن غزو المغول للعالم الاسلامي مبعثرة في كتابه المعروف بمعجم البلدان(٤٢) الذي استطعت أن أجد فيه قرابة الثلاثين نصا بين طويل وقصير . يضاف الى ذلك رسالة بعث بها بعد هروبه

من وجه المغول واستقراره في الموصل سنة ٦١٧ هـ الى الوزير القاضي الاكرم جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي الشيباني المتوفي سنة ٦٤٦(٤٣) وزير السلطان الظاهر بن صلاح الدين الايوبي صاحب حلب . والرسالة موجودة في كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان(٤٤) الذي يقول انه نقلها من كتاب القفطي المسمى « انباه الرواة على انباه النحاة »(٤٥) لكني لم أجد الرسالة في كتاب القفطي الانف الذكر كما لم أجد ترجمة لياقوت في هذا الكتاب . ويحتمل ان في كتاب القفطي هذا نقصاً . ومما يلفت النظر ان هذا الكتاب لم يحتو على أي ترجمة تبدأ بحرف الياء . كما يحتمل أيضا ان القفطي قد ذكرها بأحد كتبه الاخرى(*) خاصة وان هذا الكتاب مختص بالنحويين فقط ولم يكن ياقوت من المشاهير في هذا العلم .

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي جاء بها ياقوت الحموي عن الغزو المغولي للعالم الاسلامي الا انها تتميز بأهميتها البالغة ؛ فقد عاصر الرجل الاحداث وشهد بعضها وكان قريبا من البعض الآخر . وقد شهدنا كيف كان يفر من المغول بعد فتحهم لكل مدينة . يضاف الى ذلك اسفاره الطويلة الى بلاد المشرق الاسلامي التي مكنته من الاطلاع على هذه المناطق والاتصال بسكانها حتى أصبح عارفا بها مطلعا عليها وعلى ما كان يسود بين الناس من الاعتقادات وما يظهر من اشاعات .

اسباب الغزو عند ياقوت :

اعتبر ياقوت كغيره من الكتاب المسلمين ان المغول « صنف من الترك »(٤٦) ، ولم يبحث كثيرا في سبب هذا الغزو وعوامله . انما اعتبره كغيره ممن عاش في ذلك العصر غضباً من الله ، فقال عن ورود المغول الى اسفيجاب وتخريبهم لها : « وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين ، وصلاح مبين ، ونسك وعبادة . والاسلام فيهم غض المجنى حلو المعنى يحفظون حدوده ، ويلتزمون شروطه . لم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ، ولكن يفعل الله بعباده ما يشاء ، ويحكم بما يريد »(٤٧) فبين لنا بذلك ما ساد هذا العصر من الايمان بالقضاء والقدر وان الامور خيرها وشرها من الله تعالى الامر الذي ربما ادى على ما يبدو الى ضعف في نفوس كثير من الناس ، ومن ثم عدم قدرتهم الدفاع عن بلادهم دفاعا فيه الحماس والتضحية .

عوامل نجاح الغزو عند ياقوت :

وتبين لنا بعض النصوص التي اوردها ياقوت بعض العوامل التي ساعدت الجيوش المغولية على اجتياح المشرق الاسلامي بتلك السرعة المدهشة ؛ فأوضح الدور الذي قام به علاءالدين محمد بن تكش خوارزم

شاه وسياسته غير الحكيمة ، ومنها تخريب المدن وقتل الناس. قال ياقوت عن الشاش : « وقد خربت جميعها في زماننا . خربها خوارزم شاه محمد ابن تكش لعجزه عن ضبطها. وقتل ملوكها ، وجلا عنها أهلها ، وبقيت تلك الديار والاشجار والانهار والازهار خاوية على عروشها ، وانثلم من الاسلام ثلمة لا تنجبر ابدا »(٤٨) . ولقد فعل محمد بن تكش كل هذه الافعال بتلك المدينة على الرغم من كونها احدى الثغور التي يجب أن تبقى قوية منيعة . كما أشار الى ذلك أيضا عند حديثه عن اسفيجاب فقال : « عجز عن حفظ تلك البلاد لسعة مملكتها فخرب بيده أكثر تلك الثغور وانهبها عساكره ، فجلا أهلها عنها وفارقوها باجياد ملتفتة واعناق اليها مائلة منعطفة ؛ فبقيت تلك الجنان خاوية على عروشها تبكي العيون وتشجي القلوب ، مهدمة القصور متعطلة المنازل والدور ... »(٤٩) .

وأيد ياقوت ابن الاثير فيما ذهب اليه من القول ان قضاء علاء الدين محمد بن تكش على الخطا ، الذين كانوا قد أسسوا دولتهم في التركستان منذ القرن السادس الهجري ، قد فتح الابواب عليه وسهل الغزو المغولي لبلاده ، فقال عن علاء الدين محمد بن تكش : « فانه لما ملك ما وراء النهر وأباد ملك الخانية ، وكانوا جماعة قد حفظ كل واحد منهم طرفه ، فلما لم يبق منهم أحدا ، عجز عن حفظ تلك البلاد لسعة مملكتها . »(٥٠) وقال عند كلامه على منطقة ما وراء النهر بعد أن وصفها بالخير وكثرة الخيرات : « ولم تزل ما وراء النهر على هذه الصفة وأكثر الى أن ملكها خوارزم شاه محمد بن تكش بن الب ارسلان بن اتسز في حدود سنة ٦٠٠ فطرد عنها الخطا وقتل ملوك ما وراء النهر المعروفين بالخانية ، وكان في كل قطر ملك يحفظ جانبه ، فلما استولى على جميع النواحي ولم يبق لها ملك غيره عجز عنها وعن ضبطها فسلط عليها عساكره فنهبوها وأجلوا الناس عنها(٥١) .

وأشار ياقوت الى انتشار النزاعات المذهبية في المشرق وما أدى ذلك من تخريب لبعض المدن(٥٢) كما انه يبين لنا ما وصلت اليه الاعتقادات الدينية وكيف صار معنى الدين ابان تلك الفترة . واشار الى ذلك الرعب الذي أصاب الناس وخوفهم من المغول حتى أخذوا يفرون أمامهم كالاغنام تاركين مدنهم قبل ورود المغول اليها وأمثلته على هذا كثيرة(٥٣) .

وعاب ياقوت على علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه هربه وتركه لبلاده طعمة بأفواه المغول يفعلون فيها ما يشاؤون فقال في رسالته للوزير القفطي : « ومن عجب العجاب ان سلطانهم المالك هان عليه ترك تلك الممالك . وقال لنفسه : اله وآلك ، والا فانت في الهوالك ، واجفل اجفال الرال ، وطفق اذا رأى غير شيء ظنه رجلا بل رجال !! »(٥٤) .

حوادث الغزو

أما عن حوادث الغزو فلا يقدم لنا ياقوت معلومات مفيدة عن غزو

ما وراء النهر ، لكنه جاء بمعلومات لا بأس بهـــا عن فتح المغول لنيسابور قاعدة خراسان آنذاك لا أرى حاجة لذكرها ، انما أود الاشارة الى أمر ورد فيها هو ترديد ياقوت لاشاعة كانت سائدة تذهب الى ان : « علويا كان متقدما على أحد أبوابها راسل الكفار يستلزم منهم على تسليم البلد ويشرط عليهم انهم اذا فتحوه جعلوه متقدما فيه ، فأجابوه الى ذلك ففتح لهم الباب وأدخلهم فأول من قتلوا العلوي ومن معه »(٥٥) ٠ والطريف في الامر ان كل من ابن الاثير(*) والنسوي(**) وجويني(***) لم يذكروا هذه الحادثة حينما تكلموا على فتح المغول نيسابور واستيلائهم عليها ٠ ويحوم الشك حول هذا النص حتى ليكاد أن يجعل الباحث يؤمن انه موضوع مختلق ذلك لان ياقوت كان من المتعصبين جدا على العلويين كما رأينا(٥٦) ، كما انه يصدر قوله هذا بعبارة : « فزعم قوم » يضاف الى ذلك ان المؤرخين المعاصرين لم يذكروها أو يشيروا اليها على الاقل ٠ ومهما يكن من أمر فان الذي يبدو لي ان الاشاعة كانت موجودة وهي محتملة الحدوث في تلك الظروف التي كان الناس فيها يبحثون عن سبب مباشر يبررون فيه سقوط المدينة ، ذلك الامر الذي ظهر بشكل عنيف على مر العصور متخذا من الوزير مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله سببا في سقوط بغـــداد وذهاب الخلافة العباسية منها ، تلك التهمة التي بقيت عالقة به لمدة طويلة(٥٧) حتى ابان البحث العلمي المستند على الادلة خطل تلك التهـــم وتبرئة ابن العلقمي منها(٥٨) ٠

وأشار ياقوت الى بعض أساليب المغول في الفتح والتخريب ، ومنهـا استعمال الفلاحين في كشف بعض المناطق وتهديمها للحصول على الدفائن ، فقال عند كلامه عن نيسابور : « وجمعوا عليها جموع الرستاق حتى حفروها لاستخراج الدفائن فبلغني انه لم يبق بها حائط قائم ٠ »(٥٩) ٠

نتائج الغزو عند ياقوت

أما نتائج الغزو المغولي في كتابات ياقوت فهي مهمة ولا سيما التخريب الذي أصاب بلاد المشرق الاسلامي نظرا لمعاصرته وقربه من الاحداث ٠

لقد اعتبر ياقوت كابن الاثير(٦٠) وغيره من الكتاب المسلمين آنذاك ان الغزو المغولي مصيبة لم يسمع بمثلها من قبل و « التي لم يجر منذ قامت السموات والارض مثلها »(٦١) وهي « مصيبة ما دهي الاسلام قط مثلها »(٦٢) ثم هي « حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت في العضد ، وتوهي الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الوليد ، وتنخب لب الجليد ، وتسود القلب وتذهب اللب ٠ »(٦٣) ٠ وأشار الى ذلك التخريب الهائل الذي أصاب المشرق الاسلامي فقال عن الشاذياخ : « ثم خربها التتر ، لعنهم الله ، في سنة ٦١٧ فلم يتركوا بها جدارا قائما ، فهي الآن فيما بلغني تلول تبكي العيون الجامدة وتذكي في القلوب النيران الخامدة »(٦٤) ومثل هذا قال عن

هراة(٦٥) وسراو(٦٦) والجرجانية(٦٧) قصبة خوارزم واسفيجاب(٦٨) وغيرها من المدن والبلاد(٦٩) .

وبين ياقوت أمرا مهما هو ان المغول لم يخربوا المدن التي لم تقاومهم ولم يتعرضوا لاهلها فقال عن تبريز : « ومر بها التتر لما خربوا البلاد في سنة ٦١٨ فصالحهم أهلها ببذول بذلوها لهم فنجت من أيديهم وعصمها الله منهم »(٧٠) .

ومما يلفت النظر أيضا ويستحق الاهتمام هو اشارة ياقوت الى ان بعض المدن قد عادت الى ازدهارها بعدما أصابها الكثير من القتل والتخريب، ومثال ذلك ما قاله عن اردبيل بعد أن ذكر الاعمال الشنيعة التي قام بها المغول تجاه هذه المدينة : « والآن عادت الى حالتها الاولى وأحسن منها ، وهي في يد التتر »(٧١) وقوله عن مدينة بيلقان بعد ذكره لقتل التتر أهلها ونهبها وحرقها : « وهي الآن متماسكة »(٧٢) .

ومن هنا أصبح من الصعب علينا أن ننكر تخريب المغول للمدن وحرقهم الناس وقتلهم . وعلى الرغم من وجود بعض المبالغات عند المؤرخين المسلمين في سعة هذا التخريب وشموله لكن يجب أن يفهم ان هذه المبالغات لم تأت عبثا ، انما هي صدى لهول ما أصاب المسلمين حتى انهم لم يشهدوا مثل هذا من قبل ولم يسمعوا عن شيء يشابهه . كما اننا بنفس الوقت لانستطيع نكران اهتمام المغول ، بعد استقرارهم ، باعادة المدن ولو لبعض الشيء ؛ ولا ريب في ان ياقوت حينما قال عن بعض المدن انها عادت لازدهارها فهو يصور ما كان موجودا في زمانه . وبعد كل هذا فان النصوص التي أوردها ياقوت تؤدي بنا الى الشك بالنظرية القائلة ان المغول كانوا يخربون المدن لخوفهم منها ولكونهم رعاة متعلمين على الحياة في البراري(٧٣) ، والا لما سمحوا بعودة ازدهار المدن بعد استيلائهم عليها . أما تخريب الاسوار وعدم السماح ببنائها فانه أمر لا نستطيع البت فيه ويبقى الاحتمال فيه سائدا لمدة ليست بالقصيرة حتى استقرارهم التسسام وتعودهم الترف وانغماسهم في متاهات الحضارة .

« ملحق »

رسالة أبي عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي ، الحموي ، البغدادي الى القاضي الاكرم جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبدالواحد الشيباني القفطي وزير صاحب حلب . كتبها عند وصوله الموصل سنة ٦١٧هـ هاربا من التتر ، يصف فيها حاله وما جرى له معهم(٧٤) .

والرسالة تتكون من قسمين على ما يبدو ، القسم الاول رسالة صغيرة يقدم بها ياقوت الرسالة الاصلية ، والقسم الثاني هي الرسالة الاصلية وهي بعد البسملة والحمدلة : « كان المملوك ياقوت بن عبدالله الحموي قد كتب

هذه الرسالة من الموصل في سنة سبع عشرة وستمائة ، حين وصوله من خوارزم طريد التتر ، أبادهم الله تعالى ، الى حضرة مالك رقه ، الوزير جمال الدين القاضي الاكرم ، أبي الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبدالواحد الشيباني ، ثم التيمي تيم شيبان ، بن ثعلبة بن عكابة ، أسبغ الله عليه ظله ، وأعلى في درجة السيادة محله ، وهو يومئذ وزير صاحب حلب والعواصم ، شرحا لأحوال خراسان وأحواله ، وايماء[٧٥] الى بدء أمره بعدما فارقه ومآله ، وأحجم عن عرضها على رأيه الشريف ، إعظاما وتهيبا ، وفرارا من قصورها عن طوله وتجنبا ، الى أن وقف عليها جماعة من منتحلي صناعة النظم والنثر ، فوجدهم مسارعين الى كتبها ، متهافتين على نقلها • وما يشك أن محاسن مالك الرق حلتها ، وفي[٧٦] أعلى درج الاحسان أحلتها ، فشجعه ذلك على عرضها على مولاه ، وللآراء علوها في تصفحها ، والصفح عن زللها ، فليس كل من لمس درهما صيرفيا ، ولا كل من اقتنى درا جوهريا • وها هي:

بسم الله الرحمن الرحيم ، أدام الله على العلم وأهليه ، والاسلام وبنيه ، وما سوغهم وحباهم ، ومنحهم وأعطاهم ، من سبوغ ظل المولى الوزير ، أعز الله أنصاره ، وضاعف مجده واقتداره ، ونصر الويته واعلامه ، وأجرى باجراء الأرزاق في الآفاق أقلامه ، وأطال بقاه ، ورفع الى عليين علاه[٧٧] ، في نعمة لا يبلى جديدها ، ولا يحصى عددها ولا عديدها ، ولا ينتهي الى غاية مديدها ، ولا يفل حسدها ولا حديدها ، ولا يقل وادها ولا ديدها • وأدام دولته للدنيا والدين ، يلم شعثه ، ويهزم كرثه[٧٨] ، ويرفع مناره ، ويحسن بحسن أثره آثاره ، ويفتق نوره وأزهاره ، وينير نواره ، ويضاعف أنواره • وأسبغ ظلـه للعلوم وأهليها ، وللآداب ومنتحليها ، والفضائل وحامليها • يشيد بمشيد فضله بنيانها ، ويرصع بناصع مجده تيجانها ، ويروض بيانع علائه زمانها ، ويعظم بعلو همته الشريفة بين البرية شانها ، ويمكن في أعلى درج الاستحقاق امكانها ومكانها ، ويرفع بنفاذ الامر قدره للدول الاسلامية ، والقواعد الدينية ، يسوس قواعدها ، ويعين مساعدها ، ويهين معاندها ، ويعضد بحسن الايالة معاضدها ، وينهج بجميل المقاصد مقاصدها ، حتى يعود حسن تدبيره غرة في جبهة الزمان ، وسنة يقتدى بها من طبع على العدل والاحسان ، يكون له أجرها ما دام الملوان وكر الجديدان[٧٩] ، وما أشرقت من الشرق شمس ، وارتاحت الى مناجاة حضرته الباهرة[٨٠] نفس •

وبعد ، فالمملوك ينهي الى المقر العالي المولوي ، والمحل الاكرم العلي ، أدام الله سعادته مشرقة النور ، مبلغة السول ، واضحة الغرر ، بادية الحجول[٨١] ، ما هو مكتف بالاريحية المولوية عن تبيانه ، مستغن بما منحتها من صفاء الآراء عن امضاء قلمه لايضاحه وبيانه ، قد أحسبه ما وصف به عليه الصلاة والسلام المؤمنين « وان من امتي لمكلمين » ، وهو شرح ما يعتقده من الولاء ، ويفتخر به من التعبد للحضرة الشريفة والاعتزاء ، وقد كفته تلك

الألمعية ، عن الاظهـــار المشتبه بالملق مما تجنه(٨٢) الطوية ، لأن دلائل غلو المملوك في دين ولائه في الآفاق واضحة ، وطبيعة سكة اخلاص الوداد باسمه الكريم على صفحات الدهر لائحة ، وايمانه بشرائع الفضل الذي طبق الآفاق، حتى أصبح بناء المكارم متين ، وتلاوته لاحاديث المجد القريبـــة الاسانيد بالمشاهدة لديه مبين ، ودعا أهل الآفاق الى المغالاة في الايمان بامامة فضله الذي تلقاه باليمين ، وتصديقه بملة سودده الذي تفرد بالتوخي لنظم شارده وضم مبدده بعرق الجبين(٨٣) ، حتى قد أصبح للفضل كعبة لم يعترض حجها على من استطاع اليه السبيل ، ويقتصر بقصدها على ذوي القـدرة دون المعتر (٨٤) وابن السبيل ، فان لكل منهم حظا يستمده ونصيبا يستعد به ويعتده ، فللعظماء الشرف الضخم من معينه ، وللعلماء اقتناء الفضائل من قطينه ، وللفقراء توقع الامان من نوائب الدهر وغض جفونه ، وفرضوا من مناسكه للبهجة الشريفة السلام والتبجيل ٠ وللكف البسيطة الاستلام والتقبيل ٠ وقد شهد الله تعالى للمملوك أنه في سفره وحضره ، وعلنه وسره وخبره ومخبره ، شعاره تقطير مجـــالس الفضلاء ومحافل العلماء بفوائد حضرته ، والفوائد المستفادة من فضيلته ، افتخارا بذلك بين الانام ، وتطريزاً لما ياتي به في أثناء الكلام [من الطويل] :

اذا أنا شرفت الورى بقصائدي على طمع شـــرفت شعري بذكره

(يمنون عليك أن اسلموا ، قل لا تمنوا علي اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين)(٨٥) ٠ لا حرمنا الله ، معاشر اوليائه ، مواد فضائله المتتالية ، ولا اخلانا ، كافة عبيده ، من اياديـــه المتعالية ، اللهم رب الأرض المدحيـــة(٨٦) والسموات العليـــة ، والرياح المسخرة ، والبحار المسجرة (٨٧) ، اسمع ندائي ، واستجب دعائي ، وبلغني في معاليه ، ما نؤمله ونرتجيه ، بمحمد وصحبه وذويه ٠

وقد كان المملوك لما فارق الجناب الشريف ، وانفصل عن مقر العز اللباب والفضل المنيف ، أراد استعتاب الدهر الكالح ، واستدرار خلف(٨٨) الزمن الغشوم الجامح ، اغترارا بان في الحركة بركة ، والاغتراب داعيـة الاكتساب ، والمقام على الاقتار ذل وانتقال ، وجليس البيت ، في المحافل سكيت [من الطويل] :

وقفت وقوف الشك ثم استمر لي يقيني بان الموت خير من الفقر
فودعت من اهلي ، وبالقلب ما به وسرت عن الاوطان في طلب اليسر
وباكية للبين قلت لهـــا : اصبري فللموت خير من حياة على عسر
سأكسب مـــالا أو أموت ببلـــدة يقل بها فيض الدموع على قبري

فامتطى غـــارب الامل الى الغربة ، وركب التطواف مـــع كل صحبة ، قاطع الاغوار والانجاد ، حتى بلغ السد(٨٩) أو كاد ، فلم يصحب له دهره الخؤون ، ولا رق له زمانه المفتون [من البسيط] :

ان الليـــالي والايـــام لو سئلت   عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

فكانه في جفن الدهر قذى ، وفي حلقه شجا ، يدافعه بنيل[٩٠] الامنية حتى أسلمه الى ربقة المنية [من البسيط] :

لا يستقر بـأرض او يسـير الى   أخرى لشخص قريب عزمه نائي
يوما بحزوى[٩١] ، ويوما بالعقيق[٩٢] ، ويو   مـا بالعذيب[٩٣] ، ويومـا بالخليصاء[٩٤]
وتـارة ينتحي نجـدا ، وآونـة   شعب الحزون[٩٥] ، وحينا قصر تيمـاء[٩٦]

وهيهات مع حرفة الادب ، بلوغ وطر أو ادراك أرب ، ومع عبوس الحظ ، ابتسام الدهر الفظ ، ولم ازل مع الزمان في تفنيد وعتاب ، حتى رضيت من الغنيمة بالاياب[٩٧] . والمملوك مع ذلك يدافع الايام ويزجيها ، ويعـلل المعيشة ويرجيها ، متقنعا بالقناعة والعفاف ، مشتملا بالنزاهة والكفاف ، غير راض بذلك الشمل ، ولكن مكره اخاك لا بطل ، متسليا باخوان قد ارتضى خلائقهم ، وأمن بوائقهم[٩٨] عاشرهم بالالطاف ، ورضى منهم بالكفاف ، لا خيرهم يرتجى ، ولا شرهم يتقى [من البسيط] :

ان كان لابد من اهل ومن وطن   فحيـث آمن من القى ويأمنني

قد الزم نفسه أن تستعمل طرفا طماحا ، وان يركب طرفا[٩٩] جماحا ، وان يلحق[١٠٠] بيض طمع جناحا ، وان يستقدح زندا واريا وشحاحا[١٠١] [من الوافر] :

واديني الزمـان فلا ابـالي   هجرت فـلا أزار ولا ازور
ولست بقائل ما عشت يوما :   أسار الجنـد أم ركب الامير

وكان المقام بمرو الشاهجان ، المفسر عندهم بنفس السلطان ، فوجد بها من كتب العلوم والاداب ، وصحائف اولي الافهام والالباب ، ما شغله عن الاهل والوطن ، وأذهله عن كل خل صفي وسكن ، فظفر منها بضالته المنشودة ، وبغية نفسه المفقودة ، فاقبل عليها اقبـال الفهم الحريص ، وقابلها بمقام لايزمع عنها محيص ، فجعل يرتع في حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها ، ويسرح طرفه في طرفها ، ويتلذذ بمبسوطها ونتفها ، واعتقد المقام بذاك الجناب ، الى ان يجاور التراب [من الوافر] :

اذا مـا الدهر بيتني بجيش   طليعتـه اغتمـام واغتراب
شننت عليه من جهتي كمينـا   أمراء الذبالـة والكتـاب
وبت أنص من شيم الليـالي   عجائب من حقائقها ارتياب
بها اجلـو همومي مستريحـا   كما جلى همومهم الشراب

الى ان حدث بخراسان ما حدث من الخراب ، والويل المبير(١٠٢) والتباب(١٠٣) ، وكانت لعمر الله بلادا موفقة الارجاء ، رائقة الانحاء ، ذات رياض اريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، وقد تغنت اطيارها ، فتمايلت طربا اشجارها ، وبكت انهارها ، فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصح مزاج اقليمها * ، ولعهدي بتلك الرياض الانيقة ، والاشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقت اليها ارواح الجنائب(١٠٤) زقاق خمر السحائب ، فسقت مروجها سدام الطل ، فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل ، فلما رويت من تلك الصهباء اشجاره ، رنحها من النسيم خماره ، فتدانت ولا تداني المحبين ، وتعانقت ولا عناق العاشقين ، يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق الهوى العليل ، فشابه شفتي غادتين دنتا للتقبيل ، وربما اشتبه على النحرير بائتلاف الخمر ، وقد انتابه رشاش القطر ، ويريه بهارا يبهر ناضره ، فيرتاح اليه ناظره ، كانه صنوج من العسجد ، أو دنانير من الابريز تنقد ، ويتخلل ذلك اقحوان تخاله ثغر المعشوق اذا عض خد العاشق ، فلله درها من نزهة وامق(١٠٥) ولون رائق • وجملة أمرها انها كانت أنموذج الجنة بلا مين(١٠٦) ، فيها ما تشتهي الانفس وتلذ العين ، قد اشتملت عليها المكارم ، وارجحنت(١٠٧) في أرجائها الخيرات الفائضة للعالم ، فكم فيها من خير راقت خيره ، ومن امام توجب حياة الاسلام سيره ، آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبة ، وفضائلهم في محاسن الدنيا والدين محسوبة(١٠٨) ، والى كل قطر مجلوبة ، فما من متين علم وقويم رأي الا ومن مشرقهم مطلعه ، وما من معرفة فضل الا عندهم مغربه واليهم منزعه ، وما نشأ من كرم اخلاق بلا اختلاق الا وجدته فيهم ، ولا اعراق في طيب أعراق الا اجتنيته من معانيهم • اطفالهم رجال ، وشبابهم أبطال ، ومشايخهم أبدال(١٠٩) ، شواهد مناقبهم باهرة ، ودلائل مجدهم ظاهرة • ومن العجب العجاب أن سلطانهم المالك ، هان عليه ترك الممالك ، وقال لنفسه : اله وآلك(١١٠) ، والا فأنت في الهوالك ، واجفل اجفال الرال(١١١) وطفق اذا رأى غير شيء ظنه رجلا بل رجال (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين)(١١٢) لكنه عز وجل لم يورثها قوما آخرين ، وتنزيها لاولئك الابرار عن مقام المجرمين ، بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين ، وبلاهم فألفاهم صابرين ، فالحقهم بالشهداء الابرار ، ورفعهم الى درجات المصطفين الاخيار (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لاتعلمون) (١١٣) فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والالحاد ، وتحكم في تلك الاستار أولو الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور ، كالمحو من السطور ، وامست تلك الاوطان ، مأوى للأصداء والغربان ، يتجاوب في نواحيها البوم ، ويتناوح في أراضيها الريح السموم ، يستوحش فيها الانيس ، ويرثى لمصابها ابليس [من الطويل] :

كأن لم يكن فيها أوانس كالدمى   وأقيال ملك في بسالتهم أسد

فمن حـــاتم في جوده وابن مامـــة   ومن احنف ان عـد حلم ومن سعد
تداعي بهم صرف الزمان فاصبحوا   لنا عبرة تدمي الحشـــا ولمن بعـد

فانا لله وانا اليه راجعون من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت في العضد ، وتوهي الجلد ، وتضاعف الكمـــد ، وتشيب الوليد ، وتنخب لب الجليد ، وتسود القلب ، وتذهل اللب . فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكصا ، ومن الاوبة الى حيث تستقر فيه النفس بالأمل آيسا ، بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب ، فتوصل ، وما كاد ، حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار ، وابتلاء واصطبار ، وتمحيص(١١٤) الاوزار ، واشراف غير مرة على البوار والتبار (١١٥) ، لانه مر بين سيوف مسلولة ، وعساكر مفلولة ، ونظام عقود محلولة ، ودماء مسكوبة مطلولة ، وكان شعاره كلما علا قتبا(١١٦) ، أو قطع سبسبا (١١٧) (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) (١١٨) فالحمد لله الذي أقدرنا على الحمد ، وأولانا نعمة تفوت الحصر والعد ، وجملة الامر أنه لولا فسحة في الاجل ، لعز ان يقال سلم البائس او وصل ، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون ، والحق بالف الف الف الف هالك بايدي الكفار او يزيدون ، وخلف خلفه جل ذخيرته ، ومستمد معيشته [من الطويل] :

تنكر لي دهري ولـم يـدر انني   اعـز واحـداث الزمان تهـــون
وبات يريني الخطب كيف اعتداؤه   وبت اريـــه الصبر كيف يكون

وبعد ، فليس للمملوك ما يسلي به خاطره ، ويعزي به قلبه وناظره ، الا التعلل بازاحة العلل ، اذا هو بالحضرة الشريفة مثل [من البسيط] :

فاسلم ودم وتمل العيش في دعـة   ففي بقائك ما يسلي عن السلف
فانت للمجد روح والورى جســد   وانت در فـلا تأس على الصدف

والمملوك الآن بالموصل مقيم ، يعـــالج لما حزبه من هذا الامر المقعد المقيم ، يزجي وقته ويمارس حرفته وبخته ، تكاد تقول له باللسان القويم (تا الله انك لفي ضلالك القديم)(١١٩) يذيب نفسه في تحصيل اغراض ، هي لعمر الله اعراض ، من صحف يكتبها ، واوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل ، واستمتاعه بها قليل ، ثم الرحيل ، وقد عزم بعد قضاء نهمته ، وبلوغ بعض وطر قرونته ، ان يستمد التوفيق ، ويركب سنن الطريق ، عساه ان يبلغ امنيته ، من المثول بالحضرة ، واتحاف بصره من خلالها ولو بنظرة ، ويلقي عصا الترحال بفنائها الفسيح ، ويقيم تحت ظل كنفها الى ان يصادفه الاجل المريح ، وينظم نفسه في سلك مماليكها لحضيرتها ، كمـــا ينتمي اليها في غيبتها ، ان مدت السعادة بضبعه(١٢٠) ، وسمح له الدهر بعد الخفض برفعه ، فقد ضعفت قواه عن درك الآمال ، وعجز عن معاركة الزمان والنزال ، اذ ضمت البسيطة اخوانه ، وحجب الجديدان اقرانه ، ونزل المشيب بعذاره ، وضعفت قوى أوطاره ، وانقض باز الشيب على

غراب شبابه فقنصه ، وتبدلت محاسنه عند احبابه مساوى وخصصه ، واكب نهار الحلم على ليل الجهل فوقصه ، واستعاض من حلــة الشباب القشيب ، خلق الـكبر والمشيب [من الرمل] :

وشـباب بـــان مني وانقضـى   قبــل ان أقضي منــه اربي
مــا ارجي بعـــده الا الفنـــا   ضيق الشــيب على مطلبــي

ولقد ندب المملوك ايام الشباب بهذه الابيات ، وما أقل غناء الباكي على من عد في الرفات [من الطويل] :

تنكر لي مذ شبت دهري فأصبحت   معارفه عنــدي من النكرات
اذا ذكرتها النفس حنت صبابــة   وجادت شــؤن العين بالعبرات
الى أن اتى دهر يحسن ما مضـى   ويوسعني من ذكــره حسـرات
فكيف ولمــا يبق من كأس مشربي   سوى جرع في قعــره كـدرات
وكــل اناء صـفوه في ابتـدائه   ويرسب في عقبـاه كل قــذاة

والمملوك يتيقن أنه لا يتفق لهذا القدر الذي مضى ، الا النظر اليه بعين الرضا ، ولرأى المولى الوزير الصاحب ، كهف الورى في المشارق والمغارب ، فيما يلاحظه منه بعادة مجده ، مزيد مناقب ومراتب ، والسلام .

---

(١) W. Barthold: Turkestan down to the Mongol invasion, Second ed.. London, 1928 p. 381 ff.

(٢) انظر بحث الدكتور جعفر حسين خصباك : الاحتلال المغولي للعراق ص ١١٠ [مجلة كلية الاداب والعلوم العدد الثالث ، حزيران ١٩٥٨] .

(٣) انظر عن هؤلاء المؤرخين وقيمة كتبهم المقدمة الرائعة التي كتبها الاستاذ بارتولد في كتابه الآنف الذكر . ولم تظهر في الواقع الى الان دراسة فاقت دراسته هذه :
W. Barthold: op. cit. pp. 37-58.

وانظر أيضا : عباس العزاوي : التعريف بالمؤرخين في (بغداد ١٩٥٧) .

(٤) وفي رواية سنة ٥٧٥ . راجع ابن خلكان : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان (ط . محمد محي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٩٤٩) ج٥ ص ١٨٩ . وسأشير لـــه « ابن خلكان » .

(٥) أنظر عن حياة ياقوت مثلا : ابن خلكان ج٥ ص ١٧٨ــ١٨٩ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (ط . دار الكتب المصرية) ج٨ ص ١٨٧ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ج ٤ ص ٥٩ــ٦٣ ؛ مقدمة معجم الادباء (ط . مصر) ج١ ص ١٨ــ٤٤ ؛ عباس العزاوي : التعريف بالمؤرخين ج ١ ص ١٠ــ١٤ . وعن مصادر أكثر أنظر
Ensyclopedia of Islam Art. Yakut Al-Rumi

وبحث الاستاذ وديع جويدة :
The Introductory chapters of Yaqut's Mu'jam Al-Buldan, Leiden 1959;

اما عن مؤلفاته فانظر :
C. Brockelmann: Geschichte der Arabischen Litteratur vol. I p. 479; Suppl. vol. I p. 880.

(٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان (ط . بيروت ١٩٥٥ــ١٩٥٧) ج٥ ص ٢٩٦ وسأشير له « معجم البلدان » .

(٧) ن ٠ م ٠ ج٢ ص ١٣ ٠
(٨) ابن خلكان ج٥ ص ١٧٨ ٠
(٩) ابن خلكان ج ٥ ص ١٧٨ ٠
(١٠) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٠٦-٣٠٧ ٠

(١١) يقول كراتشكوفسكي ان ياقوت امضى عامين بنيسابور ٠ انظر : اغناطيبوس كراتشكوفسكي تاريخ الادب الجغرافي العربي ٠ ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ٠ القاهرة ١٩٦٣ ، القسم الاول ص ٣٣٩ ٠ ويبدو أن هذا وهم منه لان ياقوت ترك مرو سنة ٦١٦ هـ بعد أن استوطنها ثلاث سنوات (معجم البلدان ج ٥ ص ١١٤) وكان قد وصل نيسابور سنة ٦١٣ كما اشرنا اعلاه ٠

(١٢) معجم البلدان ج ٢ ص ١٩٩ ؛ ج ٥ ص ١١٤ ٠ ويقول ياقوت في رسالته الى الوزير القفطي : « وكان المقام بمرو الشاهجان » ٠ ابن خلكان ج ٥ ص ١٨٤ ٠

(١٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥١ ٠
(١٤) ن٠م٠ ج ٢ ص ١٩٩ ٠
(١٥) ن٠م٠ ج٢ ص ٤٥١ ٠

(١٦) من أعمال خوارزم من أعاليها ٠ بينها وبين الجرجانية ، مدينة خوارزم ، ثلاثة ايام ٠ معجم البلدان ج١ ص ١٤١ ٠

(١٧) معجم البلدان ج١ ص ١٤١ ٠
(١٨) ن٠م٠ ج٥ ص ٤٠٤ ٠
(١٩) ن٠م٠ ج٢ ص ١٢٣ ؛ ج٥ ص ٢١٠
(٢٠) ن٠م٠ ج٣ ص ١٨٤ ٠
(٢١) ن٠م٠
(٢٢) هي غير الاقليم المشهور بهذا الاسم
(٢٣) معجم البلدان ج٣ ص ٣٧٧ ٠
(٢٤) ن٠م٠ ج٣ ص ٢٥٤ ٠
(٢٥) ن٠م٠ ج١ ص ٥٢٦ ٠
(٢٦) ن٠م٠ ج٣ ص ١١٧ ٠
(٢٧) ن٠م٠ ج٢ ص ٣٨١-٣٨٢
(٢٨) ن٠م٠ ج١ ص ١٤٥ ٠
(٢٩) ن٠م٠ ج١ ص ٢٠٢ ٠
(٣٠) ن٠م٠ ج١ ص ٣٥١ ٠
(٣١) ن٠م٠ ج١ ص ٢٠٢ ٠
(٣٢) انظر : ابن خلكان ج٥ ص ١٧٩ ٠
(٣٣) معجم البلدان ج٤ ص ١٨١ ، وابن خلكان ج٥ ص ١٧٩ ٠
(٣٤) ابن خلكان ج٥ ص ١٨٦-١٨٧ ٠

(٣٥) مقدمة معجم البلدان ص حيث اهدى ياقوت مسودة المعجم للوزير القفطي سنة ٦٢١ هـ ٠

(٣٦) معجم البلدان ج١ ص ٢٨٣ ٠
(٣٧) ن٠م٠ ج١ ص ٢٥٠ ٠

(٣٨) ابن خلكان ج٥ ص ١٨٩ ٠ وانظر عن الاختلاف في وفاته ، في مجلة الرسالة ج١٠ المجلد ٤٩٤ ٠

(٣٩) منسوب الى الشريف ابي الحسن علي بن أحمد بن محمد العلوي الزيدي المولود سنة ٥٢٩ هـ والمتوفى في شوال سنة ٥٧٥ هـ ٠ وهو الجامع القبلاني الحالي ٠ ويرى الدكتور

مصطفى جواد ان قبره قرب باب المدرسة المستنصرية · انظر : دليل خارطة بغداد المفصل ص ١٧٤ ــ ١٧٥ ·

(٤٠) منسوب الى دنيار بن عبدالله من موالي الرشيد · ويرى الاستاذ الدكتور المحقق مصطفى جواد انه شارع المأمون الحالي · انظر التفاصيل في : دليل خارطة بغداد المفصل ص ٦٨ــ١١٩

(٤١) ابن خلكان ج٥ ص ١٨٩ ·

(٤٢) تناول عدد من الكتاب هذا السفر النفيس بدراسات مختلفة لم تحظ بها الا عدد قليل من الكتب فقد جمع باربيه دي فيسار المادة الموجودة في المعجم عن ايران ونسقها وفي ١٨٦٣ جمع لودوف كرهل منه ما يختص بالديانة الجاهلية عند العرب ، وجمع فلهاوزن النصوص الموجودة في المعجم من كتاب الاصنام لابن الكلبي وذلك قبل طبعه سنة ١٩١٤ بمصر · وقام اوتولوث بدراسة الحرات في شبه جزيرة العرب استنادا الى ياقوت سنة ١٨٦٨ ··· الخ من المقالات والبحوث الكثيرة · انظر عن ذلك بحث الاستاذ جويدة :

The Introductory chapters of Yaqut's Mu'jam Al-Buldan pp. X-XIII.

(٤٣) انظر ترجمته في : ياقوت : معجم الادباء (ط·مرغليوث) ج٥ ص ٤٧٧ــ٤٩٤ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٨٥ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٥ ص ٢٣٦ ؛ وانظر المقدمة التي كتبها محمد أبو الفضل لكتاب انباه الرواة ص ٩ــ٣٠ ·· الخ ·

(٤٤) ابن خلكان ج٥ ص ١٨٠ــ١٨٨ ·

(٤٥) ن·م· ج٥ ص ١٨٠ ·

(*) انظر كتب القفطي في :

Brockelmann: Op. Cit. vol. I 396; Suppl. vol. I p. 559.

(٤٦) معجم البلدان ج٢ ص ٣٩٨ ؛ ج٥ ص ٣٣٢ · قارن ابن الاثير : الكامل في التاريخ (ط · بولاق ١٢٩٠) ج١٢ ص ١٤٩ ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر (ط·بيروت ١٩٥٩) ج ٥ص ·

(٤٧) معجم البلدان ج١ ص ١٧٩ــ١٨٠ · وانظر الرسالة في ابن خلكان ج٥ ص ١٨٦ « بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين ، وبلاهم فالفاهم صابرين » ·

(٤٨) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٠٩ ·

(٤٩) معجم البلدان ج١ ص ١٧٩ · قارن ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٥٣ عن شخصية خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش وحكمه عليه ·

(٥٠) معجم البلدان ج١ ص ١٢٩ · والخانية هم الذين يسمون ايضا القرمخانية · أما الخطا فيسمون أيضا : « الخطايية » والقرمخطا · ولفظ : قره أو قرا ، لفظ تركي معناه أسود ·

(٥١) معجم البلدان ج٥ ص ٤٧ ·

(٥٢) ن·م· ج٢ ص ١٧٠ ·

(٥٣) ن·م· ج٣ ص ٣٧٧ ؛ ج٥ ص ٣١٠ · قارن ابن الاثير ج ١٢ ص ١٥٢ ، ١٥٦ ·

(٥٤) ابن خلكان ج٥ ص ١٨٦ ·

(٥٥) معجم البلدان ج٥ ص ٣٣٢ ·

(*) انظر فتح نيسابور في ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٦٢ ·

(**) محمد بن أحمد النسوي سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي تحقيق حافظ أحمد حمدي · القاهرة ١٩٥٣م ص ١١٧ــ١١٩ ·

(***) 'Ata-Malik Juvaini: The History of the World-Conqueror, translated from the Persian by J. A. Boyle, Manchester, 1958, pp. 169-178.

(٥٦) ابن خلكان ج٥ ص ١٧٨ ٠

(٥٧) ابو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٩٨ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمن ج١ ص ٨٥ـ٨٦ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١١٨ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج٢ ص٣١٣ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ص ١٠٩ـ١١٢ ؛ الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ج٢ ص ٤٢٠ـ٤٢١ ... الخ ٠

(٥٨) الدكتور جعفر حسين خصباك : الاحتلال المغولي للعراق ص ١٣٤ـ١٣٩ (مجلة كلية الاداب والعلوم ، العدد الثالث ، حزيران ١٩٥٨) ٠ ومما تجدر الاشارة له ان استاذنا الفاضل الدكتور خصباك هو أول من شك في هذه التهمة وبين خطئها ٠

(٥٩) معجم البلدان ج٥ ص٣٣٢ ٠ قارن ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٦١ عن استعمال الفلاحين في القتال ايضا ٠

(٦٠) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٤٧ ٠

(٦١) معجم البلدان ج١ ص ١٧٩ـ١٨٠ ٠

(٦٢) ن٠م٠ ج٥ ص ٣٣٣ ٠

(٦٣) ابن خلكان ج٥ ص ١٨٦ ٠

(٦٤) معجم البلدان ج٣ ص ٣٠٦ـ٣٠٧ ٠

(٦٥) ن٠م٠ ج٥ ص ٣٩٦ ٠

(٦٦) ن٠م٠ ج٣ ص ٢٠٤ ٠

(٦٧) ن٠م٠ ج٢ ص ١٢٣ ٠

(٦٨) ن٠م٠ ج١ ص ١٨٠ ٠

(٦٩) ن٠م٠ ج١ ص١٤٥ ؛ ج١ ص٥٣٣ ، وقارن ابن الاثير : الكامل مثلا ج١٢ ص ١٤٨ـ١٥١ـ١٦٢ ٠

النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ١١٧ـ١١٩ ، ١٣٠ـ١٣١ ... الخ٠

(٧٠) ن٠م٠ ج٢ ص ١٣ ٠ قارن ابن الاثير ج١٢ ص ١٥٤ ، ١٦١ ٠

(٧١) ن٠م٠ ج١ ص١٤٥

(٧٢) ن٠م٠ ج١ ص ٥٣٣

(٧٣) انظر : Sylres : A History of Persia pp. 55-56.

(٧٤) ابن خلكان ج٥ ص ١٨٠ـ١٨٨ ٠

(٧٥) في الاصل : ابناء (بالباء المنقوطة بواحدة من تحت) ٠

(٧٦) في الاصل : وقى (بالقاف) ٠

(٧٧) في الاصل : علاء ٠

(٧٨) الكرث : الغم ٠ ويقال كرثه الغم يكرثه اذا اشتد عليه وبلغ منه المشقة ٠ انظر : الجوهري : الصحاح (ط ٠ أحمد عبدالغفور ـ القاهرة ١٣٧٧هـ) ج١ص ٢٩٠ ٠

(٧٩) الملوان والجديدان : الليل والنهار ٠

(٨٠) في الاصل : الباهرة (بالمهملة) ٠

(٨١) والتحجيل : بياض في قوائم الفرس ، الجوهري ٤ـ١٦٦٦ ٠

(٨٢) تجنه : تكنه وتخفيه ٠ واجننت الشيء في صدري : اكننته ٠ الصحاح ٥ـ٢٠٩٣ ٠

(٨٣) في الاصل : الحبين (بالحاء المهملة) ٠

(٨٤) المعتر : العتيرة ، وهي شاة كانوا يذبحونها في رجب لآلهتهم ٠ [الصحاح ٢ـ٧٣٦] والظاهر انه يريد بالمعتر هنا ، من يعيش على أكل ذبائح النذور ٠

(٨٥) الحجرات ١٧ ٠

(٨٦) قال محقق وفيات الاعيان في الهامش : ان الفصيح في العربية « مدحوة »

(٨٧) المسجورة : المملوءة ٠ وسجرت النهر : ملئته ٠ وسجرت الثماد ، اذا ملئت

من المطر ، وذلك الماء سجرة ، والجمع سجر · ومنه البحر المسجور ·· [الصحاح ٢ـ٦٧٧]

(٨٨) الخلف : حلمة ضرع الناقة القادمان والآخران ·· وهنا استعمل الزمن بدل الناقة · [الصحاح ٤ـ١٣٥٥] ·

(٨٩) يريد به سد يأجوج ومأجوج · انظر معجم البلدان ج٣ ص ١٩٧ـ٢٠٠ ·

(٩٠) في الاصل : بنبل (الحرف الثالث معجم بواحدة من تحت) ·

(٩١) حزوى : موضع بنجد في ديار تميم ، وقال الازهري جبل من جبال الدهناء مررت به · انظر : معجم البلدان ج٢ ص ٢٥٥ـ٢٥٦ ·

(٩٢) العقيق : اسم لكل مسيل ماء شقه السيل في الارض فانهره ووسعه · وفي بلاد العرب عدة أعقة منها عقيق عارض اليمامة ، وعقيق بناحية المدينة ، وهما عقيقان الاكبر والاصغر · ومنها أيضا عقيق البصرة ·· الخ ، ويبدو لي أن الشاعر أراد بالعقيق هنا عقيق المدينة لانه المشهور ·انظر : معجم البلدان ج٤ ص ١٣٨ـ١٤١ ·

(٩٣) العذيب : تصغير العذب ، وهو الماء الطيب : وهو ماء بين القادسية والمغيثة · راجع معجم البلدان ج٤ ص٩٢ ·

(٩٤) الخليصاء : تصغير الخلصاء : موضع · معجم البلدان ج٢ ص ٣٨٦ ·

(٩٥) اسم موضع ·

(٩٦) قصر تيماء : بليد في اطراف الشام بين الشام ووادي القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق · انظر معجم البلدان ج٢ ص٦٧ · والابيات الثلاثة لعبدالله بن أحمد بن الحارث شاعر بني عباد · وبين الموجود هنا وبين التي في معجم البلدان ج٢ ص ٣٨٦ اختلاف بسيط ·

(٩٧) في الاصل : الاباب (بالباء المعجمة بواحدة من تحت) ·

(٩٨) بوائقهم : دواهيهم وشرورهم · والبائقة : الداهية · وفي الحديث : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه · » قال قتادة : أي ظلمه وغشمه [الصحاح ٤ـ١٤٥٢] ·

(٩٩) الطرف : الكريم من الخيل · يقال فرس طرف من خيل طروف · [الصحاح ٤ـ١٣٩٣] ·

(١٠٠) كذا في الاصل · وقال محقق الوفيات : ولعل أصله « وان يلبس ببطن طمع عناها · » ·

(١٠١) الوشاح : شيء ينسج من أديم عريضا ويرصع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقيها [الصحاح ١ـ٤١٥] ·

(١٠٢) المبير : من البوار وهو الهلاك · [الصحاح ٢ ـ ٥٨٩] ·

(١٠٣) التباب : الخسران والهلاك · تقول منه : تب تبابا ، وتبت يداه · [الصحاح ١ ـ ٩٠] ·

(١٠٤) الجنائب : جمع جنيبة وهي : الناقة تعطيها القوم ليمتاروا لك عليها · [الصحاح ١ـ١٠٢] ويريد بها هنا الارواح المنطلقة غير المقيدة ·

(*) اقتبسها أبو الثناء الالوسي في وصفه للقسطنطينية · والطريف في الامر ان مؤلف كتاب الادب الحديث للصف الثالث المتوسط قد ادخلها في الكتاب باعتبارها للالوسي ممثلة لعصره ·

(١٠٥) الوامق : المحب · والمقة : المحبة ، والهاء عوضا عن الواو · [الصحاح ١٥٦٨/٤]·

(١٠٦) المين : من مانه يمونه مونا ، اذا احتمل مؤونته وقام بكفايته [٢٢٠٩/٦] أي انها شبيهة بالجنة بلا تكلف ·

(١٠٧) ارجحنت : تمايلت ومعناها هنا انتشرت · [الصحاح ٣٦٤/١] ·

(١٠٨) في الاصل : محسوبه (بالهاء المهملة) ·

(١٠٩) الابدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ، اذا مات واحد أبدل الله مكانه

بآخر • قال ابن دريد : الواحد : بديل • [الصحاح ١٦٣٢/٤]
(١١٠) أي انهزم •
(١١١) الرأل : ولد النعام • وحذفت الهمزة حتى تتلائم مع المسجعة
(١١٢) الدخان ٣٥ •
(١١٣) ص ٢١٦ •
(١١٤) في الاصل : وتمحيص •
(١١٥) التبار : الهلاك • وتبره تتبيرا ، أي كسره وأهلكه [الصحاح ٦٠٠/٢] •
(١١٦) القتب ، بالتحريك : رجل صغير على قدر السنام • [الصحاح ١٩٨/١] •
(١١٧) السبسب : المفازة ، وهي الصحراء [الصحاح ١٤٥/١] •
(١١٨) الكهف ٦٣ •
(١١٩) يوسف ٩٥ •
(١٢٠) الضبع : العضد • [الصحاح ١٢٤٧/٣] •



عصور الشعر الانكليزي

الدكتور صالح مهدي شريدة

(١) العصور الاولى للشعر الانكليزي :

يمتاز التراث الشعري الانكليزي بخصبه وثرائه • فقد برز منذ أقدم العصور شعراء عديدون يجهلهم كثير من عشاق الادب انفسهم فبالرغم من ان الشاعر « شوسر » يعتبر أب الشعر الانكليزي ، فانه في الحقيقة لم يأت الا بعد خمسة قرون من ظهور اقدم الشعراء الانكليز الملهمين • وقد وجه البحاثة من الادباء الانكليز اهتماما خاصا في القرن الماضي الى دراسة أدب هؤلاء الشعراء القدماء واظهار تراجم شعرهم الى الملأ وابراز مزاياه ، وهو يظهر كثيرا من التشابه والخواص المادية والروحية التي امتازت به انكلترة وشعبها • ويعتبر بعض الادباء هذا التراث الشعري الانكليزي القديم من أخصب الشعر في القارة الاوربية ان لم يكن اخصبه جميعه • وهناك بعض مقطوعات قصيرة من الشعر الالحادي ، لم يصلنا معظمها ، وربما يرجع السبب في ذلك الى ظهور المسيحية التي منعت انتشارها ، وهناك ما يشبه ذلك بالنسبة للشعر العربي بعد ظهور الاسلام • ومن الشعراء الانكليز البارزين الشاعر « كادمون » Caedmon الذي يعتبر في مصاف « شوسر » أب الشعر الانكليزي • ومن أروع قصائده قصيدة « ابي اوف وتي » Abbey of Whity التي تتناول حياة راعي بقر بسيط فطري ، يظهر له ملاك يطلب منه ان يغني غناء دينيا ، ومن ثم يؤخذ الى الكنيسة ويعلم الانجيل ولعله كان من مؤسسي احدى المدارس الشعرية التي لم يترك منها أثر يذكر ، ولكنه ترك ترنيمة دينية قصيرة في مديح الخالق وصنعه • اما اتباع هذا الشاعر فقد نظموا كثيرا من المحتويات الاولى لكتاب « العهد القديم » وهؤلاء الشعراء الذين عاشوا في القرن السابع أو بداية القرن الثامن ، امتازوا بالهامهم وعبقريتهم الشعرية عندما كانوا يتناولون موضوع الحرب ، كأنما لم تؤثر فيهم قط مبادىء المسيح •

وفي حوالي عام ٧٢٠ برز شاعر مجهول الاسم ، نظم من القصص الدنيماركية والسويدية قصيدة رائعة ، التي وصف فيها فضائل الوثنيين من

القوة والبسالة الحربية ، والتي تتمثل في شخصية البطل انجري «بي وولف» Beowulf الذي كان أميرا فارسا وقد عرف بمعاضدته ومعاونته للشعب ، يتطلع اليه الامراء الفتيان كمثل يقتدى به ·

هذا وان قصته مبنية على التخيلات ، التي تعتمد على أسس من الحقائق التاريخية ، وفي اواخر القرن الثامن ظهر شاعر آخر وهو «كني وولف» Cynewulf وكانت روحه مليئة بالتحمس للمسيح ومبادئه الى حد العبادة وقد دافع عن كل ما قاله وكتبه ، وامتاز بأحاسيسه المرهفة بجمال الطبيعة ·

(٢) الشعر بعد تغلب النورمنديين :

كثيرا ما يقسو الزمن فلا يترك لنا من الآثار الادبية الا شذرات منها ، وقد تكون ثمينة ، بينما يدرس الكثير من التراث الادبي · مما لا شك فيه انه قد كانت بعض المخطوطات الادبية للشعراء الانكليز قبل دخـــول النورمنديين وقد قضت عليها نيران الغزاة وقساوتهم ، ولكن بعض ما وصل الينا من شعر « كادمون » و « كني وولف » وفي قصته « بي وولف » بعض مقطوعات شعرية رائعة أخرى ، يدل دلالة واضحة بان القرون الثلاثة التي سبقت دخول النورمنديين قد عرفت شعراء خطوا بالشعر خطوا كبيرة ، ومن المحتمل ان يكون الشعر قد وصل الى قمته في ذلك العهد ، ثم بــدأ يتدهور · ولما انتصر النورمنديون توقف عن النمو والازدهار · ففي الفترة التي تمتد من نهاية القرن العاشر الى فجر القرن الثالث عشر ساد صمــت عميق بين الشعراء وفي حوالي عام ١٢٠٠ بدأ الشعر الانكليزي ينتعش ثانية وقد اتخذ العهد الاول من الشعر الانكليزي طريقة قبل ان يبدأ الشــعر الفرنسي بالظهور ،ولكن في هذه الفترة التي صمت فيها الشعر الانكليزي كانت روح الشعر الفرنسية قد عبرت عن نفسها بوضوح ·

وفي هذا العهد الجديد للشعر الانكليزي ، كان يسود في الواقع طابع الشعر الافرنسي ووحي من تأثيره · فقد اخذت انكلترة عن فرنسا بصورة غير مباشرة اغاني الحب للشعراء Provencal الغنائين ، كما أخذت عنهـا بصورة مباشرة أغاني الرومنسية كاغنية «الملك آرثر وفرسانه» King Arthur and his Knight و «شارلما وامراءه» Charlemagne and his peers وقصة « طرواده » القديمة Tale of Troy · وقد دخلت نتيجة لذلك عناصر جديدة في الشعر الانكليزي ، واهم ما اقتبسه هذا الشعر ، هو الاســلوب الشعري · ان شعراء الانكليز القدماء قد زاولوا اسلوبا شعريا ، لم تزخرفه القافية بل « الجناس الحرفي » alliteration الـذي يخضع « للتقطيع » Stress وينتهي وهو دون ذهنية نظامية معينة · بينما الشعر الجديد الذي اقتبسه الشعراء الانكليز في عهد التأثير بالشعر الافرنسي كان بأســلوب الشعر « الدوبيت » القصير النغم والثنائي القافية Iambic التي تستند الى

وزن شعري مكون من مقطع غير « موزون » unaccented يتبعه مقطع موزون accented . لقد مضى القرن الثالث عشر دون انتاج شعري كبير له مميزات شعرية جديرة بالاهتمام حتى اشرق فجر القرن الرابع عشر . وقد مضت خمسون سنة اخرى دون أن يوجد شاعر فحل امثال « كني وولف » ولكن مستوى الانتاج الشعري استمر في التقدم كما بدأ يتناول الموضوع الرمنسي، وقد ظهر شعراء آخرون أكثر جدة في الموضوع .

ومما يستحق الذكر ان الشعر قد وصل الى اعلى مستواه على يدي شعراء غنائيين مجهولين في بداية القرن الرابع عشر وقد غردوا بشعرهم في الحب ، عودة الربيع ، مارى العذراء ، وغير ذلك من المواضيع الدينية .

(٣) عهد شوسر :

لقد جاء الشاعر شوسر في العقد السابع من القرن الرابع عشر ، وقد عززت عبقريته الشعرية اول الامر بتأثره بالشعر الافرنسي ، ومن ثم بالشعر الايطالي ، وتوسعت ونمت بتجارب السنين ، ففاقت عبقرية معاصريه الشعرية . وتعتبر اقاصيص «كانتربرى The Canterbury Tales تحفته الشعرية الخالدة ، وقد امتازت بقوتها القصصية ، ووصفها ، وروعة تصوير ابطالها كما امتازت بمهارة اسلوبها الشعري ووزنها الساحر .

وكان شوسر ذا مدرسة شعرية تدين بوحيها الى الشعر الافرنسي بالدرجة الاولى . وكان في الشطر الثاني من القرن الرابع عشر مدرسة شعرية أخرى . ان التقاليد الشعرية التي كانت سائدة قبل الفتح النورمندي لم تخف وطأتها ، بل استمر تأثيرها ، ولازلنا نرى في هذا العهد بعض الشعراء المحبوبين الذين يزدرون ويجهلون المدرسة الشعرية الافرنسية . وبعد عام ١٣٥٠ ظهرت تلك المدرسة مرة أخرى ، بأسلوبها الشعري « ذي الجناس الحرفي » alliterations المحور قليلا والمنظم بقوة تدل على ان ظهوره مرة أخرى لم يكن فجائيا . ولم تكن احياء روح تلك المدرسة الشعرية اقل من احياء اسلوبه ، تلك الروح التي كانت تختلف في نواحي متعددة عن روح الشعر الجديدة . ان مظاهر الحياة المرحة لم تجذب هؤلاء الشعراء ، ولم تجذبهم المناجاة الغرامية المألوفة ولا شمس صباح الربيع المبهجة ، بل انهمكوا بروح وخواطر الشعر النجدية يشبهون بذلك الشاعر الذي نظم قصيدة « بي وولف » Beowulf ، متطلعين الى المشاكل القائمة في الحياة المعاصرة . فبينما كان « شوسر » يأتي في الطليعة من الشعراء الذين يمثلون المدرسة الجديدة ، فان « لانج لاند » Langland وهو الذي يمثل المدرسة القديمة يأتي بعده في المقدرة الشعرية ، وهو أعظم شعراء هذه المدرسة . وهكذا نجد كلا من « شوسر » و « لانج لاند » يمثلان مدرستين شعريتين مختلفتين كل الاختلاف ، نجد جذورهما باقية فيما انتجه شعراء انكلترة العظام امثال « سبنسر » Spenser و « ملتن » Miton

وكان ممثلا للشعر البلاطي Cavaleir بينما نجد « لانج لاند » ممثـــلا للشعر البيوريتاني[1] ٠

(٤) الشعر بعد عهد شوسر :

ان الفترة التي جاءت بعد شوسر بعد عام ١٤٠٠ تشبه غروب شمس الشعر وهي في وهيجها ٠ لقد تلا ذلك قرن من الغروب ، كان يتعثر فيه الشعراء كأنهم يحاولون ان يثبتوا اقدامهم في طريق مضيئة من جراء انعكاس ضوء من مصدر مشع زائل Luminary وقد ظهر بعض الشعراء امثال ليدكيت « Lydgate » و « اوكليف Occleve » وهما يتبعان خطى شوسر ويقلدانه ، ولكن لم يكن فيهما شرارة من عبقريته ٠ يضاف الى ذلك ان اللغة الانكليزية أخذت تفقد بسرعة تراكيبها اللغوية وتصاريفها inflections القديمـــة وتأخذ شكلها الحديث التي هي عليه الآن ، وهذا ما سـبب كثـيرا من الاضطراب في الاوزان الشعرية لدى الشعراء ، وقد نظم اروع الشعر بين فترة ١٤٠٠ و ١٥٢٠ كل من « سكوتسمان Scotsman » و « دونبر Dunbar » وقد كانا يقلدان شوسر ايضا ، وان كانا اكثر عبقرية واصالة شعرية ٠ ولكن كان ابرز الشعراء في هذه الفترة « سكلتن Skelton » الذي امتاز بعنف شذوذه الشعري eccentricity ، وهذه الميزة هي التي ابرزته ورفعته عما هو مألوف ٠ ولكن ظهور اولئك الشعراء المجهولين الذين نظموا القصائد الغنائية « البالاد Ballads » المحبوبة قد عوض الى حد بعيد عن عـــدم وجود شعراء عظام ٠ وقد أخذت هذه النماذج من المقطوعات الشـــعرية هيأتها التي هي عليه الآن ، خلال القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر

ان الموهبة الشعرية التي امتاز بها كل من « دونبر » و « سكلتن » هي التي جعلتهما اعظم من اسلافهما في القرن الخامس عشر ٠ لقد نبغ كـل من « ليدكيت » و « اوكليف » من شعراء القرون الوسطى ، ولكنهما كانا يستوحيان عهدا منصرما ٠ بينما نجد « دونبر » و « سكلتن » من شعراء فجر العهد الجديد ٠ وقبل ان يغادرا هذا العالم كان قد مضى على عهد الطباعة في انكلترة حوالي النصف قرن ، وبديء في تعليم اللاتينية في اكسفورد ٠ واكتشفت القارة الامريكية وبزغ عهد الاصلاح ، فقوضت معالم القـــرون الوسطى ، وعم فجر النهضة « رينيسانس Renaissance » في كل مكان ينبيء بمولد عهد جديد ٠

لقد جاء الشاعران « دونبر » و « سكلتن » بين عهد القرون الوسطى

---

(١) كلمة بيورتان Puritan تعني المتطهرين والمتزمتين وهي ترجع الى مذهب ديني في المسيحية يدعو الى التقشف والبساطة ٠

والعهد الحديث ، فكانا من شعراء الانتقال ولم تبدأ بهما حركة الشعر الحديثة الجليلة التي تلت العهد الماضي ، بل بدأت بشاعرين آخرين هما « سير توماس وايت Sir Thomas Wyatt » وخليفته « سوري Surry اللذان وجها عنايتهما الى الاناشيد والاغاني « السونت » Sonnet الايطالية • وقد ادخل « وايت » الذي يكبر زميله سنا « السونت » في الشعر الانكليزي وترجم كثيرا منه عن « بتراك Petrach » الشاعر الايطالي الشهير • تلميذه « سوري » فقد نظم مثل هذه الاغاني باسلوب اكثر سهولة وروعة ، فتفوق على سلفه « وايت » في هذا الميدان تفوقا كبيرا • وقد نظم كلا من هذين الشاعرين صورا أخرى من المقطوعات الغنائية ، واليهما يعود الفضل في ايجاد الثروة الهائلة من الشعر الغنائي التي امتاز بها العصر الاليزابيثي • وبدأ « وايت » كذلك ينظم اول نماذج من الشعر الهجائي الاصولي في انكلترة وادخل « سوري » الشعر الحر أو المرسل Blank Verse في الادب الانكليزي ، بترجمته لكتاب « انيد Aeneid » لفرجل • وللمرة الثانية ، كما حدث في القرن الثالث عشر ، طرأ على الشعر الانكليزي تغيير في الاسلوب والمعنى ، ويرجع الفضل الاكبر في هذا التغيير لهذين الشاعرين • ومما لا شك فيه انه قد كانت لقصائدهما مكانة قيمة ، ولكنه يندر أن يوجد فيهما من السحر أو الجمال اللذين هما العنصران الاساسيان للخلود •

(٥) الشعر في العهد الاليزابيثي :

كما ان الشاعر شوسر لم يأت الا بعد فترة طويلة من التهيؤ والتجربة الشعرية • كذلك مضت سنون عديدة من التجربة الشعرية قبل ان يولد الاتجاه الشعري الجديد على يدي « سوري » و « وايت » ووصل اقصى كماله على يد « سبنسر » Spenser ولم تطبع قصائد الشاعرين الاولين الا في عام ١٥٥٧ اى بعد مضي عشر سنوات على وفاتهما ، اما قبل ذلك الوقت فقد كانت اشعارهما متداولة بين الايدي وهي بهيئة خطية يتعت بشرايين الشعر الغنائي التي أثمرت في نفوس الآخرين • وبعد عام ١٥٥٧ بدات الاشعار الغنائية تزداد ظهورا في طبعات موسعة تصدرها منشورات « توتل Tottal وتحت عناوين خلابة كتلك المجموعة التي صدرت عام ١٥٧٦ باسم « فردوس الاستنباطات الظريفة The Paradise of Dainty Devices فكان كثير من هذه القصائد ذا صيغ ضعيفة هي أشبه بمحاولات شعرية ولكن أظهر البعض منها مهارة وعبقرية شعرية حقيقيتين •

وعلى اى حال فان كل هذه المجموعات تبدو تافهة الاهمية بالنسبة الى مجموعة « تقويم الراعي The Shepherd's Calendar » التي ظهرت للشاعر عام ١٥٧٩ والتي برهنت على عبقرية هذا الشاعر بما امتازت به من اوزان شعرية متنوعة وهو وان كان في مرحلة التجربة في قصائده هذه لكنها كانت

تجربة القادر المسيطر على فنه ؛ وهكذا بدأ العهد الاليزابيثي العظيم في الشعر ، وقد امتاز بصورة خاصة بوفرة القصائد الغنائية وروعتها وكانت قصائد « السونت » الغنائية التي طبقت في العهد التاسع من القرن السادس عشر تربو على الالفين .

اما المسرحيات الشعرية التي الفها « كرين » Green و « بيل » Peele و « ليلي » Lyly – وهم يسبقون شكسبير في العهد – وكذلك المسرحيات التي الفها شكسبير واخلافه ، كلها امتازت بسحر وروعة الاغاني التي تتخللها . وبالاضافة الى اغاني هذه المسرحيات ، والمجلدات الحاوية لمقطوعات « السونت » فهناك مقطوعات غنائية كثيرة نظمها كل من « سير فليب سدني » Phillip Sidney و « درايتون » Drayton و « دانيل » Daniel و « مارلو » Marlowe » و « سبنسر Spenser» و « سير والتر راليــــه Sir Walter Raleigh » وغيرهم من هم اقل شهرة . وكانت هذه القصائد الغنائية كلها تمتاز بثروة جمالها الرائع كأنها اشعار صادرة ذاتيا من رجال سعداء من طبيعتهم الغناء .

ولم تقل شأنا عن ذلك تلك المقطوعات الغنائية التي نظمها « ليلي Lyly » تحت عنوان : « اغنية أبليس » Appeles' Song أو مقطــوعات سبنسر المسماة « بروثالاميون » Prothalamion التي تؤلف القسم الاعظم من العبقرية الشعرية في هذا العهد . وكذلك امتاز العصر الحاضر بنتاج ثروة من الشعر الغنائي الجيد، اغلبه من المقطوعات القصيرة ، ولكن لم يستطع ان ينافس العصر الاليزابيثي بروعة ما قدمه من قصائد غنائيــة طويلة كانت اعظمها جميعا منظومة « ملكة الجن » Faerie Queen التي الفها سبنسر . وقد امتازت امثال هذه المقطوعات الغنائية الطويلة بمستوى شعري رفيع تتضح أهميتها عند قرائتها كوحدة كاملة متصلة الاجزاء . ولم يعتن مؤلفو هذه القصائد بما يسمى بالPurple Patches بقدر عنايتهم في مزاولة الشعر ذي المستوى السامي منها ، ولقد امتاز العصر الاليزابيثي كذلــك بالنتاج المسرحي ، الذى انتعش بصورة خاصة على يد شــكسبير يتبعيــه بالاهمية الشاعر « مارلو » . اما « شكسبير » فقد كان في مسرحياته الاولى شاعر أعظم منه ككاتب مسرحي ، وبقي الى النهاية عظيما كونه شاعر ومؤلف مسرحي على حد سواء .

اما « مارلو » فقيل عنه بان كان اكثر عبقرية في الشعر منــه في التاليف المسرحي ، وينطبق القول نفسه على الشاعر « بيــل » Peele لقد صاحب موت الملكة اليزابيث عام ١٦٠٣ فراغ في التاليف المســرحي ، وبدأت الدراما في التدهور الى حد انتهى الامر فيه الى غلق المسارح بأمر من مجلس البرلمان عام ١٦٤٢ ، ولكن لا زالت الروايات المسرحية مملــوءة

بالشعر ، ولا سيما على ايدي « بيومونت » Beaumont و « فلتشـــر » Feltcher و « وبستر » Webster

(٦) الشعراء الميتافيزيقيين : أو شعراء ما وراء الطبيعه :

في الوقت الذي كان « سبنسر » يؤلف قصائده « ملكة الجن » بدأ شاعر شاب اسمه « جون دوون » John Doone ينظم الشعر ، ثم ما فتيء ان ابدع حركة شعرية جديدة في انكلترة ٠

لقد امتازت عبقرية « دوون » الشعرية بالمتانة ، والاصالة ، والعاطفة وبالحذاقة ، والقدرة التحليلية والعقلية ويعم عنصر الجمال كثيرا في كل سطر من اشطر أشعاره ، وان لم يكن هذا سائدا في قصائده ٠ لقد ادار « دوون » ظهره الى عناصر الوضوح ، والجمال الحسي التي عرف بهـــا « سبنسر » وزملائه واتجه نحو مزاولة الشعر الخالي من رقة الاوزان ، وزاول الشعر ذا القافية غير النظامية الذي تسيطر عليه العاطفة الآنية ، وتمسه التصورات الغريبة غير المالوفة يدفعه اليها عقله الحاذق ، وافكاره وأحاسيسه في الحب ، التي طبعت بطابع الاخلاص والتحليل النفسي التي هي غير مالوفة لدى الشعراء الاليزابيثيين الذين يميلون الى البساطة ٠ وفي اوائل القرن السابع عشر بدأت افكار « دوون » تتجه نحو الدين فنظم « أناشيده المقدسة » و « سونتاته » وقد ابدى في هذه ايضا نفس الصفات التي امتاز بها قلبه وعقله ونفس الغموض في التعبير ، وعدم نظامية الاوزان الشعرية محللا فيها نفسه لا قلبه التي اضناه الحب ٠

ان البدع والتمرد الشعري التي اوجدها « دوون » يشمل ذلك بحثه وراء الاستعارات المصطنعة ، وميله الى المقارنات المضحكة ، واتباعه للابتكار الملتوي – قد اصبحت نماذج يقتدى بها من قبل الكثيرين والتي قضت بعض الاحيان على انتاج الشعراء الذين هم بعيدون عن روح « دوون » امثـــال « ملتن » و « درايدن » ٠ وكان هناك بعض الشعراء الآخرين الذين لم يتبعوا « دوون » في الاسلوب وحسب ، وانما شاركوه في قوة العاطفـــة الدينية وحتى انهم ونجوا بأكثر تعمق منه في العالم الروحي ٠ واشـــهر هؤلاء الشعراء هم « جورج هربرت » George Herbert و « كراشـــو » Grashaw و « فوكهان » Vaughan ، وكل هؤلاء وعلى راسهم « جون دوون » يدعون بالشعراء الميتافيزيقيين ، وربما لكون « دوون » شاعرا عقليا الى حد بعيد يعده البعض من اتباع الصوفية الحقيقية ومما لاشك فيـــه ان امثـــال هؤلاء الشعراء هم ما يمكننا ان ندعوهم بالمتصوفين وقد وهبوا بصـــورة خاصة احساسا حادا بالشعور بحقيقة العالم المجهول ، والذين استطاعوا للحظات من السمو الروحي أن يلمحوا ومضات خاطفة من الرؤيا له ٠

(٧) الشعراء الغنائيين :

بالرغم من ظهور حركة رد الفعل هذه نتيجة لظهور الشعراء الاليزابيثيين ، فان تقاليدهم الشعرية لم تخبوا وتضمحل لزمن غير قصير . ان « بن جونسن » Ben Jonson وهو اعظم الشعراء المسرحيين بعد شكسبير كان شاعرا غنائيا محبوبا ، وبينما نجد بعض الشعراء قد اتبعوا خطى « دوون » واعتبروه مثلهم المقتدى به ، نجد شعراء آخرين قد اعتبروا انفسهم خلفاء واتباع لجونسن . ان جونسن كما تدلنا عليه مسرحياته كان متبحرا بالآداب الكلاسيكية القديمة ، ولذلك نجد اشعاره الغنائية لم تخلوا من تأثر ثقافته الكلاسيكية هذه ، ونراه بعض الاحيان يتناول فكرة الشعر الكلاسيكي الغنائي مدخلا اياها الى الشعر الانكليزي وهو عند القيام بذلك ، أو عند نظمه للشعر الغنائي ، انما يكتب برغبة شعورية ليعبر بوضوح وجلاء وتحفظ تابعا للطريقة التي علمه بها شعراء روما الكلاسيكيين . وهكذا نجد في نتاج جونسن واتباعه أقل تلقائية بالرغم من الروح الاليزابيثية التي كانت لا تزال تجرى في عروقه .

لقد امتازت قصائد هؤلاء الشعراء بالسهولة والرقة ولكنها تظهر لنا من جهة أخرى ، انها قد نظمت بتوجيه اهتمام اكثر نحو الصقل elegance والصيانة اللفظية الرشيقة وابعد من ذلك ـ ولا سيما في اغاني « هـيرك » Herrick و « كارو » Garew و « سوكلنج » نجد ملاحظات أقل جدية مما ألفه الشعراء الاليزابيثيين ، ونجد بين حين وآخر سخرية وثرثـة flippancy وهؤلاء الشعراء هم من ندعوهم بالشعراء الغنائيين المرحين ، الذين صانوا نشاطا يشعرهم عن كل ما هو قاتم وكئيب حولهم بينما كانت انكلترة تحت حكم شارل الاول ترزح تحت وطأة الحرب الاهليـة .

(٨) الشعر الملتني :

نجد شخصية ملتن الشعرية تنتصب قائمة بين هذين الفريقين من الشعراء وهما الميتافيزيقيين والغنائيين المرحين اذ تتغلب عليهما ، وتفترض طابعها الخاص البارز . ويعتبر ملتن أعظم مقاما في الشعر حتى من سبنسر . ان شعر سبنسر يدين بالشيء الكثير الى شوسر ، كما تعترف بذلك الملاحظـات المدونة في قصيدته المسمـاة « تقـويم الراعي » Shepherd's Calendar وبالاضافة الى هذا التأثر بصور القرون الوسطى الذي لازم سبنسر فاننا نجد في شعره خليطا من تيارات الانسانيـة Humanism لعهد الرينيسانس (النهضة) وعهد الاصلاح Reformation اما شعر ملتن ، فبالرغم من انه يعترف بانه مدين لسبنسر ، وبالرغم من انه تبدو في شعره تيارات عهد الرينيسانس وعهد الاصلاح لكننا نجده قد

تخلص من تاثيرات العصور الوسطى ، ولتحرره من كل ذلك نجد شعره يمثل بصورة أكثر كمالا اروع النتائج للحركة الانسانية الجديدة تغذية الآداب الكلاسيكية وتوجهه البيوريتانية ، التي تلت عهد النهضة ٠ ولكن روح ملتن الشعرية كانت أشبه بنجم يعيش لوحده ، فهو لم يذعن الى المدارس المعاصرة ـ غير انه انغمس في نضال انتطر فالميتافيزيقي ٠ لقد كانت ثقافته من السعة بمكان بحيث قد عم فضله في شعوب شتى كالايطاليين ، اليونانيين ، والرومانيين والى مواطنيه ولكن هذا الفضل الذي تركه ملتن هو من ذلك النوع الذي يعسر جمعه ، لان التبر الذي تناوله قد اعاد صهره ، فاصبح المعدن يحمل صوغه أثرا واحدا وحسب ـ ذلك هو أثر جون ملتن نفسه ٠

(٩) عهد الحركة الكلاسيكية(٢) :

قبل ثلاثين عاما على الاقل من مفارقة ملتن الحياة ، عام ١٦٧٤ ، بدأت مدرسة جديدة في الشعر غطت على الشعر الميتافيزيقي وعلى حركة الشعراء الغنائيين المرحين ٠٠٠ وسيطرت هذه المدرسة الجديدة أكثر من قرن من الزمن ٠ وهؤلاء الشعراء الجدد ، الذين كان من اوائلهم الشاعران والر Waller ودينهـــام Denham كانوا يبحثون باهتمام تام وراء الاسلوب الشعري ، لكي يصلحوا الشعر وينقوه مما علق به من الشوائب التي احتوته به في عهد الشعراء الميتافيزيقيين ٠ وقد نجحوا في فرضهم لمبادىء اصلاحهم لاساليب الشعر ، على معظم شعراء العصر امثال « درايــدن » Dryden و « بوب » Pope و « جونسن » Johnson وقد اعتبر « والتر » و « ديلهام » (من قبل بعض النقاد امثال درايدن وجونسن) بانهما من مؤسسي المدرسة الكلاسيكية وليس ذلك وحسب وانما كانا من اوائل الشعراء الانكليز للذين زاولا الاساليب الشعرية ـ الصحيحة ، وكان العنصران الرئيسيان لمثل هذه الاســاليب هي الرقــة Smoothness و « سهولة الادراك » ready intelligibility وهكذا نجد « درايدن » يصرح قائلا : ان رفعة وسمو الوزن الشعري Rhyme لم تعرفا على وجهها الاكمل حتى بدأ السيد والر بتعليمها ، وانه الرائد الـذي جعـل الكتابة بسهولة « الفن » وقد لقب الدكتور جونسن الشاعر « دينهام » بانه « احد آباء الشعر الانكليزي » ٠ مما لا شك ان هناك بعض المبالغة في هذا القول ٠ ولكن رأي جونسن ينطبق على عين الحقيقة عندما يقول عن والر « بانه مما لا شك فيه بانه قد تفوق الى حد بعيد في رقته على اكثر الكتاب الذين كانوا في قيد الحياة عندما بدأ ينظم الشعر » ، وقد كان لدى الشعراء الاليزابيثيين نوع من فن التقييم الذي أهمل أو نسي فيما بعد ٠

---

(٢) راجع كتاب « المذهب الكلاسيكي وأثره في الشعر الانكليزي » للكاتب ٠

ان سوء مظاهر التطرف في الادب هو رد الفعل الذي سيتلو ذلك حتما فاذا ابتعد الشعراء عن الطريق المألوف ليكتبوا من دون نظام وبغموض وخيال بالغ ، فهم وإن نجحوا في جعل شعر كهذا طرازا لعصرهم ، فان ذلك سيتبعه بالتأكيد ، كما يتبع النهار الليل ، رد فعل في الشعر يتجه به نحو النظامية ، والوضوح التام أو التشابيه المألوفة . وهكذا فاننا نجد الاندفاع الفطري الذي اتجه اليه الشعر في النصف الاول من القرن السابع عشر قد استبدل بشعر ذي حلة قشيبة ، اتجه اتجاها اكثر جدية .

وهكذا نجد رد الفعل الكلاسيكي يبدو للوجود عام ١٦٤٠ ، ونرى المدرسة الشعرية الجديدة تمتاز بخصائص وقيم مغايرة تماما لما كان سائدا في الشعر من قبل . ولما كان الاسلوب يعالج معالجة مسيبة ، اصبح الآن طبقا لهذه المدرسة مثاليا رخيما . وامسى اسلوب « الكوبليت » المغلق بصورة خاصة تقليدا سائدا .

ولما كان الخيال هو العنصر السائد ، فقد أصبح العقل جوهر الامر الآن ، وامسى الخيال مبعث الشك والريبة ولما اطلق العنان للعاطفة ، فقد تحولوا الآن عن ذلك للتحدث عن الانسان والمجتمع ، لكي يولوهما نقدا ويعطيهما درسا متبعين بذلك الناحية الموضوعية ، فقد ولت أيام وصف المدن . ولما كان شعراء ما وراء الطبيعة وشعراء الفروسية مغرمون بالشعر الغنائي ، فقد اصبح الشعراء الكلاسيكيون مولعون بالشعر التحليلي الطويل النفس ، وبالشعر الهجائي ـ وليس يعني ذلك انهم قد اهملوا الشعر الغنائي اهمالا تاما وانما قد حدث تغييرا جوهريا عليه اذ اصبح أقل خصبا وغرابة كما هو ظاهر في مقطوعة « الأغنية » Ode الى « درايدن » Dryden أو في بعض اسطر « بريور » Prior الحقيقة المرحة .

(١٠) الحركة الرومنسية :

قد يملك انسان قسطا ضئيلا من الخيال أو الفكاهة humour اما ان يخلو انسان من اى منهما فذلك مجرد مبالغة وهكذا يجب أن نتجنب الاعتقاد بانه كون الشعراء الكلاسيكيين قد اعطوا الخيال والطبيعة مكانا ثانويا ، فانهم قد حرموا عنصر الخيال أو انهم لم يتأثروا بالطبيعة مطلقا . فمثلا ان بوب الذي هو من اشهر اتباع المدرسة الكلاسيكية في الشعر قد صرح مرة قائلا كلما تفحصت عقلي كلما وجدت نفسي اكثر رومنسية حتى ورد زورثWordsworth قد اعترف مرة قائلا بان المرور مرة أو اكثر في غابة وندسور windsor Forest يتضمن صورا جديدة للطبيعة ، ومع هذا فمما لا شك فيه ان بوب ومدرسته قد قضوا تقريبا بصورة كلية على مثل هذه المظاهر الرومنسية ، وعلى أى حال ، فهناك شعراء آخرون من

شعراء القرن الثامن عشر بالرغم من انهم كانوا الى حد بعيد منسجمين مع امزجة عصرهم الشعرية ، فانهم قد اطلقوا العنان الى رومنسيتهم • ففي عام ١٧٢٦ بدأ تومسون Thomson بنشر مجموعته الشعرية المسماة «الفصول» Seasons ، وقد تأثر تأثرا واضحا بالشاعر «ملتن» Milton ، ونظم باسلوب الشعر الحر Blank Verge وفوق ذلك كله فقد كتب عن الطبيعة كأنه أحد اولئك الذين تمتعوا برونقها بولع وشغف وبالرغم من ذلك فكان لا يزال منطبعا بطابع عصره ليمزج اوصافه عن الطبيعة بتلك الانواع من الخواطر والخلقيات التي ضمنها بوب في مقالته عن الانسان Essay on Man، وبالرغم انه قد انشق عن التيارات الشعرية فانه لم يبتعد كثيرا بحيث يصبح غريبا على قرائه ، وكان انتاجه محبوبا الى حد بعيد • وان بوب عدا كونه قد لعب دور الدكتاتور الغيور بميله للاتجاه الحديث فانه قد كتب بعض اسطر اشعار تضمنت نفس الفكرة التي طرقها تومسن Thomson وفي قصيدته حصن الكسل Castle of Indolence قد ابتعد تومسن اكثر بكثير من ابتعاد مدرسة بوب وأظهر فيها كثيرا من روح سبنسر •

وقد كان تومسن اعظم اولئك الشعراء الذين بدا في شعرهم تيارات رومنسية قوية ، التي ظهرت كطلائع لهذا النوع من الشعر في اوائل القرن الثامن عشر الذي كان يسوده الاتجاه الكلاسيكي وكان هناك عدة شعراء آخرون هم أقل شهرة ومكانة • وبينما كان شعر بوب التهكمي والتحليلي ، واسلوب « الدوبيت المغلق » يضعفان تأثيرا ، نجد تقليد شعر ملتن وسبنسر يزداد انتشارا •

ان صور « درايز » Dryer الوصفية المبهجة للريف كما ظهرت في مقطوعته « تلال كروجر » Grongar Hill ترينا فكره المرهف الحساس بروعة جمال الغاب والسواقي والتلال ، وتظهر لنا مدى تأثره بجمال وصف ملتن في منظومته L'Allegro • وفي حوالي منتصف القرن نفسه نشاهد الانشقاق عن مدرسة بوب قد عبر عنه بصراحة وجرأة • ونجد كلا من « كولنس » Collins و « كرى » Gray يحيي الشعر الغنائي الحقيقي ، ومن المؤكد انه قد مضت بضعة سنين قبل ان ينال « كولنس » الاهتمام اللازم ، وان « كراي » قد انغمس في اساليب شعرية متعالية Stilted Diction ولكن كلاهما كانا منشدا ملهما ، ولم يمض وقت طويل حتى حاز شعر هذين الشاعرين الاستحسان الذي يستحقه • ان الولع في الماضي البعيد الذي كان ميزة ظاهرة من ميزات الحركة الرومنسية قد بدت عند كل منهما ، فبدت عند كولنس في مقطوعته « اغنية عن الخرافات في المرتفعات » Ode on the Superstitions on the Highlands ، كما بدت عند «كراي» في منظومته « الشيخ الولزي » Old Welsh وقصائد الاسكندنافيين

Norre Poems قد شارك الشعراء الآخرون في هذا الولع الرومنسي . واستوحوا خوارهم الشعرية من الماضي كتقليدهم لشعر القرون الوسطى كشعر « جاتيرتون » Chatterlon ومجموعة برسي Percy الشعرية من القصائد الغنائية المسماة Reliques ولكن التاثير الكلاسيكي لم يختف مرة واحدة ، فكان الدكتور جونسن Dr. Johnson بمتانة اسلوب نقده وقوة محاورته لم يزل يمسك بالقلعة الكلاسيكية ، ولم يزل كـولد سمث Goldsmith يزاول اسلوب « الدوبيت » المغلق ، بالرغم من انه كان ينظم بأكثر رقة موسيقية وعذوبة من اولئك الشعراء الهجائيين الذين زاولوا نفس الاسلوب • وعلى أي حال ، فقبل ان يغادر جونسن وكولد سميث هذا العالم، كان عصر الكلاسيكية قد ادركه الزوال •

لقد شاهد العقد الثامن من القرن الثامن عشر ظهور قادة الشعر للعصر الرومنسي الذي تجلى باوضح صوره على يديهم وفي ذلك العهد نجد كل من «كراب » Crabbe و « كوبر » Cowper اقربهم الى مدرسة « بوب » وقد كان هجاءا واقعيا ومولعا بمزاولة اسلوب النوبيت البطولي ، وكان كثير التشابه مع بوب بحيث جاء الكثير من اشعاره مماثلة ، ولكن اختلف كراب عن الاول بتوجيه اهتمامه الى الفقراء ، بينما لم يلقوا من « بوب » اهتماما يذكر • وان صور كراب للطبيعة بالرغم من سطحيتها ، فانها تكشف عن روح جديدة • ونجد شعر « كوبر » أكثر رومنسية وهو يظهر عن احاسيس شخصية عميقة وحب الى الحرية ، وشعور أخوي نحو الانسان ، ورأفة بالحيوان واعجاب شديد بالطبيعة والذي مهد لوردز ورث Wordsworth أن يستوحي خواطره عن الحياة الروحية الجديدة •

(١١) « شعر العصر الفكتوري » :

لقد استمرت فترة الحركة الرومنتيكية حوالي الثلاثين عاما ، فقد بدأت سنة ١٧٨٩ ولكن علائم اختفائها بدت ظاهرة للعيان عام ١٨٢٤ حينما غادر « بايرن » و « شلي » و « كيتس » هذا العالم ، كما هجر « سكوت » و «كوليردج» الشعر • اما « ورد زورث » ، فقد خلف وراءه افضل نتاجه الشعري •

لقد جاء دور « كيتس » الذي امسك بزمام الشعر بصورة لا تقل نبلا ومتانة ممن سبقه من الشعراء الرومنتيكيين ، وهكذا فقد تلى « تنسن » العهد الرومنتيكي • كما تلى ملتن العصر « الاليزبيثي » ، اي ان كلا منهما كان بداية عصر جديد • لقد حافظ « تنسن » على التنوع والخيال الذين عرف بهما العهد الرومنسي ، ولكنه اضاف الى ذلك كله النظامية والانسجام اللذين كانا من طابع الشعر الكلاسيكي • وقد يبدو هذا الشاعر في بعض الحالات «تقليديا» وبصورة خاصة عند مقارنته «بشلي» ، وهو في الواقع

هكذا في الافكار ممثلا ابرز اسلوب التفكير الفكتوري ، اذ تنقصه نوعما الاصالة وعمق الفكرة ، غير انه في مزاولة فن الشعر يضاهي « ملتـــن » و « بوب » اذ يعتبر من اعاظم الشعراء الانكليز ، فهو « سيد اللغة » ذلك اللقب الذي كان يطلقه هو نفسه على الشاعر « فرجل » .

ويأتي بعد « تنسن » ـ من شعراء العهد الفكتوري العظماء ـ « براونتج » Browning و « ماثيو آرنولد » Mathew Arnold و «دانتي جبريل» روزيتي Danti Gabrial Rossetti و « كرستينا روزيتي » Chistina Rossetti و « سوينبرن » Swinburne و « فرانس تومبسون » Francis Thompson

ان تفاؤل براوننج السليم قد لاقى صدى من فلسفة « تنسن » القلقة ، لدى الكثيرين ، ولكن براوننج بغرابته وغموضه السائدين يبدو اقل منزلة من « تنسن » كشاعر فنان .

ويظهر « ماثيوارنولد » اكثر تقربا من « تنسن » ويمتاز بالطـــابع الحزين في اكثر اشعاره وبميزة الانسجام الملحوظ في نظمه .

اما دانتي روزيتي فقد كان احد القادة لحركة Pre-Raphaelite في الفن والشعر ، والتي ظهرت عام ١٨٤٨ مستهدفة تناول الشعر السهل والاسلوب التصويري الفني بالالوان والجمال الحي ذي الانغام العذبة . وكان سويتبرن يمتاز بقدرته الرائعة على نظم الشعر الرفيع ومزاولة الاوزان المنسجمة المتنقلة ، وهو يختلف عن الشعراء الفكتوريين الآخرين كونـه ابدى تقديسا للعاطفة اكثر عمقا ، وقد ابتعد كل الابتعاد عن طابع شعر العهد الفكتوري ، واختلف عن معظم شعرائه امثال « تنسن » . وكان سويتبرن في عواطفه ثائرا ، متمردا ، اشبه بشلي .

ولقد امتاز الشعراء الفكتوريون جميعهم بالقدرة الكبيرة على نظم الشعر الغنائي الرائع .

(١٢) الشعر الحديث :

يبدو أن هناك فجوة كبيرة بين الشعر الفكتوري وبين ما ندعوه اليوم بالشعر الحديث . ومهما يكن من أمر ، فان التغير في حقل الادب قلما يكون فجائيا ، بالرغم من ان التغيير صفة بارزة من صفات الادب ، فلم تكن الروح الانسانية قط جامدة ، والادب يعكس هذه الروح انعكاسا واضحا بل هي جوهرة ، فالشعراء بصورة خاصة حساسون لكل تغيير وغالبا ما يضمنون في شعرهم اجواء وقيم العصور الشعرية التالية لعصورهم : وعلى سبيل المثال نجد بعض قصائد مربديث Meredith كقصيدته المعقدة والمسماة « غابات ويسترمين » Woods of Westermian واشعار هاردي Hardy التي عرفت بتفاوتها وعمقها ، وكل هذه المجموعة تحتوي بلا شـــك على خصائص الشعر الحديث اكثر مما تحتوي على خصائص الشعر الفكتوري

ونجد شعر براونتج التمثيلي الحواري يقدم لنا اناسا يتكلمون بلهجة طبيعية ، وهو يقع باتجاهه بين العقل والعاطفة متلمسا طريقه بين خيوط الظروف والحوادث اشبه بالشعر الحديث ، ونجد قصيدة اليوت T.S. Elliot المسماة « الفريد بروفروك » Alfred Prufrock تقترب من قصيدة براونتج المسماة « القسيس بلوكرام » Bishop Blougram اكثر مما تقترب الاخيرة من معظم الشعر الفكتوري .

وعندما نرجع بذاكرتنا الى الوراء نجد في امريكا « ادكار آلن بو » Edgar Allan Poe مصدرا كبيرا للاستيحاء الى الدوافع الرمزية Symbolism والتي يعد التزامها ومزاولتها من قبل الشعراء الفرنسيين امثال « مالارمي » Mallarme عاملا مساعدا على ظهور القسم الرئيسي من اسلوب الشعر الحديث .

وقد بدأت محاولة الابتعاد عن القيم الفكتورية في الشعر منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وفوق ذلك كله فقد كان هناك رد فعل ضد « تنسن » . فقد أصبح الكثير ينظر اليه كونه ضحلا يعوزه عمق التفكير ، خنوع وبراق ، وقد نظم الشعر من أجل اتباع البيورتانية المتدهورين الذين يكونون الطبقة المتوسطة ، والذين كان همهم جمع المال وفرض نفوذهم ، وهكذا نجد في حوالي الفترة التسعينية من القرن التاسع عشر حركة شعرية جديدة . كان الشعراء مغرمون بالحس الجمالي ، ولكنهم كانوا سطحيين بالرغم من انهم كانوا يظهرون ملكة فنية بارزة . وهم كثيرا ما يعبرون عن حسرتهم وخيبة آمالهم في السرعة التي يمضي بها سحر الخمرة والنساء .

زاول هؤلاء الشعراء اسلوبا موجعا حسيا وكان نتيجة منطقية لاتجاه « دانتي روزيتي » الجمالي Aestheticism ولاتجاه « سوينبرن » الموسيقي الحسي ، يضاف الى ذلك تأثير نظرية « باتر » Pater في الجمال ونظرية « بودلير Baudelaire » و « فيرلين Verlaine » لقد ابتعد شعراء هذه الفترة التسعينية قليلا عن الشعر المهذب كذلك الذي نظمه « داوسن Dawson » كما نظمه « يتس Yeats » في أوائل شعره عن الاساطير الايرلندية والحوارى ، الذي امتاز بالجمال الحزين .

وفي خلال الفترة التسعينية هذه كان كل من « ميريدث Meredith و « هاردى Hardy » لم يزل يزاول الشعر . وكان هناك الشعر الديني الذي كان ينظمه كل من فرنسس تومبسون Francis Tompson » وآلس مينيل Alice Meynell » و « اى . ئي . هاوزمن A.E. Hausemann

وقد بدا مثل هذا الشعر واضحا في قصيدة الشاعر الاخير المسماة « صبي شروبشاير Shropshire Lad » التي نظمها عام ١٨٩٤ .

ومع ذلك كله يبدو انه من غير الممكن عمليا تصنيف الشعر تصنيفا

دقيقا أو وضع حدود له حسب مختلف العصور الزمنية ، ومن دلائل ذلك اتجاه « كبلنج Kipling » نفسه . فمثلا قصيدته المعنونة « الاناشيد الادارية Departmental Ditties » لم تبدل دلالة قطعية على زوال الشعر الريفي من اجواء « الصالونات » الادبية وقد استمر هذا الشاعر يغرد بحلاوة ومتانة أسلوب ، معبرا بجرأة وروعة وبنكتة لاذعة عن حياة كان فخورا بان يشاركها مع الفرد الاعتيادي .

وفي السنين الاوائل من القرن الحالي بدأ « مانسفيلد Mansefield » كذلك ينظم للجمهور أغانيه البحرية وقصصه الواقعية محافظا للشعر حيويته وجدته وروعته .

وظهر في الاعوام التي سبقت الحرب العالمية الاولى شعراء عديدون كان منهم Binyon و « لاسيليس ابركومبي Lascelles Abercombie » و « نويس Noyes » و « جسترتن Chesterton » و « كوردن بوتملي Gordon Buttomley » و « دي لامير De La Mare » وغيرهم .

ومن ثم ظهرت عام ١٩١٢ أول مجموعة شعرية جورجية(٣) كما ظهرت مجموعات أخرى في نفس العهد الملكي بلغت الخامسة حتى عام ١٩٢٢ . وقد نشرت هذه المجموعات وأصبح يعتقد بان الشعر قد بدأ يطبع بطابع قوة وجمال جديدين . وكان هناك شعراء بارزون قادوا هذه النهضة الشعرية الجديدة منهم « روبرت بروك Rupert Brooke » الذي كان شاعرا بارزا في البداية ، كما قاد في النهاية الشاعر « سكواير J.C. Squire » هذه الجماعة من الشعراء التي كانت تحس بشعور ذاتي قوي ، والتي كانت تميل الى العودة بالشعراء الانكليز الى البساطة والروح الطبيعية . لقد كانوا قادرين على الغناء الشعري باجادة فائقة ولكنهم قلما كانوا يعنون بالفكرة ، وقلما كانوا يشعرون بوجود العالم الصناعي الذي حولهم . وكان من جماعة هؤلاء كذلك « ديفيز H.W. Davies » و « دي لامير De La Mare » وهما شاعران ممتازان بروح المرح والبهجة . ومنهم كذلك الشاعر القدير « فليكر Flecker » و « درنكوتر Drinkwater » وشانكس Shanks و « فريمان Freeman » ، اولئك الشعراء المرحون .

وفي حوالي عام ١٩١٢ نجد هناك كذلك الشعراء التصويريين Imaginists امثال « بوند E. Pond » في امريكا و « هولم T.E. Hulme » في انكلترة وقد حاول هؤلاء الشعراء ان ينقوا الرومنسية التقليدية من الشوائب التي احتوتها وذلك بادخال التعبير المباشر البعيد عن اللف والدوران ويتضمن الصور والقوافي الجديدة .

---

(٣) نسبة الى عهد الملك جورج .

ومن ثم نجد الشعر الحديث يبدأ بداية حقيقية عام ١٩١٧ بظهور مجموعة الشاعر العملاق تي· اس· اليوت المسماة Prufrock وبشعر تهكمي فطن وعقلي عميق عرض هذا الشاعر الانهيار الذي أصاب الحضارة · وقد هاجم الابهة والفخفخة في قصيدته « الارض القفراء The Waste Land التي الفها عام ١٩٢٢ ، وقد تجمعت في اليوت تأثيرات شعرية شتى كالرمزية الفرنسية والتصويرية واتباع ما وراء الطبيعة و « الذاتية » فلذلك كله وتأثيرات أخرى مجتمعة كونت من اليوت شاعرا له اتجاه شعري حيوي حركي جديد بطابعه وقد أخذ شعره ينمو بتركيبه نموا مطردا وتبدو هذه الظاهرة خلال كل ما نظمه « إبتداء من اربعاء الرماد Ash Wednesday » حتى قصيدته « كدنج الصغير Little Gidding » التي نظمها عام ١٩٤٢ · وقد عاصر اليوت في الفترة العشرينية من هذا القرن الشاعرة اديث سيتوْيل Edith Sitwell التي كانت تمر بتجربة شعرية باهرة وكانت ناقدة بارعة أيضا ومدافعة عن الفن ومكافحة في الوقت نفسه ضد الرجعية الفكرية · وهي غريبة الاطوار غير انها تشعر بذلك وتعتز به فمارست الغرابة كطريقة حياة وبوصفها (حقا طبيعيا من حقوق الامة البريطانية) كما ذكرت هي نفسها في كتابها « الانكليز الغريبو الاطوار » ·

وقد ظهرت مجموعة جديدة من الشعراء حوالي عام (١٩٣٠) كان منهم اودن Auden و « مكنيس Macneice » و « دي لويس Day Yewis » و « ستيفن سبندر Stephen Spender » ، وقد استوحوا الهامهم من اليوت · وظهر كذلك مانلي هوبكنز Manly Hopkins و « ألفريد اوين Alfred Owen » ولكنهم حاولوا معالجة المشاكل الشعرية بالاستعانة بفرويد وماركس عوضا عما كانت تعالج من قبل بكاثوليكية اليوت كما هو الحال في منظومته « الارض القفراء » وقد سار بركاب هؤلاء شعراء محدثون كثيرون غير انه نجد الشاعر يتس Yeats عام ١٩٣٩ يتقدم الى المرحلة القصوى في احتلال مكانة الشاعر الاول في الشعر الانكليزي لهذا القرن ·

مصادر البحث

BIBLOGRAPHY

آ ـ المصادر الاجنبية

(A) English References

1. Albert, Edward, "A History of English Literature" (George G. Harrap and Co. Ltd., London 1944)
2. Collins, A.S. "Treasury of English Verse; New and Old", University Tutorial Press Ltd., London, 1946).

3. Legouis, Emile, "A Short History o fEnglish Literature", translated into English by Byron, V. E., and Coulgson, J. (The Clarendon Press, Oxford, 1945).
4. Francis, H.J., "A Course of English Literature" Cambridge University Press, Cambridge 1942.
5. Rhys, Ernest and Dent, J., "The Golden Treasury of Longer Poems", (J.M. Dent and Sons Ltd., London 1947).
7. Sampson. George, "The Concise Cambridge History of English tional Poems", Oxford University Press, Oxford, 1944.
7. Sampson, George, "The Concise Cahbridge History of English Literature", Cambridge University Press, Cambridge 1944.
8. Entwistle, William, J. and Gilbert, Eric. "The Literature of England" A.D. 500-1942. Longmans, Green and Co., London 1944.

ب ـ المصادر العربية

١ ـ احمد امين وزكي نجيب « قصة الادب في العالم »
الجزء الثاني ، القسم الثاني ، مطبعة لجنة تأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٤٥

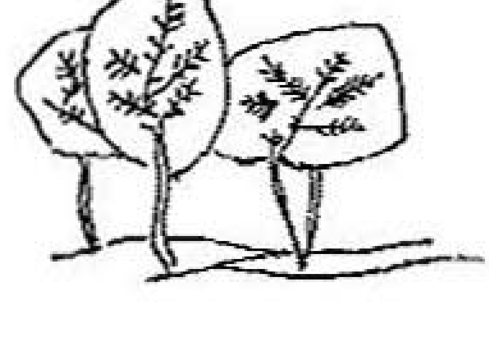
٢ ـ آبركرومبي ، لاسل (ترجمة محمد عوض محمد) « قواعد النقد الادبي »
مطبعة لجنة التأليف والنشر ، سلسلة المعارف العامة ، القاهرة ١٩٤٤

٣ ـ الدكتور صالح مهدي شريدة « المذهب الكلاسيكي واثره في الشعر الانكليزي »
مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٥٢

٤ ـ الدكتور ع. محفوظ « الشريف الرضي » مطبعة الريحاني ، بيروت (منشورات بيروت ١٩٤٤)

٥ ـ الدكتور صفاء خلوصي « دراسات في الادب المقارن والمذاهب الادبية »
مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٥٨

٦ ـ جميل سعيد : « اتجاهات الادب الانكليزي : في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » مطبعة دار المعارف بمصر ـ القاهرة ، ١٩٤٩



ابن هُبل البغدادي[1]

الطبيب الذي يسر الطب ودرس الأدب وروى الحديث

ناجي محفوظ

ينال المرء العجب اذا ما سمع ان رجلا قبل مدة تزيد على ثمانية قرون ، أخذ على نفسه ان ييسر دراسة علم من أدق العلوم وأخطرها ، وهو علم الطب . ذلكم الرجل طبيب بغدادي عرف بابن هبل(١) .

كان ابن هبل على درجة كبيرة من الذكاء حتى اعتبر من اذكياء العالم(٢) . وقد قرأ علم الطب فأصاب منه - بما اوتي من ذكاء وفطنة - مبلغاً عظيماً ، فعد أعلم اهل زمانه في الطب(٣) . وكان مثال العالم الحق ، فلم يبخل بعلمه على أحد ، وقد أقرأ الناس الطب حيثما اقام(٤) . ولما أتخذ الطب مهنة عاهد الله على ان « يتوفر على من يستطيع ان يفي بواجب تدبيره من المرضى ، وأن يمشي الى ضعفائهم ، ولا يتكبر على فقرائهم ، ولا يستنكف عن مداواة من أنهكته الاعلال ، وكثرت به الجراحات والمواد استقذارا له وأنفة منه ، ... وان يستعين بما يصل اليه من الاغنياء على مداواة الضعفاء الذين تتعذر عليهم الادوية ... وان يحفظ ما يطلع عليه من أسرار المرضى ... » الى آخره من عهود ومواثيق(٥) .

والى جانب ذلك ، وقد تمكن - هو - من العلم ، وحصل ما حصل عليه من صناعة الطب ، فانه نظر الى كتب الطب التي كانت تتدارس - في زمنه - فوجدها نوعين : الكتب المحدثة ، وهي كبيرة وتحتاج الى سنين كثيرة لدراستها ، أما الكتب القديمة ، فهي وأن لم تكن كذلك ، ولكن ربما كان فيها ما يتعذر فهمه على الدارسين(٦) . هذا وقد استخدم مؤلفو تلك الكتب الأوزان اليونانيـة ، وذكروا الادوية بأسماء قد لا تكون معروفة الا لاهل العلم خاصة . فجمع هو كتاباً مختصراً سماه « المختار في الطب »(٧) - كشف فيه : ما يتعذر فهمه على المشتغلين بالكتب القديمة - لئلا يطول بهم المسلك في الكتب المحدثة الكبيرة ، ذكر فيه الأدوية المعروفة المشهورة النفع باساميها الشائعة فيما بين الخلق ، ... مما تعلمه من استاذه او عرفه بنفسه بالتجربة والاختبار . وعدل عن ذكر ما يتعذر وجوده من الادوية ، واشار اليه باختصار ؛ وكذلك عما ذكرته كتب الطب

ولم تؤيد نفعه التجارب[٨] . واستعمل فيه الأوزان المشهورة في اللسان العربي ، المعروفة بين الناس[٩] ، اما غيره من الاطباء فقد يستعملون الاوزان اليونانية في عملهم ويذكرونها في كتبهم . ولذلك فقد خصص في كتابه فصلا : (لبيان الاوزان اليونانية وما يعادلها من الاوزان المعروفة بين الناس ،ليعرف ما في تلك الكتب من أوزان ، ولئلا تعسر الأفادة منها على من يراجعها)[١٠] .

فلم يعد ـ بهذا ـ كتاب ابن هبل كتاباً لتيسير دراسة علم ، بل وكان خطوة نحو التعريب ايضاً . ولهذا فله أهمية خاصة اليوم ، حيث انه يزودنا بالمصطلحات الطبية وأسماء الأدوية العربية ، ويمدنا بالأوزان اليونانية وما يقابلها من العربية في القرن السادس الهجري .

ويبدو واضحاً جلياً ، في هذا الكتاب ، مدى علم ابن هبل واجتهاده ، فهو يختار ويناقش عندما ينقل آراء غيره ، فينفي هذا ويثبت ذاك[١١] . ولم يتبع المنهج التقليدي في التاليف والتبويب ، فمثلا : (كانت عادة الاطباء جارية بان يذكروا الادوية المركبة المستعملة في علاجات الطب في آخر تصانيفهم ، أما هو فقد رأى ان يجمع بين ترتيب الدواء المفرد والمركب فيسهل على المعالج تذكره ، ويكون الدواء الموصوف عنده معروفاً ، اذ لو استغنى الناس في المعالجة بالأدوية المفردة لما فزعوا الى المركبة)[١٢] .

وقد ألف ابن هبل كتاب المختار في الطب سنة (٥٦٠هـ/١١٦٥م)[١٣] في الموصل ، وعمره آنذاك ٤٥ عاماً .

ولعلك ـ الآن ـ ترغب في ان تتعرف أكثر بهذا الرجل النبيل ، وتقف على المزيد عن حياته الحافلة :

لقد ولد علي بن أحمد بن علي بن عبدالمنعم بن هبل[١٤] ببغداد في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة (٥١٥هـ/١١٢٢م) في درب ثمل من محلة باب الأزج[١٥] ـ المحلة التي أنجبت الكثير من رجال العلم[١٦] ـ وقد نشأ وترعرع في بغداد[١٧] ، وكان موصوفاً بالذكاء[١٨] . فابتدأ ـ وهو صبي ـ بالقرآن فحفظه وأتقنه[١٩] ، ثم أخذ بدراسة العلوم : فاجتمع ـ في أول أمره ـ بعبدالله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن الخشاب النحوي وقرأ عليه شيئاً من النحو[٢٠] ، وتردد الى المدرسة النظامية ـ أم المدارس يومذاك ـ فقرأ الفقه[٢١] . وقرأ الادب على الشريف ابى السعادات هبةالله ابن الشجري[٢٢] . واشتغل بالحديث بعد ذلك ، فسمع وروى عن مشايخ وقته[٢٣] : كأبي القاسم اسماعيل بن أحمد بن عمر بن الاشعث السمرقندي[٢٤] ، ومحمد بن أحمد العاقولي[٢٥] . ولو سمع الحديث من صغره لكان أسند أهل زمانه[٢٦] . وهؤلاء اساتذته هم أساطين العلوم والادب في وقتهم .

ولكن ابن هبل كان طموحاً ، فلم يكتف بهذه العلوم ، وهذا القدر من المعرفة ، فاتجه الى تحصيل علم آخر ـ من أشرف العلوم[٢٧] ـ وهو

علم الطب ، فدرسه على أوحد الزمان ابي البركات هبةالله بن علي ملكا البلدي(٢٩) ، وبرع فيه(٣٠) ، واتخذ الطب صناعة – وكانت من أنفس الصنائع(٣١) – ففاق بها أكثر أهل عصره من الاطباء(٣٢) ، وعدوه أوحد وقته وعلامة زمانه في صناعة الطب والعلوم الحكمية(٣٣) .

ترك ابن هبل بغداد ، فقد غادرها الى الموصل(٣٤) ، وكان – بعد مقتل صاحبها عمادالدين زنكي بن آق سنقر سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م(٣٥) – قد اشتهر فيها الوزير جمالالدين أبو جعفر محمد ابن علي بن ابي منصور الاصفهاني ، فقد كان كثير المعروف دائم الصدقات ... وكانت صدقته تصل كل سنة الى أهل بغداد ، فيعم بها الفقهاء والزهاد والمتصوفة ، ولا يخيب من يقصده بحال(٣٦) ... فلم يزل – هذا الوزير – يعطي ويبذل الاموال ويبالغ في الانفاق ، حتى عرف بالجواد ، وصار ذلك كالعلم عليه ، حتى لا يقال له الا : « جمالالدين الجواد »(٣٧) ، فصنف له ابن هبل « كتاب الطب الجمالي »(٣٨) ، وربما قصده به من بغداد فاقام هناك .. وفي الموصل ألف كتابه المختار في الطب سنة (٥٦٠هـ/١١٦٥م) كما تقدم .

ولكنه لم يلبث ان غادر الموصل – أيضاً – الى خلاط(٣٩) قصبة ارمينية الوسطى(٤٠) ، وسلطانها – وقتذاك – شاه ارمن سكمان بن ظهيرالدين ابراهيم بن سكمان القطبي(٤١) ، فقرأ عليه الناس هناك الحكمة والأدب(٤٢) ، وصار طبيب السلطان(٤٣) فنال الحظوة وارتفع مقداره ، وأثرى ثراء فاحشا(٤٤) ، حتى قيل انه ارسل الى مجاهدالدين قيماز الزيني – في الموصل – نحو مائة وثلاثين ألف دينار وديعة عنده(٤٥) .

ولم ينس ابن هبل – مع ما كان عليه من المكانة والثراء – وطنه العراق(٤٦) ، وقد هاج به حنينه الى بلده ، وتذكر أيام أنسه ، وليالي الصراة(٤٧) الطيبة التي كان يطير لها شوقا هو وصحبه ، فاخذ يبوح بما يعاني من الم البعد ، ولم يعد يستطيع كتمانه :

أيا اثلاث بالعراق ألفتها ... عليك سلام لا يزال يفوح
لقد كنت جلداً ثاوياً بفنائها ... فقد عاد مكتوم الفؤاد يبوح
فما أحسن الايام في ظل أنسها ... قبيل طلوع الشمس حين تلوح
وقد غرد القمري في غسق الدجا ... وراح حمام في الاصول ينوح
ذكرت ليال بالصراة وطيبها ... نطير لها شوقاً ونحن جموح(٤٨)

وقد فارق خلاط قبل وفاة سلطانها ذاك – وكانت وفاته سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م(٤٩) – وروى في سبب خروجه منها انه حدثت له حادثة خشي عاقبتها :

فقد كان يعالج السلطان شاه أرمن في بعض أمراضه ، فسأله – يوما – بعض الطشتدارية(٥٠) ، وقد نظر الى قارورة السلطان : « يا حكيم لم لا تذوقها ؟ » . فسكت عنه ، فلما انفصل عن المجلس ، قال له في خلوة :

« قولك – هذا اليوم – عن أصل من قول غيرك أو هو شيء خطر لك ؟
فقال : « انما خطر لي ، لانني سمعت ان ذوق القارورة من شروط اختبارها
فقال له : « الأمر كذلك ؛ ولكن لا في كل الأمراض . وقد أسأت الي بهذا القول ، لان الملك اذا سمع هذا ظن انني قد أخللت بشرط واجب من شروط خدمته وقوانين الصناعة فيها !! » .

ثم انه عمل على الخروج خوفاً من عاقبة هذه الحركة ، بعد أن رشا الطشتدار حتى لا يعود الى مثل ذلك[51] . فكأن ابن أصبل أدرك من هذا ان شراً يراد به وان هناك من يكيد له .

وعلى كل حال ، فقد خرج من خلاط – قبل سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م – بعد أن بعث جملة ماله الى الموصل ، وكان نحو مائة وثلاثين ألف دينار[52]، وقيل ستة وثلاثون الف دينار[53] ، فاقام في ماردين عند بدرالدين لؤلؤ ونظام‌الدين البقش[54] ، وظل هناك الى أن قتلهما ناصرالدين بن أرتق – صاحب ماردين – سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م[55] ، فتوجه الى الموصل واستوطنها[56] .

وكان ابن هبل قد عمي – في ماردين قبل عودته الى الموصل – بماء نزل في عينيه عن ضربة ، وعمره – آنذاك – ٧٥ عاماً[57] اي في سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م ، فزاد ذلك في توجعه وآلامه واحساسه بمرارة الغربة ووحشة الفراق ؛ وكلما تقدمت به السن ازداد حنينه الى وطنه ، ولم يفتأ يذكر العراق أسفاً على فراقه ندماً على البعد عن أحبته ، متمنياً لو أنه مات بعد فراقهم . وظل يحز في نفسه ويأسف على ما خلف في العراق : من أندية العلم ومرابع العلماء ، حيث العزة والمنعة التي استبدل بها المال . وهيهات للمال ان يشبع نهم العالم للعلم ، وبقي يلوم نفسه على انه لم يحسب للاقدار حسابها ، ولم ينظر الى الامور بعقل رصين ، فكان جزاؤه العمى والتشويه :

أيا دوحة هام الفؤاد بذكرها ... عليك سلام الله يا دوحة الانس
رمتني النوى بابعد منك وقربها ... وقد كنت جاراً لاصقاً لك بالامس
فيا ليت أني بعد بعد أحبتي ... نقلت كريماً راضي النفس بالرمس
والا فليت الدهر يمكن منهم ... بقبضي حبال الوصل بالانمل الخمس
اذا جال طرفي في العراق وجوه ... كأني نظرت الأفق من مطلع الشمس
تبدل تقليبي اليراع مع القنا ... بتقليب مطبوع يلقب بالفلس
واعتضت ثوباً كان للمجد شاملا ... بثوب رجال كان أشبه بالحلس
فمن لا يرى سوء القضاء وقدره ... بعقل رصين لا يقابس بالملس
يعش تائهاً في الخلق أعمى مشوهاً ... بعيد المرامي اليق الخلق بالنكس[58]

وقد عمر ابن هبل حتى كبر وعجز عن الحركة ، فلزم منزله بسكة ابي نجيح – في الموصل – قبل وفاته بسنين[59] ؛ ومع ذلك فلم ينقطع عن

الافادة والتدريس ، فكان يجلس على سرير(٦٠) وكان الناس يترددون اليه ويقرؤون عليه الحديث والأدب والطب(٦١) ، وكان هذا شأنه حتى وافاه أجله • فكان له جماعة تلاميذه(٦٢) ، وقد روى عنه كثيرون ، منهم :

ابن السنجاري(٦٣) ، وزين الدين المقدسي(٦٤) ، والزكي البرزالي ، وابن خليل ، والنجيب عبداللطيف(٦٥) ، والشحامي الموصلي(٦٦) • وأجاز الآخرين : كزكي الدين المنذري(٦٧) ، وابن الدبيثي(٦٨) ، والفخر علي بن البخاري(٦٩) •

كان ابن هبل فاضلا(٧٠) ، حسن الاخلاق ، كثير الصدقة(٧١) ، متميزاً بالادب ، له شعر حسن ، والفاظ بليغة(٧٥) وقد توفى ليلة الاربعاء ثالث عشر المحرم سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م)(٧٣) وهو في الخامسة والتسعين – فدفن بباب الميدان ظاهر مدينة الموصل بمقبرة المعافى بن عمران بالقرب من القرطبي(٧٤) •

رحم الله ابن هبل – ورحم كل الخيرين – فلقد أفاد بعلمه وعمله ، ولم يفتر عن ذلك • وحرى ان يخلد ذكر مثل هذا الرجل •

---

(١) هبل : بفتح الهاء ، كما في : التكملة لوفيات النقلة لزكي الدين المنذري (مخطوطة في مكتبة البلدية بالاسكندرية برقم ١٩٨٣ د) ١:و٥٥ ، والمشتبه في الرجـال للـذهبي (مصر ١٩٦٢) ٢:٦٥١ ، ونكت الهميان للصفدي : ٢٠٥ • وقد ضبطت فيها بالعبارة •

ولكنها ضبطت بالقلم – بضم الهاء في : الصفحة الاولى من مخطوطة للجزء الاول من كتاب « المختار في الطب » لابن هبل نفسه • وهي نسخة كتبها لنفسه « محمد بن أحمد بن يحيى » ووقع فراغه منها ١٣ رمضان سنة ٦١٠هـ ، أي السنة التي توفى في اولها مؤلف الكتاب • وهي نسخة جيدة الخط صحيحة ضبطت بعض كلماتها ، وقد افدت منها في تقويم ما اقتبست من المطبوع • ويبدو لي ان كاتبها هذا موصلي ، وانها بقيت في الموصل زمنا طويلا ، وهي الان في معهد الدراسات الاسلامية العليا بجامعة بغداد •

وبضم الهاء – وبالقلم ايضا – في : دائرة المعارف الاسلامية (ترجمة محمد ثابت الفندي وجماعته) ١:٢٩٢ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٦:٢٠٩ وهي فيه من زيادات محققي الكتاب •

ويرجح عندي انها بالضم أيضا لما في المخطوطة . ولقول اللغويين : هبل (أي بالضم) « اسم رجل معدول عن هابل معرفة » • لسان العرب لابن منظور (مصر ١٣٠٢) ١٤:٢١٢ . وتاج العروس (ط١٣٠٦) ٨ : ١٦٣ ، ولكن لم يرد مثل ذلك بفتحها •

وقد جاءت محلاة بالالف واللام « ابن الهبل » في تاريخ الحكماء للقفطي (ليبسك ١٣٢) : ٢٣٨ ، (ومصر ١٣٢٦) : ١٥٩ وفي روضة العطر للشيرواني على ما نقله عنه حاجي خليفة في كشف الظنون ١:٩٢٨ •

وتصحفت « ابن هبل » الى « ابن مقبل » في : الكامل في التاريخ لابن الاثير ١٢:١١٦ ، والبداية والنهاية في التاريخ لابن كثير ١٣:٦٧ ، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ٢:١٣٠ •

(٢) تاريخ الاسلام للذهبي (مخطوطة في دارالكتب الوطنية بباريس برقم ١٥٨٢) : و١٨٠ •

(٣) الكامل ١٢:١١٦ ، والبداية والنهاية ١٣:٦٧ ، والدارس ٢:١٣٠ •

(٤) تاريخ الحكماء : ٩/٢٣٨ . انباه الرواة على انباه النحاة للقفطي ٢:٢٣١ ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري : ٤٢٠ • التكملة ١: و٥٥ ، عيون الانباء لابن أبي اصيبعة (بيروت ١٩٥٧) ٢ : ٣٣٥ . الاعلام للزركلي (ط٢) ٥ : ٦٢ •

(٥) كتاب المختارات في الطب لابن هبل (حيدر آباد الدكن ١٣٦٢ـ١٢٤ : ٤/٥ ، والمخطوطة : ٤/٥ ·

(٦) المختارات ١:٥ ، والمخطوطة : ٦ ·

(٧) في اربعة اجزاء . وهو كتاب جليل يشتمل على علم وعمل ـ كما وصفه القدماء ـ اي انه يشتمل على : العلوم الاساسية للطب (Basic sciensos of medicine) والطب السريري (Clinical medicine) · وإضافة الى ذلك فهو يشتمل على : علم مفردات الادوية (Pharmocology) ، والادوية المركبة ، والطب الوقائي (Preventive medicine) وغير ذلك ·

وقد قامت بطبعه دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن خلال السنوات ١٣٦٢ـ١٣٦٤هـ في أربعة أجزاء باسم « المختارات في الطب » · واسمه الصحيح هو : « المختار في الطب » كما في المخطوطة المكتوبة سنة ٦١٠هـ . ـ وحتى في المخطوطات الثلاث التي اعتمدتها دائرة المعارف العثمانية جاء اسمه المختار أيضا وليس المختارات (٢:٣٣٧ و ٤:٣١٨) ـ وهكذا ورد اسمه في عيون الانباء ٢:٣٣٦ ، ونكت الهميان : ٢٠٦ ، وذكرت مخطوطنا المكتبة الخديوية ـ في فهرستها (٦:٣٨) ـ باسم « مختار » · وسمي أيضا بـ « المختار » فقط في : تاريخ الحكماء : ٢٣٩ ، وانباه الرواة ٢:٢٣١ ، وتاريخ مختصر الدول : ٤٢٠ ، ومطالع البدور في منازل السرور للنزول ٢ : ٥ · ولكن الشيرواني سماه ـ على سبيل الايجاز والاختصار ـ « مختارات ابن الهبل » في كتابه روضة العطر . (كشف الظنون ١ : ٩٢٨) ·

(٨) المختارات ١:٥ ، والمخطوطة : ٦ ·

(٩) المختارات ١:٥ و ٢:٣٣٥ ، والمخطوطة : ٦ ·

(١٠) المختارات ٢:٣٣٥ ·

(١١) تجد ذلك في مواضع كثيرة منه ، وخاصة في الجزء الثاني في الكلام على الادوية ·

(١٢) المختارات ٢:٢٠٨ ·

(١٣) عيون الانباء ٢:٣٣٧ ·

(١٤) جاءت سلسلة أسماء آبائه هكذا في : التكملة ١:و٥٥ ، وتاريخ الاسلام : و١٨٠ ، منتخب المختار لابن رافع السلامي : ٢٣٠ ، والاعلام ٥:٦٢ · ولكن الكتب الاخرى اكتفت بذكر بعضهم ·

ويكنى ابن هبل بأبي الحسن في جميع المراجع ·

ويلقب بمهذب الدين ـ في اغلبها ـ وبالمهذب ـ في بعضها ـ وبشمس الاسلام ، والامام ـ في المخطوطة · ونسبته البغدادي ـ في : أكثرها . والموصلي ـ في : المشتبه والبداية والنهاية والدارس وكشف الظنون . والجسلاطي ـ في : التكملة وتاريخ الاسلام وعيون الانباء وهدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ومعجم المؤلفين لكحالة . والتبريزي ـ في : كشف الظنون وفهرست المكتبة العباسية في البصرة · وفهرست المكتبة الخديوية في القاهرة · ولقبه الصفدي في نكت الهميان بـ (البيع) ·

(١٥) عيون الانباء ٢:٣٣٤ ، وانباه الرواة ٢:٢٣١ ، وتاريخ ابن الدبيثي (مخطوطة في دار الكتب الوطنية بباريس برقم ٥٩٢٢) : و٢١٥ · وبدون ذكر اسم الدرب في : تاريخ الحكماء : ٢٣٩ · وفي بغداد مطلقا في : التكملة ١:و٥٥ ، وتاريخ الاسلام : و١٨٠ ، ودائرة المعارف الاسلامية ١:٢٩٢ ، ومعجم المؤلفين ٧:٢١ ، والاعلام ٥:٦٢ ·

(١٦) معجم البلدان لياقوت الحموي (مصر ١٩٠٦) ١:٢١٥ ، وفيه : « الأزج : بالتحريك والجيم ـ باب الأزج ، محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحال كبار في شرقي بغداد . فيها عدة محال كل واحدة منها تشبه أن تكون مدينة ·· ينسب اليها الأزجي ، والمنسوب اليها من أهل العلم وغيرهم كثير جدا » ·

(١٧) عيون الانباء ٢:٣٣٤ ، وتاريخ الحكماء : ٢٣٨ ، وانباه الرواة ٢:٢٣١ ، وتاريخ مختصر الدول : ٤٢٠ ، وتاريخ ابن الدبيثي : و٢١٥ ، ومعجم المؤلفين ٧:٢١ ·

(١٨) شذرات الذهب للعماد الحنبلي ٤٢:٥ ٠

(١٩) عيون الانباء ٣٣٤:٢ ٠

(٢٠) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ٠

(٢١) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢٩٢:١ ٠

(٢٢) نكت الهميان : ٢٠٥ ٠

(٢٣) تاريخ الحكماء : ٢٣٨ ، وانباه الرواة ٢٣١:٢ ٠

(٢٤) التكملة ١:و٥٥ ، وتاريخ ابن الدبيثي :و٢١٥ ، وتاريخ الاسلام : و١٨٠ ، ونكت الهميان : ٢٠٥ ، وانباه الرواة ٢٣١:٢ ، والمشتبه : ٥٣٩ ، وشذرات الذهب ٤٢:٥ ٠

(٢٥) نكت الهميان : ٢٠٥ ٠

(٢٦) تاريخ الاسلام : و١٨٠ ٠

(٢٧) المختارات ٣:١ ، والمخطوطة :٢٠ ٠ روى أبو حيان التوحيدي في كتابه البصائر والذخائر (٩٤:١ط مصر) ان« العلوم أربعة : الفقه للاديان ، والطب للابدان ، والنجوم للازمان ، والنحو للسان » ٠

(٢٩) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ، والمختارات ٥:١ ٠

(٣٠) التكملة ١:و٥٥ ، وتاريخ الاسلام : و١٨٠ ، ونكت الهميان : ٢٠٥ ٠

(٣١) المختارات ٣:١ ، والمخطوطة : ٢ ٠

(٣٢) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ٠

(٣٣) عيون الانباء ٣٣٤:٢ ، وعلى الصفحة الاولى من المخطوطة كتب : « تصنيف الشيخ الامام العالم الاوحد ٠٠٠ » وفي الكامل ١١٦:١٢ ، والبداية والنهاية ٦٧:١٣ ، والدارس ١٣٠:٢ « أعلم أهل زمانه بالطب » ٠

(٣٤) ذكرت ذلك أكثر المراجع ٠

(٣٥) وفيات الاعيان لابن خلكان (مصر ١٩٤٨) ٨٠:٢ ، وتاريخ أبي الفداء (القسطنطينية ١٢٨٦) ١٩:٣ ، وكان مقتله في ١٥ ربيع الآخر ٠

(٣٦) المنتظم لابن الجوزي (حيدرآباد الدكن ١٣٥٩هـ) ٢٠٩:١٠ ٠

(٣٧) وفيات الاعيان ٢٢٩:٤ ٠

(٣٨) عيون الانباء ٢٢٦:٢/٧ ، نكت الهميان : ٢٠٦ ٠

وذكر الاستاذ علي الخاقاني في فهرست « مخطوطات المكتبة العباسية في البصرة » (٨/٨٧:١ برقم ٢٩٨) وجود نسخة من « المختار في الطب الجمالي » (كذا) لابن هبل ٠ ولكن ما أثبته من مقدمة الكتاب وما عدده من أبواب الموجود منه يتفق مع كتاب المختار في الطب ، مما يرجح بأنها نسخة من المختار في الطب وليس الطب الجمالي ، على ان الامر يتطلب مقابلتها بالمطبوع للقطع ٠

وما جاء في كشف الظنون (١٦٢٢:٢ط ١٩٤٣) من زيادة لاسماعيل باشا البغدادي على الاصل الذي كتبه حاجي خليفة هو كتاب المختار في الطب كذلك وليس الطب الجمالي لما نقله من اول الكتاب ٠

(٣٩) عيون الانباء ٣٣٤:٢ ، والاعلام ٦٢:٥ ، وكذلك انباه الرواة ٢٣١:٢ ، وتاريخ الحكماء : ٢٣٨ ، وتاريخ مختصر الدول ٤٢٠ ، ومعجم المؤلفين ٢١:٧ وفيها انه « خرج الى اذربيجان واقام بخلاط » ، وفي نكت الهميان : ٢٠٥ « دخل الروم » ٠

(٤٠) معجم البلدان ٤٥٣:٣ (ط١) ، ومراصد الاطلاع : ١٥٥ (ط ايران ١٣١٠) ، وهي « مدينة كبيرة مشهورة ٠٠٠ ذات خيرات واسعة وثمرات يانعة ٠٠٠ وأهلها مسلمون ونصارى، وكلام اهلها العجمية والارمنية والتركية ٠٠٠ » اثار البلاد واخبار العباد للقزويني : ٥٢٤ ٠ « ٠٠٠ ولا تزال مدينة خلاط أو اخلاط قائمة ليومنا هذا في ولاية وان في الشمال الغربي من بحيرة وان على مقربة من مدينة ارجيش ٠٠٠ » قاموس الامكنة والبقاع لعلي بهجت : ١٠٥ ٠

(٤١) ملك شاه أرمن هذا خلاط سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م الى أن توفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م تاريخ أبي الفداء ٢٣٧:٢ و٧١:٣ ٠

(٤٢) انباه الرواة ٢٣١:٢ ، وتاريخ الحكماء : ٢٣٨ ، وفي تاريخ مختصر الدول : ٤٢٠ « ٠٠٠ وقرأ الناس عليه » ٠

(٤٣) نكت الهميان : ص٢٠٥ ، وانباه الرواة ٢٣١:٢ ، وتاريخ الحكماء : ٢٣٨ ، وتاريخ مختصر الدول : ٤٢٠ ، وعيون الانباء ٣٣٤:٢ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢٩٢:١ ٠

(٤٤) نكت الهميان : ٢٠٥ ، وتاريخ مختصر الدول : ٤٢٠ ، انباه الرواة ٢٣١:٢ ، تاريخ الحكماء : ٢٣٨ ، وعيون الانباء ٣٣٤:٢ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢٩٢:١ ٠ والاعلام ٥ : ٦٢ ٠

(٤٥) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ٠

(٤٦) حد العراق ـ يومذاك ـ « ما بين حديثة الموصل الى عبادان طولا ، وما بين عذيب القادسية الى حلوان عرضا ٠٠٠ » مراصد الاطلاع : ٢٧٥ ٠ وفي الموضوع تفصيل ليس هذا مكانه فليراجع في : معجم البلدان ٦/٣٣:٦ ، ومعجم ما استعجم ٩٢٩:٣ ونخبة الدهر ٦/١٨٣، والاحكام السلطانية للماوردي : ٧/١٦٦ والاحكام السلطانية للفراء : ٨/١٨٧ ، وتذكرة الفقهاء للعلامة الحلي ، بلدان الخلافة الشرقية (الترجمة) ١/٤٠ ٠

والمنطقة التي تقع بين نهري دجلة والفرات ، شمال العراق فهي جزيرة أقور ، أو الجزيرة مطلقا وتشتمل على ديار ربيعة ومضر وبكر ، معجم البلدان ٩٦:٣ ، ومراصد الاطلاع : ١١٤ ، ونخبة الدهر : ٢/١٩٠ ، ومعجم ما استعجم ٣٨٢:٢ ٠

والموصل كانت تعد من الجزيرة ٠

(٤٧) الصراة : « نهران ببغداد : الصراة الكبرى ، والصراة الصغرى ٠٠٠ » قال ياقوت « ولا أعرف أنا الا واحدة ، وهو : نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسيخ ٠٠٠ ويصب في دجلة ٠٠٠ » معجم البلدان ٣٤٧:٥ ، ومراصد الاطلاع : ٣٥١ ٠

(٤٨) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ، وفيها تصحيف وقد أثبت الصواب ٠

(٤٩) تاريخ ابي الفداء ٢٣٧:٢ ، ٧١:٣ ٠

(٥٠) الطشتدار : « اسم لمن يصب الماء على يد المخدوم » ٠ معيد النعم ومبيد النقم للسبكي : ١٣٩ ٠

(٥١) تاريخ الحكماء : ٩/٢٢٨ ، وتاريخ مختصر الدول : ٤٢٠ ٠

(٥٢) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ٠

(٥٣) نكت الهميان : ٢٠٥

(٥٤) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢٩٢:١ ، والاعلام ٦٢:٥ ٠

(٥٥) الكامل : ١٦٧ ، تاريخ أبي الفداء ٧٢:٣ ٠

(٥٦) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ، وكذلك سائر المصادر ٠

(٥٧) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢٩٢:١ ٠

(٥٨) عيون الانباء ٣٣٦:٢ ٠ وفيها تصحيف وقد اثبت الصواب ٠

(٥٩) تاريخ ابن الدبيثي : و٢١٥ ، وتاريخ الحكماء : ٢٣٩ ، وفي انباه الرواة ٢٣١:٢ ، وتاريخ مختصر الدول : ٤٢٠ ، والاعلام ٦٢:٥ (قبل وفاته بسنتين) ٠ وعيون الانباء ٣٣٥:٢ ، ونكت الهميان : ٢٠٥ ٠

(٦٠) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ٠

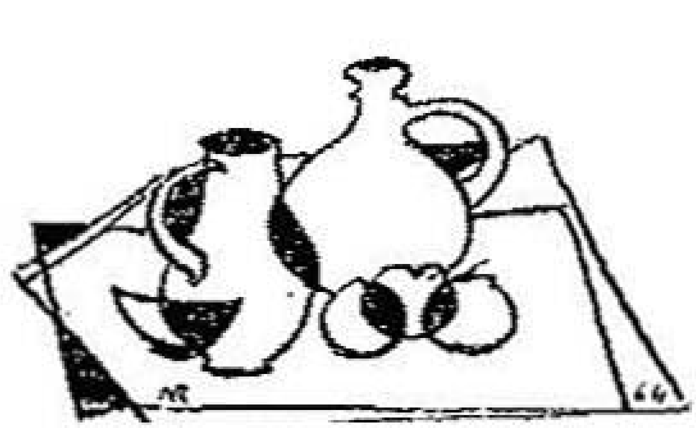
(٦١) تاريخ ابن الدبيثي : و٢١٥ ، التكملة ١:و٥٥ ، وعيون الانباء ٣٣٥:٢ ، وتاريخ الحكماء : ٢٣٨ ، وتاريخ مختصر الدول : ٤٢٠ ، ونكت الهميان : ٢٠٥ ٠

(٦٢) شذرات الذهب ٤٢:٥

(٦٣) عيون الانباء ٣٣٥:٢ ٠

(٦٤) منتخب المختار : ٢٩/ ٣٠ .
(٦٥) تاريخ الاسلام : و١٨٠ .
(٦٦) تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني : ٨/١٥٧ .
(٦٧) التكملة ١:و٥٥ . « كتب اليه اجازة من الموصل في جمادى الآخرة سنة ٥٩٦ . » .
(٦٨) تاريخ ابن الدبيثي : و٢١٥ « اجاز له من الموصل » .
(٦٩) تاريخ الاسلام : و١٨٠ .
(٧٠) تاريخ ابن الدبيثي : و٢١٥ .
(٧١) البداية والنهاية ٦٧:١٣ ، والدارس ١٣٠:٢ .
(٧٢) عيون الانباء ٢٣٤:٢ .
(٧٣) عيون الانباء ٢٣٥:٢ . وكذلك المراجع الاخرى ، الا أن ابن العبرى جعل وفاته في سنة ٦١٩هـ وهو خطأ .
(٧٤) عيون الانباء ٢٣٥:٢ ، تاريخ ابن الدبيثي : و٢١٥ ، التكملة ١:و٥٥ ، وانباه الرواة ٢٣١:٢ .

ملاحظة : ان ترجمة ابن هبل من تاريخ الاسلام ، وتاريخ ابن الدبيثي ، والتكملة للمنذري أثبتها الدكتور مصطفى جواد مشكورا في هامش تكملة اكمال الاكمال للصابوني (ص ٨/١٥٧) .



باقة أزهار

عبد الخالق العطار

الليل يمر وذكراك   أرق في قلب يهواك
يا واحة عمري ما رفت   قافيتي شوقاً لولاك
تحفو اشعاري وشوشة   ذابت في حسن محياك
شقراء تنزى من كلمي   ألم .. وحنين لمفاك
سهرت اعصابي مودعة   نبض الاحساس بنجواك
كانت أيامي خاوية   وشتها أملا عيناك
وحياتي كانت ذاوية   نهلت من فيأة أفلاك
يا فلقة بدر في عمري   سبحت أشعاري بضياك
النجم عيون ضاحكة   والأفق بحيرة نسماك
محراب الشعر مواويل   تتغنى فيك .. واياك

●

زمن .. وأعيش على أمل   يترقب طلة أقماري
أيام تمضي .. ما فتأت   تتلهف توقاً أشعاري
الجرح ينوء بتحنان   وغرامي حرك أوتاري
لا أشكو منك .. وهل يشكو حس من باقة أزهار ؟!.
أنا شاعر حب قافيتي   خضل من فجر سحار
أخلصت بحبك ما ضير   لو كان العلقم أثماري ؟!.

تنظيم الارشاد خطوة حكيمة لإنصاف طلابنا

الدكتور نعيم يوسف صرافة

كثير من المدرسين في مدارسنا يقومون بالتدريس فقط تاركين امر الاهتمام بالطلاب من النواحي الاخرى الى البيت والادارة كما ان كثيرا من المديرين والمفتشين لا يصرفون وقتا كافيا لدراسة طبيعة الطالب وظروفه والوقوف على اصل مشاكله ومعالجتها ، بل يعتبرون ان التعمق في دراسة حياة الطالب وارشاده يصرفهم عن واجباتهم الاخرى وقد يؤدي الى تعقيد المشكلة فيتركون هذه المسئولية الى البيت ، وقد فاتهم ان البيت العراقي عامة ليس في وضع يمكنه من القيام بدوره الكامل في توجيه اولاده ، وان ما يقوم به بهذا الصدد لا يتعدى الارشاد البسيط · ولاجل ان يكون الارشاد منظما فعالا ومؤديا الى اهدافه في تكوين المواطن الحق ، لابد ان يتعاون كل من المدرس والمدير والمفتش مع البيت في تنشئة الولد فيدرسونه بجميع فعالياته وظروفه ككل ويوجهونه توجيها ملائما لامكانياته ورغباته فيسدون بذلك خدمة كبيرة له وللوطن وللانسانية ·

١ ـ المدرسون كمرشدين :

هناك اتفاق تام بين المدرسين والمربين على ان وظيفة المدرس الحديث لا تقتصر على العمل في الصف ، بل تتعداها الى خارجه ، لا بل وحتى الى المحيط الخارجي ، فهو ملزم بملاحظة سلوك الطالب وتصرفاته في داخل المدرسة وخارجها والاهتمام بارشاده وتوجيهه ليكون مواطنا كريما ·· وهناك مدرسون مرشدون يقولون ، ان الارشاد مهنة معقدة لا يتمكن أن يقوم بها سوى من تخصص في الارشاد وخبره وتدرب عليه ، فهو وحده يتمكن من أداء هذه الوظيفة بكفاءة وتأثير فعال على الطلاب · صحيح ان التخصص في الارشاد يشبه التخصص في التعليم والمحاماة والهندسة والطب ، الا انه فيه مرونة ويمكن أن يقوم به غير المختص أيضا · فالمدرس الذي تلقى بعض موضوعات الارشاد في الجامعة بامكانه القيام بوظيفة المرشد بالاضافة الى تخصصه في التدريس · كما يمكنه أن يتخصص في الارشاد وفي أي موضوع آخر من الموضوعات التدريسية · والمدرس بامكانه أن يقوم بالارشاد بنفس الكفاءة ـ تقريبا ـ التي يقوم بها المرشد

للتخصص نفسه ، على شرط أن يكون قد درس بعض موضوعات الارشاد في دورة تدريبية أو في جامعة وتدرب على اسلوب الارشاد تحت رعاية استاذ مختص . وعلى هذا الاساس فان اسلوب الارشاد المعمول به حاليا في مدارسنا ليس له تأثير كبير على الطلاب لانه لا يستند على دراسة علمية وتخطيط منظم في الارشاد . فالطالب في معاهد اعداد المعلمين والمدرسين لم يدرس موضوعات الارشاد والتوجيه خلال سنوات الاعداد ولم يدرب عمليا تحت اشراف المرشدين المختصين في الارشاد ، كما لم يدرب على استعمال اختبارات الذكاء والانجاز والشخصية وغيرها . لذا فان ما يقوم به المدرس في عملية الارشاد لا يتعدى التجارب الشخصية والخبرات المكتسبة حيث يكون تأثيرها قليلا أو كثيرا ، وذلك بالنسبة الى خبرات المدرس وما طبق عليه نفسه يوم كان طالبا . فهو اذن ارشاد غير منظم ولا يستند على اساليب الارشاد العلمية الصحيحة التي توجه الطالب نحو أفضل ما يمكن ان يعمله ويتعلمه .

ان المدرس يعمل لصالح طلابه وان حقل اختصاصه يجب أن يشمل - عدا مادة الدرس - توجيه سلوك الطالب وتوافقه مع المحيط الخير ، أي ان يقوم بوظيفة المربي لا تدريس مادة الدرس فقط . ويمكن القول ان تدريب المدرس المهني يجب ان يحمله على فهم طلابه ، فيلاحظ نموهم وسلوكهم وحاجاتهم فيساعدهم على حل مشاكلهم بأنفسهم وعلى ترقية المهارات الضرورية فيهم كل حسب قابليته .

ان المدرس المربي اذن ، يجب ان يهتم بالفرد ككل وككائن نام له رغباته وحاجاته فيعمل على تطمينها وتطويرها وترقيتها بالقدر الذي تسمح به قابلياته وظروفه ، وعليه أن يعمل على تنمية شخصيات طلابه ، فيثق بكفاءاتهم وامكانياتهم فيوجههم توجيها علميا وعمليا ، ويكون فيهم عادات السلوك الحسن ، ويعتبر انهم الجيل الصالح المتسلح بالعلم والاخلاق والذي سيلعب دورا خطيرا في تقدم البلاد وتطورها وازدهارها .

صحيح ان المدرس مسئول عن اعطاء المعلومات وتعيين الواجبات والتأكد من ان الطلاب استوعبوا مادة الدرس . كما انه المسئول عن حصول الانضباط في الصف وقيام كل طالب بعمله في نشاط مستمر الى نهاية الدرس . ولاجل ان تسير عملية التربية والتعليم بشكل سليم في جميع نواحي نشاط الطالب وفعالياته وتقدمه ، لابد من اضافة عمل آخر الى اعمال المدرس السابقة ، وهو ارشاد الطلاب وتوجيههم ليتمكنوا من القيام بواجبهم على أحسن صورة ممكنة .

ويتوقف الارشاد الناجح على دراسة المدرس المعلومات الآتية عن طلابه وهي :

١ - دراسة الحاجات . الرغبات . القابليات . ومشاكل كل طالب في الصف .

٢ - دراسة وتحليل علاقة الطالب في الصف مع طلاب الصفوف الاخرى

٣ ـ مساعدة الطلاب كجماعات لبحث وتحليل وتحديد المشاكل الناجمة عن رغباتهم الجارية لامكان حلها بانفسهم ٠
٤ ـ ارشاد الطلاب خلال العمل وحل مشاكل الحياة الحقيقية في الصف
٥ ـ تعميق وجهات نظر الطلاب وتوسيع رغباتهم في معرفة العالم ٠
٦ ـ مساعدة الطلاب لتمكينهم من تثمين تقدمهم ٠
٧ ـ ارشاد الطلاب اثناء قيامهم بالعمل كفرق ليكون في وسعهم ضبط واحكام اعمالهم الفنية والعلمية ٠
٨ ـ اعطاء الطلاب وجهة نظر واضحة حول سلوكهم وتصرفاتهم ليدركوا مقدار تقبل الآخرين لتصرفاتهم ٠
٩ ـ مساعدتهم لزيادة خبراتهم في حسن اختيارهم الاشياء بالتعاقب حسب اهميتها ٠
١٠ـ مساعدتهم ليتعلموا الشيء الكثير من اخطائهم بحيث يتبينوا الشيء الصحيح من الخطأ ٠
١١ـ مساعدتهم في احترام انفسهم واحترام الآخرين في المناسبات المختلفة والمعاملة ٠
١٢ـ ارشادهم للتعامل الحسن مع الآخرين وحل المشاكل مهما كانت بلطف وهدوء ٠

يفهم من النقاط السابقة ان مهمة الارشاد هي اكتشاف الحاجات الآنية للبنين والبنات وتكييف التدريس وفعاليات المنهج لمواجهة تلك الحاجات ٠ وعلى هذا الاساس فان الارشاد هو عملية مساعدة الافراد وارشادهم لاختبار المشاكل المتميزة ضمن قابلياتهم ووضع الحلول الموصلة الى استمرار التكيف والتقدم ٠ اما اذا حددت وظيفة الارشاد منفصلة عن التعليم ، فتكون عملية التربية والتعليم جامدة لا تمثل الحاجة والواقع ورغبات الافراد ٠ فالمدرس اذن يجب ان يمثل دورا مهما في وضع وتطبيق برنامج ممتاز في الارشاد والتوجيه المهني جنبا الى جنب مع التدريس ٠ ومع ذلك فاننا نعتقد بضرورة وجود مرشد مختص في المدارس الثانوية في العراق ، يقوم بحل مشاكل الطلاب المعقدة تاركا البسيط منها على المدرس والمدير ٠ ففي مدارسنا الثانوية ، ودور المعلمين والمعلمات ، ومعاهدها لابد من جعل الارشاد المنظم من اهم اهداف التعليم الثانوي ٠ ويجب أن نسلم ان طلابنا في هذه المدارس وحتى ان كثيرا من المدرسين بالذات احوج ما يكونون الى الارشاد المهني والسلوكي وعدم الابتعاد عن اهداف المدرسة الثانوية في السلوك والتصرف الفردي والجماعي ٠

اما في المدرسة الابتدائية ، فلا بأس ان يقوم المدرس بعملية الارشاد المنظم ، بشرط ادخال موضوعات الارشاد في مناهج معاهد اعداد المعلمين والمعلمات ، كما ان المعلمين القائمين بالتدريس اليوم ، يمكن ادخالهم الى

دورات تفتح في كل لواء بصورة دورية ومستمرة ، وتدريبهم على عملية الارشاد نظريا وعمليا • ان المدرس العراقي الحديث يجب ان يؤكد على الارشاد ويركز عليه بنفس الدرجة التي يركز فيها على التدريس سواء كان يدرس في المدرسة الابتدائية أم في المدرسة الثانوية •

ان الارشاد لا يقتصر على الطلاب الجانحين أو الضعفاء أو الشواذ فقط ، بل يجب أن يشمل جميع الطلاب على مختلف سوياتهم العلمية والعقلية • فعلى المدرس ان يوجه الطالب نحو مهنة معينة ، أو اتجاه ثقافي معين يتفق ورغبات وقابليات ذلك الطالب ، كما عليه أن يرشده نحو موضوعات دراسية معينة وطريقة الدراسة والتتبع وانجاز الواجب بأقصر وقت واسهل اسلوب واقل جهد ممكن ، ويساعده في معرفة المصادر التي تخص كل موضـوع وتسهيل عملية الوصول اليه ، ويوجهه كذلك الى افضل طرق السلوك مع الآخرين عن طريق التعاون وتحبيب روح الجماعة اليه •

لقد اشتد التأكيد اليوم على اهمية دور المرشد بسبب نتائج دراسات علم النفس والصحة العقلية للفرد ، وتظهر في كل يوم عشرات الكتب التي تبحث في موضوع الصحة العقلية ، وعلم النفس التكويني ، وفي المقاييس التي تقيس الذكاء والشخصية والرغبات ، بغية الاحاطة بحاجات وقابليات الفرد ومعاونته للوصول الى اقصى حد فسلجي يمكن ان تصل اليه قابلياته •

والسؤال الذي يخطر على البال الآن هو : كيف ومتى يقوم المدرس المرشد بتقديم خدمات قيمة وتعاون مثمر مع الآباء والمدرسين الآخرين للتعرف على طبيعة الطالب بامكانياته والعمل على تنميتها بصورة مستمرة ؟

يمكننا أن نضع خمس مجالات مهمة يتمكن المدرس عن طريقها تقديم الخدمات المثمرة في الارشاد والتوجيه وهي :

١ ــ خلال التجمعات المدرسية والندوات الخاصة •
٢ ــ خلال التدريس في الصف والوقوف على نقاط الضعف والقوة في كل طالب •
٣ ــ خلال دراسة مشاكل الطالب الفردية وفعالياته الخاصة والاجتمـاع به لتقديم الارشاد والتوجيه له •
٤ ــ خلال الاجتماع بولي أمر الطالب لزيادة المعرفة بطبيعة ذلك الطالب والوقوف على حاجاته وهواياته ومشاكله وسلوكه في البيت والخارج والتعاون معه لايجاد افضل الطرق واسلمها لتثقيفه وتوجيهه وحـل مشاكله •
٥ ــ خلال العمل الارشادي التعاوني مع المدير والمدرسين المرشدين الآخرين •

ان وظيفة المدرس في الارشاد والتوجيه تكون داخل الصف وخارجه فردية وجماعية تمتد من الصف الى ساحة المدرسة وخلال الالعاب والسفرات المدرسية • فهي اذن أبعد من نطاق عملية التدريس الاكاديمي داخل الصف ،

انها تشمل معرفة جميع فعاليات الطالب وسلوكه داخل المدرسة وخارجها ، والعمل على توجيه وتقوية الخصائص والصفات الخيرة فيه وارشاده الى اسلم طرق التعامل مع الآخرين واذكاها ٠

والمعلم في المدرسة الابتدائية الملم بجميع موضوعات هذه المدرسة والمدرب على الارشاد يمكن ان يكون مرشدا ناجحا لصفه في جميع الدروس أو معظمها ٠ اما المدرس في المدرسة الثانوية فليس له مجال الارشاد الا في حدود دروسه القليلة في كل صف ، وهذا الارشاد لا يكون كافيا ، لعدم وجود وقت كاف لدراسة كل طالب وتوجيهه ٠ لذا لابد من تدريب اخصائيين في الارشاد في جامعة بغداد يتولون الارشاد والتوجيه في المدارس الثانوية ٠ ويمكن ان يكون المرشد الاختصاصي مختصا في الارشاد الى جانب اختصاصه في الرياضيات أو الطبيعيات أو أي مادة أخرى ، وبذلك يمكنه من ارشاد بين الف الى الفي طالب في السنة في موضوع اختصاصه في عدة مدارس ٠ وهكذا يمكن ان يكون في المدرسة الثانوية مرشدون آخرون في الموضوعات الاختصاصية الاخرى مع الاختصاص في الارشاد أيضا ٠

ولكن مع ذلك فان افضل أنواع الارشاد من كان مختصا في الارشاد فقط ليتفرغ الى هذا العمل وحده وفي هذه الحال يتداول المرشد المختص مع مدرس المادة المختص في موضوع توجيه الطلاب العملي والمهني ويتداول مع المدير في موضوع ارشاد الطالب التربوي وسلوكه مع الآخرين ٠ وقد سارت بعض الجامعات على اساس ان يكون المرشد المختص قد نال درجة البكلوريوس في التربية في أحد معاهد اعداد المدرسين ثم ينال درجة الماجستير في الارشاد والتوجيه او درجة الدكتوراه ٠

٢ ـ ما هي وظيفة المرشد الاساسية في المدرستين الابتدائية والثانوية وما هي الاختبارات التي يمكن تطبيقها في العراق لتساعد في الارشاد ؟

ان الوظيفة الاساسية للمرشد المختص في المدرستين تكاد تكون متساوية مع بعض الفروق الطفيفة ٠ ويمكن ان نلخص هذه الوظيفة في المدرستين بما يلي :

١ ـ ان المرشد في المدرستين يحاول تفهم الاضطرابات العاطفية للطلاب ووضع الحلول لها وجعل الطالب يشعر باطمئنان وسعادة ٠
٢ ـ يساعد المرشد الطلاب في المدرستين على حل مشاكلهم العلمية وقد يكون المرشد في المدرسة الابتدائية اكثر توفيقا في ذلك لسهولة المواد الدراسية وعدم وجود حاجة الى الاختصاص في الموضوع وكثرة الوقت الذي يتيسر للمدرس لرؤية طلابه بحكم اتصاله بهم واختصاصه في الصف ٠
٣ ـ ان المرشدين في المدرستين يجب ان يهتموا في الوقاية والعلاج وقد

يكون العلاج صعبا في المدرسة الثانوية اذا لم يبدأ به المدرس في المدرسة الابتدائية بشكل جدي ».

٤ ـ المرشدون في كلتا المدرستين يقدمون مساعدات كبيرة للآباء في معرفة رغبات اولادهم وسلوكهم وتقدمهم ، خاصة تقدم وسلوك طلاب المدرسة الابتدائية .

٦ ـ المرشدون في المدرستين يجرون اختبارات وقياسات متنوعة لغاية معرفة ذكاء الطلاب .

٧ ـ ان لمرشد في المدرسة الثانوية يمكنه توجيه الطالب توجيها مهنيا بالاضافة الى التوجيه الاكاديمي والتربوي . اما في المدرسة الابتدائية فيحاول المرشد كشف القابلية المهنية والرغبة والميل عند الطالب .

تشخيص نقاط الضعف والقوة في الطلاب لتساعد في التوجيه والارشاد

اما الاختبارات التي يمكن تطبيقها في مدارس العراق فهي تختلف من صف الى آخر ويمكن تلخيص هذه الاختبارات ابتداء برياض الاطفال فيما يلي:

١ ـ رياض الاطفال في آخر السنة ـ اختبار القابلية في القراءة والكلام
٢ ـ الصف الاول في بداية السنة ـ اختبار الذكاء والقابلية على الدخول الى الصف الاول .
٣ ـ الصف الثاني ـ بدون اختبار .
٤ ـ الصف الثالث في بداية السنة ـ اختبار الذكاء واستخراج الارتباط بين الاختبار الاول في السنة الاولى وهذا الاختبار ودراسة اسباب الفرق ان وجد .
٥ ـ الصف الثالث ايضا في نهاية السنة ـ اختبار الانجاز .
٦ ـ الصف الرابع في بداية السنة ـ اختبار التشخيص في القراءة والحساب والقياسات .
٧ ـ الصف الخامس ـ بدون اختبار .
٨ ـ الصف السادس ـ اختبار الانجاز (البكلوريا فقط) .
٩ ـ الصف الاول المتوسط ـ اختبار الذكاء . واختبار القابليات الخاصة
١٠ـ الصف الثاني المتوسط ـ بدون اختبار (الاختبار المدرسي فقط) .
١١ـ الصف الثالث المتوسط ـ اختبار الرغبات والاولاع والتأكيد على القابليات الخاصة .
١٢ـ الصف الثالث المتوسط في نهاية السنة ـ اختبار الانجاز (البكلوريا فقط) .
١٣ـ الصف الرابع العلمي والادبي ـ اختبار القابلية المهنية العملية والاكاديمية .

١٤ـ الصف الحادي عشر في نهاية السنة ـ اختبار الرغبة والولع واختبار الانجاز ٠
١٥ـ الصف الثاني عشر في بداية السنة ـ اختبار الذكاء ٠
١٦ـ الصف الثاني عشر في نهاية السنة ـ اختبار الانجاز (البكلوريا) ٠

ان سجلات المدرسة يجب ان تتضمن بالاضافة الى سجلات الاختبارات المذكورة آنفا المعلومات الآتية :

١ ـ سجل المعلومات التي يجمعها المدرس والمرشد والمدير عن كل طالب والتي يجب ان تكون سرية ٠
٢ ـ ملفة الطالب الخاصة التي تحوي درجاته والمعلومات عنه من مختلف المصادر ٠
٣ ـ صحيفة الطالب التي يكتب كل مدرس فيها مختلف المعلومات عنه حول الامور الآتية :
أ ـ حالة عائلة الطالب الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية ٠
ب ـ التاريخ الصحي للطالب ومقارنة ذلك بالمقياس الصحي الاعتيادي المطبوع عادة وحسب الاعمار المختلفة ٠
ج ـ تاريخ الطالب في المدرسة ٠
د ـ مزايا الطالب ونوع الاعمال والفعاليات التي يمتاز فيها ٠
هـ ـ فعاليات الطالب وسلوكه خارج المدرسة في المحيط والبيت ٠
و ـ زيارات الطالب خارج المدينة التي يسكنها واسفاره خارج بلاده ان وجدت ٠

٤ ـ يجب ان يكون للمرشد سجل عن طلابه الذين يرشدهم يسجل فيه كل ما يستجد عن الطالب بالنسبة الى النقاط مارة الذكر أو ما يستجد من المعلومات الاخرى عنه ٠
٥ ـ ان مرشدي طلاب المدارس الثانوية يجب ان يصرفوا وقتا كبيرا في مساعدة طلابهم باعطائهم فكرة واضحة عن طبيعة الكليات التي سيدخلونها أو ايجاد اعمال لهم حال تخرجهم ٠ فالمرشد يوجه الطالب الى تلك الكلية التي يمكن أن تكون أفضل له بالنسبة الى قابلياته واستعداده فيشرح له خصائص تلك الكلية وامكان انسجامه بها ٠ كما ان تفوق الطالب في ناحية عملية أو فنية أو نظرية في موضوع معين ، مما يساعد المرشد على توجيه الطالب نحو عمل معين يستفيد منه ماديا ، ويقوى فيه الناحية التي تفوقها لتمكنه من التخصص في تلك الناحية عند دخوله الى احدى الجامعات أو عند خروجه للحياة للعمل في المعامل والشركات أو المهن الحرة ٠
٦ ـ ان المرشد قد يساعد الطالب الثانوي الى ايجاد عمل له خلال دراسته خاصة اذا كانت الدراسة مسائية ، وقد يكون هذا العمل لساعات

قليلة في اليوم الواحد وذلك لسد حاجاته ، ومساعدة اهله بالاضافة الى الدراسة وقد لا يتيسر العمل للبعض منهم الا بعد التخرج ·

٧ - لابد ان يجتمع المرشد بالمدرسين والمرشدين الآخرين والمدير لكي ينسقوا تقاريرهم وآراءهم عن كل طالب فتنظم هذه المعلومات بشكل واضح بحيث تدل على شخصية الطالب وامكانياته وتعطي صورة كاملة عنه من جميع الوجوه ·

٣ - المفتشون كمرشدين :

كما ان المدرس يقوم بدور المرشد بالاضافة الى التعليم ، كذلك يمكن ان يقوم المفتش بدور المرشد والمشرف والموجه بالاضافة الى دوره كمدرس خبير ومفتش مجرب · على اننا نرى انه من الصعوبة بمكان قيام المفتش في العراق بدور في الارشاد والتوجيه لان ذلك يتطلب دراسة الارشاد في الكليات على يد اساتذة مختصين ، ولاجل ايضاح دور المفتش في الارشاد لابد من اعطاء صورة مختصرة عن معنى التفتيش ووظيفة المفتش ·

١ - **معنى التفتيش** : التفتيش هو عملية الاشراف على المدرسة وتثمين فعالياتها جميعا والعمل على رفع مستوى الطالب والمدرس والمدير وتتم وظيفة المفتش :

١ - بالاشراف على سير التدريس وايضاح وتطبيق افضل طريقة بالنسبة الى كل موضوع وكل صف ·

٢ - بتقديم افضل المصادر والمعلومات الحديثة للمدرسين وتوجيههم الى الفصول المهمة والنقاط الاساسية فيها لامكان الافادة فيها في التدريس· وتثمين اعمال المدرس بغية تطويرها ·

٣ - الاطلاع على الامكانيات التربوية المطبقة في المدرسة بغية تثمينها وتقديم مقترحات عملية لتحسين الحالة وتقدمها ·

٤ - تثمن اعمال المدير ووظيفته في الادارة ومعاملة الطلاب والمدرسين وتوجيههم الى :

أ - افضل الطرق الادارية ·
ب - افضل الطرق التربوية في التوجيه المهني ·
ج - أحسن أساليب التنظيم المدرسي من سجلات وكتب واثاث وجداول الدروس والاعمال المدرسية الاخرى ·

٥ - كتابة نشرات ودروس نموذجية في طرق التدريس الناجحة وتوزيعها على المدرسين ·

٦ - تقديم قوائم بأحدث الكتب العلمية والتربوية وتوفيرها للمدرسين ·

٧ - بذل الجهد لدى الجهات المسئولة لسد نواقص المدرسة من مدرسين

وكتب واثاث وبنايات واكمال كافة النواقص التي تساعد المدرسة للقيام بواجباتها وتطبيق اهدافها العلمية والتربوية بكفاءة تامة ·

٨ ـ ارشاد المدير والمدرسين لاتباع افضل الطرق والاساليب التي تساعدهم على اكمال واجباتهم ورفع مستواهم وكشف قابليات الطلاب ومعرفة ذكائهم والعمل على اتاحة الفرص لكل طالب لاظهار مواهبه وقابلياته وهواياته وتشجيعها بحيث تسير جميع فعاليات المدرسة بروح تعاونية سليمة كافضل ما يمكن القيام به ·

٢ ـ دور المفتش في المدرسة الابتدائية والثانوية : في هذا العصر من التقدم العلمي والاجتماعي والتطور في كل مناحي الحياة لابد من جعل وظيفة المدرسة نامية متطورة ومتبدلة لمسايرة الركب العالمي والانسجام مع هذا التطـور فتكون واجبات المربي والمفتش بصورة خاصة تجديد وتطوير عملية التربية والتعليم ·

فالتفتيش بمعناه الواسع هو اليمنة على القيادة التربوية في المدارس والقيام بنجاح بكل ما يساعد المدرسين والادارة ولجان المناهج على تحسين وتطوير عملية التربية والتعليم ان تشمن المفتش للمدرسة التي يزورها بجميع فعالياتها بطريقة علمية مع ابداء المطالعة لكيفية تحسين الحالة القائمة من أهم ما يجب ان يصرفه المفتش الحديث ·

٣ ـ حاجة المدرس الى مساعدة المفتش في الارشاد والتوجيه : ان المدرسين على اختلاف خبراتهم وثقافاتهم بحاجة الى الارشاد والتوجيه ، فمنهم من هم حديثو العهد بالتدريس ومنهم من لهم خبرة طويلة فيه ، كما انهم يختلفون باختلاف شخصياتهم ومقدار اعدادهم ومستواهم العلمي ومقدار تتبعهـم للمعلومات الحديثة ونموهم في المهنة · فالمفتش يجب ان يتبين هذه الفروق بين المدرسين كما يتبين المدرس الفروق الفردية بين طلابه ولكي نضمـن للمدرسين تقدمهم ونموهم في المهنة يحسن ان نهيأ لهم الحاجات والظروف المناسبة للعمل فهم :

١ ـ بحاجة الى الحماية ·

٢ ـ بحاجة الى العمل في ظروف حسنة ·

٣ ـ بحاجة الى المعاملة بلطف ·

٤ ـ يرغبون ان يشعر الجميع انهم هيئة أساسية في المدرسة التي يعملون بهـا ·

٥ ـ يرغبون التعاون والتفاهم والانسجام مع من يعمل معهم أو يتصل بهم ·

٦ ـ يرغبون ان يكون لهم صوت مسموع في الادارة والتنظيم ·

٤ ـ **هدف المفتش من التفتيش والارشاد :** يمكن تلخيص هدف المفتش في التفتيش والارشاد بما يأتي :

١ ـ تحسين المدرسين في الخدمة ·
٢ ـ اعادة تنظيم مناهج الدراسة لتنسجم مع التطورات العلمية الحديثة ·
٣ ـ ضمان اكبر فائدة ممكنة من استعمال الكتب المقررة ·
٤ ـ تعليم الطلاب طريقة التفكير في حل مشكلة تصادفهم ·
٥ ـ بناء السجايا الحسنة في الطلاب والمدرسين ·
٦ ـ مساعدة المدرسين غير الكفوئين ليتمكنوا من القيام بواجباتهم ·
٧ ـ خلق وجهات نظر صائبة عند الطلاب والمدرسين ·
٨ ـ زيادة خبرات الطلاب وثقافتهم وتوسيع معلوماتهم للمحيط ·
٩ ـ تشجيع المدرسين ومساعدتهم على تحسين عام في عملية التعليم وزيادة خبراتهم في الارشاد والتوجيه ·
١٠ـ ايجاد الظروف المساعدة للاجتماع بالمدرسين كأفراد وكجماعات وحل مشاكلهم المهنية ·
١١ـ توطيد العلاقة بينه وبين هيئة المدرسة التي يفتشها وحل المشاكل وتحسين الاوضاع بروح تعاونية صادقة ·
١٢ـ تفهيم المدرسين بعض تجارب وخبرات الحياة ورفع كفاءة المدرسة في ممارسة الطرق الديمقراطية في حل المشاكل التي تقع في اعمالهم اليومية ·
١٣ـ ايجاد علاقة طيبة بين المدرسة والمحيط وجعل تقدم المحيط كجزء من من مسئولية هيئة المدرسة ، اي جعل المدرسة قاعدة مثلى يتركز عليها المحيط للحصول على مجتمع متطور ·
١٤ـ حفظ سجل الزيارات واعطاء نماذج من المقترحات للمدرسين والادارة ·
١٥ـ تقديم جميع الوسائل التي تساعد في عملية التعليم بعد تثمين جميع فعاليات ومناهج المدارس التي يزورها المفتش ·

ان النقاط المذكورة آنفا وتلك التي قد تخطر على بال المفتش ، يجب أن تسبقها خطة مدروسة قبل البدء بالتفتيش لكي يكون أثرها فعالا وكبيرا ·

٥ ـ **كيفية تحسين المدرسين في الخدمة ورفع كفاءتهم عن طريق الارشاد والتفتيش :**

١ ـ التفتيش من قبل مدير التربية في اللواء ·
٢ ـ اجتماع هيئة المدرسة بمدير تربية اللواء بصورة اجماعية وعلى انفراد ·
٣ ـ اجتماع المدرسين بمدير المدرسة بصورة اجماعية وعلى انفراد ·
٤ ـ اجتماع المدرسين بمفتش تربية اللواء بصورة اجماعية وعلى انفراد ·
٥ ـ تدريب المدرسين على استعمال اختبارات الذكاء والانجاز والاختبارات المقيسة لمعرفة قابليات الطلاب ·

٦ ـ تعاون المدرسين والادارة على انهاء المنهج الدراسي بالوقت المناسب وبارشاد المفتش وتوجيهه ٠
٧ ـ تحسين وتنمية المكتبات الخاصة بالمدارس بغية مساعدة المدرس على تنمية ثقافته ٠
٨ ـ زيارة المدرسين لمدارس أخرى والاطلاع على سير الدراسة والتدريس فيها ومعرفة الطرق والاساليب التي يتبعها المدرسون الآخرون ٠
٩ ـ تقديم دروس نموذجية عن طريق المدرسين الكفوئين أمام أكبر عدد من المدرسين وحسب الموضوعات التي يدرسونها ٠
١٠ـ اعطاء محاضرات من قبل المختصين عن طريق اجتماعات المدرسين حول تحسين عملية التعليم ٠
١١ـ اقامة مؤتمرات تربوية وعلمية متنوعة بغية تطوير الوسائل التعليمية المختلفة وتحسين كفاءات المدرسين العلمية والمهنية ٠

٤ ـ دور المدير في الارشاد والتوجيه :

في المدارس التي لا يكون فيها اختصاصي مسئول في الارشاد يمكن ان يقوم المدير في دور الارشاد والتوجيه بالاضافة الى المدرس والمفتش ٠ وحتى في المدارس الكبيرة التي يعمل فيها المختصون في الارشاد ، المفروض في المدير أن يقوم بارشاد الطلاب بحكم اتصاله بهم ٠ ويمكن بهذا الاتصال ان يعدل المدير من خططه ليجعل الارشاد أكثر تأثيرا ٠ ولكن نظرا لان المدير يضفي على نفسه نوعا من الهيبة والروعة فان الطلاب قد يحجمـــون عن بحث مشاكلهم بحرية امامه ٠ ومهما يكن من أمر فان المدير كلما قدم مساعدة لطلابه كلما زادت ثقتهم به وزادوا شعورا بحرية امامه ٠ وعلى كل طالب أن يشعر حقيقة ان المدير يكن له العطف والحنان ويرغب في حل مشاكله ، ومساعدته على عمل ما يرغب به هو نفسه ويشعر انه مفيد له ، كما ان المدير بدوره باجتماعه بالمدرسين وبممثلي الطلاب في المدرسة الثانوية ، يساعد كثيرا على تحسين فعاليات المدرسة واضفاء روح المودة والتعاون بين الطلاب وهيئة المدرسة للوصول الى الاهداف المرسومة ٠

ويمكن تلخيص ما يمكن أن يقوم به المدير من الارشاد والتوجيـــه بالنسبة الى الطالب الثانوي بالنقاط التالية :

١ ـ الارشاد المؤدي الى اختيار كلية مناسبة لقابليات كل طالب ٠
٢ ـ مساعدة الطلاب على التصميم للوقوف على منهج الدراسة المقررة وانجازه
٣ ـ ارشاد الطلاب حول اختيار مهنة للعمل في الحياة ٠
٤ ـ مساعدة الطلاب لايجاد عمل لهم لبضع ساعات من الدوام يوميا ٠
٥ ـ المساعدة في تثمين تقدم الطلاب في المدرسة ٠
٦ ـ مساعدة الطلاب في اختيار ناد وجمعيات ينتمون اليها ٠
٧ ـ المساعدة والارشاد حول حالة الطالب الصحية ٠

٨ ـ اعطاء نصح وارشاد لتكوين عادات المطالعة الحسنة ٠
٩ ـ مساعدة الطالب المستجد للانسجام في وضع المدرسة الجديد ٠
١٠ـ مساعدة الطالب في الحصول على سلفة اذا اقتضى الامر لمواصلة دراسته
١١ـ مساعدة الطالب المحتاج في تنظيم جدول له بحيث يتمكن من انعمل لكسب الرزق بدوام غير كامل ويواصل دراسته بالوقت نفسه ٠

والمفروض في المدير الناجح ان يسأل نفسه الاسئلة التالية ويجيب عنها بصورة ايجابية وهي :

١ ـ هل اميز ان نجاحي متوقف على نجاح الطلاب والمدرسين في المدرسة
٢ ـ هل احتاج الى طرق خاصة لاجعل من يعمل معي يشعر بانه يتمكن أن يشاركني في المشروع الذي انوي القيام به ٠
٤ ـ هل اشعر بعطف وبكرامة الطلاب الذين لا أمل بنجاحم في المدرسة لاسباب عديدة فاذا ما ادرك المدير حقا تنظيم انجواب السليم حول هذه الاسئلة سيجد تماما ان المدرسة التي يديرها فيها ارشاد مركز راسخ ٠ وهذا معناه ان الهيئة التدريسية التي تعمل معه تقدم مساعدات كبيرة الى الطلاب لاختيار ما هو أصلح لهم وليتكيفوا بنجاح الى الحالات الجديدة ٠

يظهر مما تقدم ان دور المدير انرئيسي يظهر في قابليته على تطوير وجهة نظر مدرسيه في الارشاد التربوي ٠ ان الهيئة التدريسية تحتاج الى تعاون وتفكير مشترك يتضمن مساعدة كل طالب لاكتشاف وتطوير قابلياته ٠ والطلاب يحتاجون بلا شك الى تجارب في التعلم ليتمكنوا من مواجهة المشاكل التي يلتقون بها وليختاروا الحل الامثل بذكاء وتفكير بانفسهم ٠ وكما ان المدرسين يتعرفون على طلابهم ويتبينون سلوكهم ٠ كذلك عليهم أن يحصلوا على وجهة نظر ذكية عن العوامل التي تساعد سلامة انصحة العقلية والى تلك الاعتبارات التي تساعد في نماء الشخصية وازدهارها٠ والمدير الذي يسعى الى هذه الاهدا فانما يعمل ذلك بوحي من ضميره ومسئولياته ولمساعدة المدرس في اكتشاف دوره الفعال وتشجيعه لتكوين وجهة نظر فلسفية في الارشاد ٠

ما هي العوامل التي تساعد المدير لتكوين وجهة نظر فلسفية للارشاد في مدرسته ؟

ان المدير الحديث يمكن ا نينظم بعض العوامل والظروف التي تجعل لنهيئة انتعليمية وجهة نظر واضحة في الارشاد فتوجه اهتماما كبيرا الى تسوية مشاكل الطلاب بعد دراسة تفصيلية لقابلياتهم وظروفهم وهي :

١ ـ الدعوة الى الاجتماع بالطلاب كفرق والوقوف على مشاكلهم
٢ ـ دراسة التقارير الرسمية والخاصة عن كل طالب ٠

٣ ـ ملاحظة الطلاب اثناء الدروس النظرية والعملية والالعاب اللاصفية والسفرات المدرسية ٠

٤ ـ الاجتماع بالطلاب على انفراد والوقوف على مشاكلهم الخاصة وعلاقتها بزملائهم من الطلاب أو اشخاص آخرين ٠

٥ ـ دراسة حاجة كل طالب ورغباته والمقارنة بينها وبين ما يطبق عليه من الدروس ٠

ان دراسة ظروف الطالب ومعرفة مشاكله ورغباته الآنية والنامية وتقييم فعالياته ومقارنتها بالمنهج المطبق عليه ٠ كل ذلك يخلق للمدرس وجهة نظر خاصة في الارشاد والتوجيه تساعد على تكييف المناهج المدرسية بالنسبة الى واقع الطالب وظروفه وجعله يشعر انه مركز اهتمام المدرسة ورعايتها ٠ بذلك يزداد تعلقه وحبه لمدرسته ويصبح في مقدوره حل مشاكله بنفسه ويبذل جهودا صادقة لانجاز واجباته التي اضحت الى حد بعيد منسجمة مع طبيعته وظروفه ٠

العوامل التي تساعد المدير القيام بمسئولية الارشاد :

لما كانت مهمة الارشاد اثناء الدوام المدرسي تتطلب التعاون بين اعضاء الهيئة التدريسية لتسهيل مهمة تكييف الطالب وتثقيفه ٠ وحيث ان منهج الارشاد يتطلب ان يكون مهما ومفيدا ومؤثرا في المنهج التعليمي العام ٠ حينئذ على المدير ان يوحد المهارات الادارية المختلفة لمدرسيه ويتحمل واياهم تبعة نجاح الارشاد بين طلاب مدرسته ٠

ان خدمة الارشاد الكمي والكيفي في المدرسة يجب ان تساعد الطلاب على التعليم الامثل وفهم قيم الحياة ، كما يجب ان تتبلور فلسفة المدير والمدرسين في الارشاد ٠ وان امتداد دور المدير في الارشاد يتوقف الى حد بعيد على مدار فعاليات المدرسة واضطلاعها بمسئولياتها واعتبار الارشاد من مسئوليات المدير الرئيسية على الرغم مما يقوم به المدرسون في هذا الصدد ، حيث عليه أن يهيىء كل التدابير التي تجعل العمل نافعا والطلاب يستفيدون أكثر كلما نموا ونضجوا ٠

وهناك ست فعاليات أساسية تقود الى وضع منهج أساسي في الارشاد وهي :

١ ـ الاجتماع بالطالب ودراسته من الوجوه المختلفة وفي الوقت المناسب ٠

٢ ـ دراسة الموضوعات الفنية والمواد المستعملة في الارشاد ومختلف الاختيارات ٠

٣ ـ دراسة نتائج الموضوعات الفنية والمواد المستعملة في الارشاد من قبل هيئة المدرسة ومناقشتها وجعلها منسجمة مع ظروف الطلاب الحالية ٠

٤ ـ زيارة المدارس التي سبق ونجح فيها للاطلاع على الطرق والاساليب المتبعة فيها ٠

٥ ـ البدء بمنهج ارشادي كامل في صف واحد في المدرسة كتجربة للانتقال الى الصفوف الاخرى بعد نجاح التجربة فيه ٠

ان التعليم ان هو الا عملية تدريب الطلاب على القيادة الديمقراطية مع تطور مقصود ، واذا أردنا تحديد هذا المفهوم نقول : ان التدريس في الحقيقة هو عملية ارشاد ، والمدير الذي يضع خططا لارشاد متطور يجب أن يميز العلاقة المتينة بين الارشاد والتعليم ، فكلاهما مبنيان على مبادىء أساسية في الديمقراطية ، وكلاهما يؤثران في عمليتي التعليم والتعلم تاثيرا كبيرا ٠

ما هي المعلومات التي يجب أن نعرفها عن الطالب لنضمن له الارشاد الناجح ؟

هناك بعض التباين في الجداول التي يضعها المربون كمعلومات كافية لمساعدة الطالب في الارشاد ٠ ويمكن ذكر النقاط التالية واعتبارها استمارة مهمة للتعرف على الطالب من مختلف الوجوه وهي :

١ ــ المعلومات الشخصية عن الطالب ٠
٢ ــ المحيط البيتي وكل ما له صلة بالطالب ٠
٣ ــ تاريخه السابق في المدرسة أو المدارس التي داوم فيها ٠
٤ ــ تاريخه الصحي ٠
٥ ــ المعلومات عنه من مختلف الاختبارات ٠
٦ ــ فعالياته في داخل المدرسة وخارجها ٠
٧ ــ رغباته وهواياته ٠
٨ ــ استعداداته الخاصة ٠

ان جمع معلومات مفصلة حول الطالب من الجدول السابق يتوقف على قابلية المدير لحمل الهيئة التعليمية على فهم محتويات هذا الجدول ٠

من المعلومات التي تتجمع من الجدول السابق وما يتوافر غيرها يتكون سجل الطالب ولما كان سجل الطالب مفيد ومساعد لتطبيق افضل منهاج مدرسي فعلى المدير أن يرتب أفضل نموذج لهذا السجل الذي يجب أن يحتوي على جميع المعلومات التي يحتاجها المشرف على الطالب تلك المعلومات التي تجمعت أثناء فعاليات الطالب وتطور نموه ٠ وهذه المعلومات وما يستجد منها في كل يوم نحو الطالب تساعد على فهمه وتوجيهه توجيها يتفق مع قابلياته ٠

ما هو السجل العام :

ان السجل العام للطالب هو مجموع المعلومات التي حفظت عن الفرد خلال حياته وفعالياته وهذه تشمل المعلومات التي يجب حفظها في سجل أو ملفة تحت قفل خاص ٠ ويمكن حصر هذه المعلومات في ثمانية أبواب ٠ كما ان كل باب منها مقسم الى بضعة حقول لتكون كمرشد للمدير ليقوم بتحسين هذه المعلومات وتطويرها خلال الارشاد والتوجيه ٠

أما الابواب الثمانية وحقولها التي تجمع حول الطالب فهي :ـ

أ ـ المعلومات الخاصة بعائلته :

١ ـ اسم الابوين أو ولي أمره
٢ ـ مهنة الابوين أو ولي أمره
٣ ـ حالة الابوين ـ من طلاق أو فصل أو انسجام ...
٤ ـ من يسكن مع الولد من الاهل وعنوان المسكن
٥ ـ حالة البيت الاقتصادية
٦ ـ لغة التكلم في البيت
٧ ـ عدد الاخوة والاخوات في العائلة وترتيبهم بينهم
٨ ـ موقف العائلة منه ومن الاخوة الآخرين

ب ـ معلومات شخصية عن الطالب

١ ـ الاسم والعمر
٢ ـ مظهره الشخصي
٣ ـ اللون والجنس
٤ ـ مكان الولادة (مسقط الرأس)
٥ ـ الدين والمذهب
٦ ـ صورة حديثة للطالب مع تاريخ التصوير

ج ـ الحالة الصحية :

١ ـ أمراضه السابقة
٢ ـ الجدول اليومي لعاداته الصحية والتي تشمل وجبات الاكل ـ مقدار النوم ـ الدراسة ـ مساعدته للبيت في العمل ـ الالعاب ـ المشاكل
٣ ـ الغيابات عن المدرسة والتأخر
٤ ـ الاختبارات المدرسية والدرجات التي حصل عليها
٥ ـ العاهات أو العوائق البدنية ان وجدت

د ـ الصفات الشخصية وعادات العمل :

١ ـ سجل رغباته النامية والآنية
٢ ـ سجل سلوكه اليومي يحفظ من قبل المدرس لفترة من الزمن مع ملاحظات عامة عنه وتواريخها
٣ ـ ترجمة الحياة
٤ ـ التقارير عن القابليات الشخصية
٥ ـ ملاحظات المدرس عن عادات الطالب خلال العمل ....
٦ ـ تقارير الوالدين والاهل عنه في البيت
٧ ـ مراسلاته واتصالاته

هـ ـ مشاركته في الفعاليات اللا صفية :
١ ـ فعالياته خلال العطلة الصيفية
٢ ـ هواياته
٣ ـ مشاركته في الجمعيات المدرسية وفعالياته فيها
٤ ـ فعالياته في اوقات الفراغ
و ـ استعداداته الخاصة ـ رغباته ـ وقابلياته :
١ ـ في أي صف يدرس
٢ ـ نتائج الاختبارات المقننة
٣ ـ اختبارات الرغبة والشخصية والذكاء
٤ ـ نوادر الطالب وملاحظات المدرس عنه
٥ ـ درجات الشرف والجوائز
٦ ـ القابليات الخاصة . كالموسيقى والرسم والتصوير ...
ز ـ تجاربه وخبراته العملية :
١ ـ خبراته العملية ومنجزاته فيها في العمل اليومي
٢ ـ عمله في الصيف
ح ـ المهنة المفضلة
١ ـ أقوال الطالب بصراحة حول الاهداف والغايات
٢ ـ يستفسر من الطالب ماذا يريد أن يكون بعد عشر سنوات
٣ ـ ما هي خطته للعمل بعد التخرج
٤ ـ يطلب من الطالب أن يكتب مقال مختصر باسم ـ مهنتي التي افضلها ـ

فعلى المدير أن يطلع المدرس على المعلومات المتجمعة عن الطالب والتي سترشده لتكوين فكرة صائبة عنه فيعمل على تحسينه وحمله على التكيف الاجتماعي ، كما ان على المدرس أن يتعاون مع المدير والهيئة التعليمية لوضع تخطيط أمثل لمعرفة حاجات الطلاب المهنية والثقافية وحاجات المجتمع وتطبيق منهج متطور لتخريج مواطنين اكفاء منتجين .

مصادر البحث

1. Guidance Services; By: Humphreys. Traxler & North Chicago (1960).
2. Guidance in the Modern School, By: With G. A. Chaftel New York, (1958).
3. Guidance and Counseling in the Classroom, By: Dugald S. Arbuckle. Boston, (1957).
4. Guidance An Introduction. By: Merle M. Ohlsen New York, (1955).
5. Administration & Organization of the Guidance Program By Andrew & Willey. New York, (1958).

الزمان في شعر نازك الملائكة ومحتواه الشعوري

احمد نصيف الجنابي

الزمان والحضارة

الشعور بالزمن قرين الحضارة . ومعنى ذلك ان الرجل البدائي لا يشعر بالزمن . وان يعيش فيه . ومعنى ذلك ذلك أيضا أن الانسان كلما تقدم في مضمار الحضارة شعر بقيمة الزمن . كعنصر أساسي من عناصر الحياة : حياة الفرد والجماعة معاً .

ولهذا نجد الاهتمام بالزمن وقياسه وضبطه مقترنا بظهور الحضارات على وجه البسيطة . فالبابليون أول من ضبط الزمن وقاسه قياساً دقيقاً . فقد عرفوا المزاول الشمسية والساعات المائية « التي صممها تقدير صارم وفرضها حس دقيق وعميق بالماضي والمستقبل »[1] .

وأثرت هذه الحضارة في الحضارة اليونانية . ومما أخذوه عن البابليين اضافة الى تقسيم الزمان وقياسه ـ النظرية الهندسية المشهورة عندهم بنظرية « فيثاغورس » (٥٠٠ قبل الميلاد)[2] ، بينما سبقت الحضارة البابلية الحضارة اليونانية بآلاف السنين ، والنظرية موجودة عند البابليين . ولكن حلها يختلف عن الحل اليوناني وهي موجودة على لوح في المتحف العراقي .

وأول نظرة للزمان عند اليونانيين ترجع اصولها الى الفيثاغوريين واخذها عنهم افلاطون ثم ارسطو من بعده .

أما مذهب ارسطو عن الزمان فاوضح صيغة خلفتها لنا النظرية اليونانية وبطريقة تفوق من سبقه منهم ، بالتفصيل والشمول[3] .

وعلاقة فكرة الزمان بفكرة الوجود واضحة ، اذ ان لكل حضارة نظرة خاصة الى الوجود والى صلة الخالق بالخلق ، تحدد نظرتها الى الاشياء والمدركات الكلية (الحياة ـ الموت ـ الوجود ...)

فاذا طبقنا هذا على فكرة الزمان عند اليونانيين عامة وارسطو خاصة وجدنا هذه الفكرة مرتبطة عندهم بفكرة الوجود ارتباطا وثيقاً .

فالوجود ـ في التفكير اليوناني ـ ثابت أكثر منه متغيراً ، ولذا حاولوا دائماً أن يسلبوا الزمان طابع السيلان والتغير الدائم ، بان قالوا [بالآن] الذي لا توجد فيه حركة وجعلوه المكون الاصلي للزمان .

ومن ناحية ثانية ، فان الروح اليونانية ، لم تربط الزمان بالنفس الانسانية . وصفة ثالثة تميز فكرة الزمن عند اليونانيين هي [الآن

الحاضر] • ونحن ندين للمؤرخ الحضاري اوزفالد شبنجلر [١٨٨٠ ــ ١٩٣٦] ببيان صلة هذه النظرة للزمان بالسلوك الفردي والطابع الاجتماعي عند اليونانيين والرومانيين حيث يقول (كان الجنس البشري الكلاسيكي يعيش كل ساعة وكل يوم بمفرديهما ، وهذا واضح عملياً اذا أخذنا بعين الاعتبار الفرد الاغريقي أو الروماني أو المدنية أو الامة أو كامل الحضارة • فالمهرجانات الدموية وخلاعات البلاد ومعارك السيرك كانت التعابير الختامية والمتعددة الالوان للشعور اليوقليدي بالعالم الذي يؤله الجسد والحاضر)(٤) •

الحضارة المسيحية والزمان

ثم كانت المسيحية ايذانا بميلاد نظرة جديدة للزمان تختلف عن النظرة اليونانية • فبينما نرى الحضارة اليونانية تتشبث باللحظة الحاضرة التي تفهمها على انها نقطة تليها أخرى ، نرى الحضارة المسيحية على خلاف ذلك ، فهي تلغي الحاضر لحساب الماضي والمستقبل • اما الماضي فلارتباطه بخطيئة (آدم) • اما المستقبل فلأن فيه تحقيق الخلاص من هذا الوجود الخاطيء (وجود الانسان) ونجاته في النهاية(٥) • وقد اثرت هذه النظرة ــ فيما بعد ــ في الحضارة الاوربية • واثرت كذلك من ناحية اخرى وذلك بتعمقها الحياة الباطنة وانصرافها عن الموضوعات الخارجية الى الذات الروحية الداخلية ، فكان أن انصرفت الروح الاوربية الى ذاتها (ولو الى حين ، لانها رجعت الى نظرتها اليونانية تؤكد الجسد والحاضر كما فعل اجدادها تماما) • وأثر المسيحية واضح في أمثال (هيگل وكيركيغارد) اللذين يريان أن الفكر يصنع الوجود وهذه النظرة تختلف عن نظرة الاسلام •

نظرة الاسلام :

اذ أن الاسلام يرى أنه لا يجوز أن ينصرف الانسان الى داخل نفسه ويترك وجوده الخارجي أبداً • وانما عليه أن يسعى سعيا حثيثاً لاصلاحهما معاً والاهتمام بهما معاً • لان صلاح احدهما مرهون بصلاح الآخر وفساده مرهون بفساد الآخر • فلا يجوز أن يترهب الانسان وينصرف للعبادة ولا يهتم بحياته اذ (لا رهبانية في الاسلام) كما يقول رسول الله عليه السلام • كما أن مفهوم العبادة في الاسلام يتعدى العبادات المفروضة « الظاهرة » الى كل عمل (بل الى كل فكرة وان لم يتحقق بعد بذل الجهد لتحقيقه) • يقصد به وجه الله تعالى • والقرآن صريح في ذلك كل الصراحة (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب • واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في الباساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) • [البقرة ١٧٧] •

كما ان الاسلام لا يلغي حاضر الانسان ولا مستقبله على حساب الماضي أبداً وانما شعاره دائماً : أيها الانسان ٠ « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ٠٠ واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ٠ وربنا الكريم يقول : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الناس) ٠

كما أن وجود الانسان ـ في التصور الاسلامي ـ ليس وجوداً خاطئاً وانما هو وجود مقصود في الارادة الالهية (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) ٠ والغاية محددة هي العبادة بأسمى معانيها (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ٠ ووجوده في هذه الحياة للاختبار والامتحان تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ٠ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ٠ ثم ينال جزاءه يوم الحساب ان خيراً فخير وان شراً فشراً ٠ وموته ليس خلاصه من وجوده الخاطيء وانما هو انتهاء مرحلة الامتحان ٠ لان فكرة الفداء وتحمل اخطاء البشر ليس لها أثر في التصور الاسلامي ٠ وانما (كل امرىء بما كسب رهين) ٠ (وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ٠ ثم يجزاه الجزاء الاوفى)

نسبية الزمان

بدأت هذه الفكرة بالقديس اوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠ للميلاد)(٦) الذي جعل الفكر يصنع الوجود وبواسطة وجود الذات أثبت وجود الموضوع ٠

وتعطى نظرية (القديس اوغسطين) الزمان صفة الذاتية والاستمرار أو الديمومة Duration (التي سنراها فيما بعد عند برغسون) ٠ وتقوم على أساس التجربة الحالية للزمان مرتبطة بالاحوال النفسية ٠ وذلك بان يرد آفاته الثلاثة الى أحوال للنفس ثلاث كذلك : الذاكرة ، والانتباه ، والتوقع ٠

فالزمان عنده مسألة ذاتية لا موضوعية ونسبية لا مطلقة كما انه خطا خطوة عظيمة اذ جعل الزمان ينشأ داخل العقل البشري لاخارجه ٠ والزمان عنده ليس مدة ، وانما هو احساس مؤقت ٠ فنحن لا يمكن الا أن نمس بالحالة الحاضرة ٠ أما ما نسميه بالامس والغد فليسا في الحقيقة الا قسمين من اليوم ٠ والامس ان هو الا ذكرى اليوم عن الماضي ٠ اما الغد فهو أمل المستقبل ٠ ولما كان للعقل البشري حدوده النسبية فقد طور العقل ادراكا للحاضر له وجوه ثلاثة ، فتحدث عن الماضي والحاضر والمستقبل ٠ وفي هذا يقول اوغسطين : « هناك حاضر للاشياء الماضية وحاضر للاشياء الحاضرة ، وحاضر للاشياء المستقبلة ٠٠٠

فالزمان عنده صورة ذهنية محددة لا أزلية لا حدود لها ٠ وما عالم الانسان الا صورة ذهنية للعالم الالهي الازلي(٧) ٠

وبذلك فتح باب الحديث عن الزمان في الادب وعلم النفس ـ فيما بعد ـ بشكل لا نظير له من قبل ٠

ولهذا نجد اثر هذه النظرة عند گوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م) ومعاصره ماتثياس كلاوديس M. Claudius (١٧٤٠ ـ ١٨١٥) وخاصة في قصيدته ذات العنوان الطريف الموحي : الزمان والابدية (أي الازلية) ٠ Zeit und Ewigkeit ويقول فيها :

الانسان يعيش ويبقى
ولكن لوقت قصير
ثم يزول جميع العالم
بكل ما فيه من بهاء
ثم تهيمن الازلية على الجميع[٨] ٠

واثر هذه النظرة للزمان سيستمر في الادب الحديث شعراً ونثراً ٠ فهي عند نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) صاحب « العود الابدي » ، وفي قصيدته الطويلة جداً : « هكذا تكلم زرادشت » ٠ واضحة جداً ٠ وكذلك عند معاصره الشاعر ولهلم بوش W. Busch ٠ وقد عبر عنها في قصيدته (Wohen, Wohin) التي يشتمل عليها ديوانه « الظهور والكينونة » Schein und Sein وبهذا البيت :

أي « ما حدث سيحدث » Was geschehen, es wird geschehen.

بل ان الفكرة تكاد تنتقل الى جيمس جويس وفي قصته « عوليس » بعباراتها الاساسية ٠ فهو يقول : [سيكون المستقبل يوماً جديداً (حاضراً) والماضي كان اليوم (الحاضر) وما هو كائن الآن (الحاضر) سيكون في الغد كما يصبح الآن (الحاضر) ماضياً في الامس] ٠

فاي فرق بين فكرة الزمان ـ المبنية على اساس الحاضر ـ عند (اوغسطين) وفكرة جيمس جويس ؟ واثرت كذلك في فكرة (وليم جيمس) وبرغسون عن الزمان٠ وخاصة في فكرة٠٠ تيار الوعي٠٠ التي سيطرت على الادب (والقصة والمسرحية خاصة) في القرن العشرين ٠ وفكرة الاستمرار والديمومة Duration واضحة جداً في فكرة (برغسون)[٩] عن الزمان ٠

الزمان ومحتواه الشعوري في شعر نازك الملائكة

من الملاحظ أن ارتباط الزمان بالمصير في الشعر الحديث (والادب الحديث عامة) لا يقارن بعصر آخر سبقه ٠ بل اننا نجد ونلاحظ أن ارتباط فكرة الزمان بالموت قد كثر الحديث عنها في الشعر الحديث ٠ حتى اننا قلما نجد شاعرا محدثا تحدث عن الزمان ولم يقرن ذكى بالموت[١٠] ٠

ولكن يجب أن نذكر أن الشعور بالزمان والشعور بالمصير تبعا لذلك لا يعني التشاؤم · كما أن التشاؤم لا يعني ابدا الشعور بالمصير كما أن الاحساس بالمصير والفناء تجربة انسانية في أوسع مجالها ، يدركها الشاعر وغيره · وأكتفي هنا بمثال واحد للتدليل على هذه الكلمة وتوضيحها ·

فقد عبر روبرت هريك (١٥٩١-١٦٧٤)(١١) ، الشاعر الانكليزي المعروف عن الزمن وربطه بالمصير ولكنه لم يكن متشائما · بل كان مبتهجا ··· وبأي شيء ؟ بفصل الربيع فصل البهجة والحياة والنضرة والنور والسرور ···

ففي قصيدته (كورينا فلنبتهج بالربيع !) ، يقول :

تعالي ودعينا نذهب ، ما دمنا في ميعة الصبا
ولننعم بملذات الحياة البريئة
سنكبر مع الزمن ونموت
قبل أن نستمتع بحريتنا
حياتنا قصيرة وايامنا تجري
بسرعة كما تجري الشمس
وكبخار أو قطرة من ماء المطر
متى فقدناها فلن نعثر عليها بعد ذلك(١١)

ولكن الزمان عند نازك الملائكة « مقرون بالتشاؤم » · ولكن تعبيرها عن هذه الفكرة مشحون بالعاطفة وغني بالاحساس الوجداني الثر · مما يعطيه لونا حيا جديرا بالدراسة · لان يجبر القارىء المتذوق على المشاركة الوجدانية ··

فالزمان عندها زمان قاس فظيع ، واللقاء معه (في الذكريات طبعا) لقاء مؤلم لانه سجل دموعها واحزانها · ففي « عينيه » قطرات من دموعها ، وعلى » فيه » زفرات من آلامها · ولهذا فالذكريات فظيعة مؤلمة :

جئت يا ذكريات ما افظع الذكرى !
وما اروع الرجاء الفقيرا
ليت قلبي قد كان صخرا أصما
كل يوم يبني رجاء جديدا

حتى تلتقي « بيوم مولدها » عند الصباح · ولكن أي لقاء مرير كان !

والتقينا مع الصباح
فيا خيبة نفسي أي التقاء مرير
وجهك الشاحب المروع يبكيني
ويحيي ذكرى صباحي الغرير

وبعينيك قطرة من دموعي
وعلى فيك آهة من زفيري
أسفا قد حفظت أحزان قلبي
وتجاهلت نشوتي وحبوري(١٢)

وحين تستعيد الزمن الماضي (وهو زمان نسبي) لتلتقي بيوم مولدها، انما تعبر الزمن على جسر من الذكريات ، لتصل الى أيام الطفولة الحلوة التي حنت عليها ٠ (ولابد أن نعتبر أيام الطفولة ـ هنا ـ زمنا لعدم الاحساس بالزمان ومحتواه الشعوري) ، فهي انقى الايام واحلاها ٠ أيام الاحلام والظلال والخيال لا أيام الواقع والاحساس بالحياة طبعا ٠ أيام البراءة النقية نقاء الرمال ٠

أعبر العمر كله نحو أمسي
ويعود الشعور بي للتلال
مجلسي فوق تلي الحلو وحدي
أو شرودي بين الشذى والظلال
ومعي الطفولة الصديقة
نبني فوق وجه الرمال عرش الخيال
عمرنا قصة ولحن نغنيه
وقلبان في نقاء الرمال ٠

واذا لاحظنا أسلوب التعبير عن الزمان ومحتواه الشعوري عند نازك وجدنا أنها قد انتقلت خلال سنوات معدودة من شاعرة رومانسية الى شاعرة رمزية وانتقلت من التعبير المباشر عن هذه التجربة الى التعبير الرمزي الذي يوحي بالحالة النفسية ايحاء رمزيا ٠

ففي قصيدتها السابقة « ذكرى مولدي » المكتوبة سنة ١٩٤٦ ضمن ديوانها « عاشقة الليل » ، نلاحظ التعبير المباشر ٠ وهكذا تبدأ القصيدة :

جئت يا ذكريات شاحبة الوجه
حيارى في موكب الايام
جئتني والشباب باك بعيني
وحولي جنازة الاحلام
رغباتي دفنتها في ثرى الماضي
وقلبي ما عاد غير حطام

ولهذه القصيدة أهمية خاصة ـ في نظري ـ اذ انها ذات نزعة تشاؤمية طاغية ٠ يبلغ فيها التشاؤم ـ عند الشاعرة ـ أعلى درجاتـــه ويعطي كل مضمونه الشعوري ٠

وهذه النزعة التشاؤمية نفسها هي التي عبر عنها دييتس « W.B. yeats

وعن « يوم مولده » أيضا · في مسرحيته المسماة (الكلمات التي كانت على زجاج النافذة) ، حين عبر على نستان « سونيت » بقوله :

سحقا لليوم الذي ولدت فيه(١٣)

اننا نعيش أو نحب العيش لان هناك ما يربطنا بالحياة · وان حياتنا تتحدد في موقفنا من الناس وصلتنا بهم · فنحن نعيش لان بيننا وبين الناس علاقات وهذه العلاقات هي التي تبعث فينا ارادة الحياة · اما أن يرى الانسان ان ما حوله من البشر لا يرتبطون معه بأية رابطة ، فهو يرفض العيش معهم ···

ويؤكد على موقفه هذا باعطائه مبررات وجدانية أو امتناع وجداني ذاتي ·· اما ان الناس لا يفهمونه · أو انهم عبيد · أو لهم أخلاق العبيد أو (وجوههم متوترة مملوءة بالاوهام يتركز فيها اللا اهتمام وتملؤها المعاني الفارغة) ، على حد قول ت · س · اليوت في (الرباعيات الاربع)(١٤) · فمعنى ذلك أنه يرفض العيش معهم لانه يرفض العيش عيشة العبودية أو يرفض العيش في وادي العبيد · لانه يرى أن الرفض معناه تأكيد الحرية والارادة الحرة في الذات الشاعرة :

لا اريد العيش في وادي العبيد
بين أموات وان لم يدفنوا
جثث ترسف في أسر القيود
وتماثيل احتوتها الأعين
آدميون ولكن كالقرود
أبدا اسمعهم عذب نشيدي
وهم نوم عميق محزن ····

اليست هذه التماثيل التي احتوتها الاعين هي (الرؤوس المحشوة بالقش) عند ت · س · اليوت في « الرجال الجوف »(١٥) ؟ أليس هؤلاء الذين (تسمعهم عذب نشيدها وهم نوم عميق محزن) هم الرجال ذوي (الوجوه المتوترة المملوءة بالاوهام والمعاني الفارغة التي يتضخم فيها ورم اللااهتمام واللاتركيز) ، عند اليوت في (الرباعيات الاربع) ؟ اوليست « جنازة الاحلام » في المقطع السابق من القصيدة نفسها هي « جنازة الشباب » عند شاعر التشاؤم الانكليزي روبرت بروك (ت ١٩١٥م) في ديوانه (احزان المساء)(١٦) والتي مبدؤها هكذا :

في اليوم الذي يموت فيه الشباب
حيث يأتي الى مكانه من القبر ····(١٦) ؟

وقد كتبت نازك مؤكدة هذا المعنى — مع العلم انها كانت في ميعسة

الصبا وفي الثالثة والعشرين من عمرها – في قصيدتها (كلب ميت) ، المكتوبة (سنة ١٩٤٦) تقول :

نعم مات قلبي . اين احزان حبه ؟
أين امانيه ؟ أين اغانيه ؟
حرارته أضحت رمادا مهشما
واحلامه ذابت على صدر ماضية

وفي السنة نفسها وفي الديوان نفسه (صفحة ٦٦) تقول في قصيدتها (عودة العندليب):

قلبي الذابل مات
وذابت أحزانه ومناه
... الابيـــات .

والاحساس بالزمن الذاتي قد يبلغ درجة كبيرة عند الشاعرة ، بحيث تشعر بلحظاته ولكن أي لحظات ؟ انها لحظات كسلى تدقها الساعة ...! وحين تكون هذه اللحظات تجسيما واستعادة لذكريات : كانت قد نسيتها الشاعرة منذ أن حطمت الكاس التي ترمز الى الفرح والحبور والاستغراق في لحظات البهجة والسرور . أما اليوم فقد :

كان يوما تافها . كان غريبا
أن تدق الساعة الكسلى وتمضي لحظاتي
انه قد كان تحقيقا رهيبا
لبقايا لعنة الذكرى التي مزقتها
هي والكاس التي حطمتها
عند قبر الامل الميت خلف السنوات
خلف ذاتي(١٧) .

والشعور بالزمان الذاتي (أو النسبي) أصيل في نفس الشاعرة .. ولها قدرة بارعة على استعادة الزمان الماضي ... واستحضاره حتى يصبح قريبا وان مضى عليه عامان .

ففي قصيدتها (عندما انبعث الماضي)(١٨) استطاعت أن تسترجع الزمن الذي مضى عليه عامان دون أن نشعر بهذا البعد – حين نقرأ القصيدة – وكأنه الامس القريب :

انه الامس اذن عاد ليحيي من جديد
انه عاد اذن يطرق ابواب شرودي
اسفا يا شبحي عد للتراب
لم تعد تملك أن تطرق بابي
لم يعد يربطنا الا ركام من حدود

هوة أعمق من ذنبك ! ماذا
قد تبقى لك عندي غير هذا ؟
غير ذكرى عبرت يوما وعرت بوجودي

والامس الذي تعنيه الشاعرة ليس اليوم الفائت وانما هو امس من عمر الزمان ، امس الذي مضى عليه عامان • ولهذا فالشاعرة تقول بعد تلك الابيات :

وانقضى عامان ملعونان من أعوام حبي
مزقت روحي اظفارهما روحي وقلبي
لم تدع حتى شراعا من رجاء
ابدا لم تبق الا كبريائي

فهي في ديوانها « عاشقة الليل » شاعرة رومانسية تفضل التعبير المباشر على غيره وهذا طبيعي بالنسبة لاى شاعر شاب •• وهو الشيء المالوف •

اما في ديوانها – الثالث – (قرارة الموجة) ••• فهي شاعرة رمزية تفضل التعبير غير المباشر على المباشر • وقد ظهرت ملامح الرمزية في ديوانها الثاني (شظايا ورماد) • وقد كتبت في مقدمته تقول (ان النفس البشرية عموما ليست واضحة ، وانما هي مغلفة بالف ستر) • وقد يحدث كثيرا أن تعبر الذات عن نفسها باساليب ملتوية تثيرها آلاف الذكريات المنطمسة الراكدة في أعماق العقل الباطن منذ سنوات وسنوات • ومئات الصور العابرة التي تمر فيحدق فيها العقل الواعي ببرود وينساها نسيانا كليا • فيتلقفها العقل الباطن ويكنزها مع ملايين الصور التافهة ويغلق عليها الباب ، حتى اذا آنس غفلة من العقل الواعي أطلقها « صورا غامضة لا لون لها ولا شكل ») • وبهذا تقرر الشاعرة أهمية التعبير الرمزي (اولا) ، واصالته في النفس الانسانية « عموما » (ثانيا) •• ولكن التعبير الرمزي لا يتكامل من الناحية الفنية في شعرها الا في (قرارة الموجة) •

ولابد من كلمة – ولو قصيرة جدا[١٩] – عن وسائل التعبير الرمزي ليتضح لنا ما تعنيه بالرمز والرمزية ، ولانه يختلف باختلاف العصور فالرمز عند ابي تمام (مثلا) يختلف عن الرمز عند الصوفية في القرن السادس والسابع • والرمز في شعرنا العربي (القديم) غير الرمز والرمزية في الشعر الغربي وفي شعرنا الحديث • ولهذا فضلنا التعريف به وبالرمزية الحديثة . وموقفها من التجربة الشعورية ، لان الحديث عن « الزمن ومحتواه الشعوري » •

ان موقف الرمزيين من التجربة هو انهم يرون الصور تبدأ من الاشياء المادية على ان يتجاوزها الشاعر ليعبر عن اثرها العميق في النفس في البعيد من المناطق اللا شعورية • وهي المناطق الغائرة في النفس الانسانية، وبهذا لا ترقى اللغة الى التعبير عنها الا عن « طريق الايماء بالرمز المنوط

بالحدس » • وفي هذه المناطق لا تعتد بالعالم الخارجي الا بمقدار ما تتمثله وتتخذه منافذ للخلجات النفسية الدقيقة المستعصية على التعبير بحيث صار الشعر في ظل الرمزية يسعى الى خلق حالة نفسية خاصة والايحاء بتلك الحالة في غموض وابهام ، بحيث لا نستطيع أن نحلل عقليا تفاصيل المعاني التي يعبر عنها وان كنا نحس بالحالة النفسية التي صدر عنها

وما دامت اللغة ـ عندهم ـ رموزا للعالم الخارجي والعالم النفسي ، وكانت وظيفتها اثارة الصور المماثلة عند الغير واعانته على نقل عملية التأثر من نفس الى نفس ، فانهم يلجأون الى وسائل تغنى بها اللغة لتعبر تعبيرا ايحائيا •

من هذه الوسائل ما عبر عنه « بودلير » رائد الرمزية في فرنسا (١٨٢١ـ١٨٦٧) بكلمة « تبادل أو تعادل » Correspodance ولخص هذه الفكرة ببيت شعري يقول فيه :

« ان الالوان والروائح والاصوات تتجاوب فيما بينها »

ومعنى ذلك أن نصف مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات الحواس الاخرى • فتعطى المسموعات ألوانا ، وتصير المشمومات انغاما وتصبح المرئيات عاطرة • لان اللغة في أصلها رموز • اصطلح عليها لتثير في النفس معاني وعواطف خاصة • والالوان والاصوات والعطور تنبعث من مجال نفسي واحد • فنقل صفات بعضها الى بعض يساعد على نقل الاثر النفسي كما هو او قريبا مما هو • وبذا تكمل اداة التعبير بنفوذها الى نقل الاحاسيس الدقيقة •

ومن الامثلة على ذلك قول نازك الملائكة في (قرارة الموجة) من قصيدة (اغنية الى شمس الشتاء) :

أشيعي الحرارة والرفق في لمسات الرياح
ولفي جذائلك حول الفجاج الفساح
وهذا التحرق في شفتيك أريقي لظاه
على طبقات الثلوج الكثيفة فوق المياه
اذيبي بها قطرات الجليد
عن العشب عن زهرة لا تريد
فراق الحياه
فما زال فيها رحيق تخبئه للصباح

*

ومن دفء عينيك من ضوء هذا الجبين السعيد
أريقي عصير البنفسج فوق الفضاء المديد
ومن عطر هذا الضياء المذاب
اريقي على صفحات الضباب
ربيعا نضير

يحيل البرودة فيه الى دفء حب جديد
ولولاك يا شمس مات النشيد نشيد المروج
وجف رحيق الشذى تحت برد الشتاء اللجوج
ولولاك « ما كان أخشن مس الفضاء الرهيب » !
وهذي النعومة « هذا الضياء الرقيق » الغريب
لولاه كان يعيش الخيال ؟

ففي قولها (عطر الضياء) نرى تطبيق نظرية تبادل الحواس · حيث يعطي الشاعر مدركات حاسة الى حاسة أخرى · فالعطر من مدركات الشم ، بينما الضياء من مدركات البصر · ولكن قد يجلب العطر راحة للنفس تشبه ما يثيره الضياء من راحة نتيجة الاحساس بالجمال · ولذلك جاز للشاعرة أن تعبر عن العطر بهذا « الجامع النفسي » اللطيف ·

وفي « لمسات الرياح » تجمع بين عالم اللمس وعالم الاصوات أو مدركات اليد والاذن ، في وقت واحد ، فكأن الشمس حين تشع ، فتملأ الكون ، يهدأ صوت الرياح المرعب · فتصبح الريح مريضة ، ضعيفة تشيع الهدوء والراحة الى النفس ، كما تشيع اللمسة الراعشة الحانية الناعمة ·

ومن نفس المجال ، ومن عالم النفس الواحد ، انطلقت الشاعرة لتجمع بين الدفء الذي هو من عالم غير عالم النظر والبصر ، لان جمال العينين وهدوءهما يجلب للنفس ، كل ما تجلبه حرارة شمس الشتاء من متعة نفسية وراحة وجدانية · والفضاء والكون بلا شمس وبلا ضياء ، يصبح مؤذيا مؤلما كما يؤلم الشيء خشن الملمس · ولهذا عبرت عن ذلك المعنى بقولها تصف شمس الشتاء : (ولولاك ما كان أخشن مس الفضاء الرهيب !) · ثم الضياء الناعم الرقيق ···· ما اعذبه من تعبير ! ان الشمس أعطت هذا الضياء الذي لا خشونة فيه · ولا أذى ، ولا ادماء كادماء الشوك · بل نعومة ورقة تثير في النفس الاحساس بالراحة والبهجة والسرور · ولهذا جاز للشاعرة أن تجمع بين عالم المرئيات (بالعين) وعالم الملموسات (باليد) وتعبر عنهما بهذا الجامع النفسي الرائع الجميل ·

ومن وسائل التعبير الرمزي اضفاء شيء من الغموض والابهام على الصور الشعرية ، بحيث تتحدد بعض معالمها لتبقى فيها معالم أخرى غير محددة ولكنها موحية · « كالعينين الجميلتين تلمعان وراء النقاب » على حد قول (فرلين) · فلا ينبغي تسمية الشيء في وضوح لان في التسمية قضاء على معظم ما فيه من متعة · على ان يكون غموضا تشف عن دلالته بالتأمل ، لئلا تصير الصورة لغزا من الالغاز · ومعنى ذلك ان الشعر في نظر الرمزيين هو الذي يترك في نفس القارىء شعورا بعدم الاكتفاء ، ولا يقف منه القارىء الا على الظل وحده · « فليس الغرض من الشعر ـ كما يرى فرلين ـ الفكرة الواضحة والشعور المضبوط ، فمن الجميل

في الشعر أن يلبس ثوبا من الغموض » ٠

ونكتفي بمثال واحد من ديوان الشاعرة نازك : (قرارة الموجة) ، وهي قصيدة (الشخص الثاني) ، ففيه تطبيق هذه الوسيلة الثانية في وسائل التعبير الرمزي ٠ تقول نازك :

لو جئت غدا وعبرت حدود الامس الى غدي الموعود
وشدا فرحا بمجيئك حتى المعبر والباب المسدود
ولقيتك أبحث فيك عن المتبقي من أمسي المفقود
لو جئت ولم أجد المائل في الحاني
واطل على روحي منك الشخص الثاني
٠٠٠٠٠٠٠ الابيات

ومن أروع القصائد التي عبرت فيها نازك الملائكة عن الزمن هي قصيدة مائدة الماضي ٠ ففيها يبدو فن الشاعرة وقدرتها على تجسيم الزمن تجسيما حيا نابضا بالحياة ٠ فهو الذي جمع في صدره ذكريات الشاعرة ٠ وفي صدره « وسوست » (وما اعـذب كلمة وسوست في مكانها !) اشلاء الاماني ٠ وتسير الشاعرة رفيقة الامس لتطرق باب الماضي فتنتقي معه ويقول الزمان : (عادا الى الحب ، وعاد الفراق وهما كانا) ٠ وتخاطبه الشاعرة كما تخاطب الحي المدرك الواعي الذي ينصت اليها :

انتظرني ٠٠٠ غدا سيقذف بي الموج
الى شطك الغريب البعيد
ثم تمشي بي السنون الى بابك
بعد البحث الطويل المديد
وتراني خلف الزجاج
اجر الامس في لهفة المشوق العنيد
اتحدى الصخور في الشاطيء العاري
والوي شموخها بنشيدي ٠

وتمضي الشاعرة في لهفة ومرارة ، تبحث عن ذلك الامس : صديقها الذي سيرافقها الى شط الماضي : « الغريب البعيد » تبحث عن حبها المغدور (أو قل الغادر) :

ثم امضي ينير لي وجهك ٠٠ التاريخ
بحثنا عن حبنا المغدور
ذلك الامس لو عثرت عليه
لابث انتفاضة الحي فيه
وارتعاش الصدى ونبض الشعور
ثم نمشي معا اليك
الى شطك فوق الامواج بين الصخور ٠

وفجأة تصعد السلم ، ولكن أي سلم ؟ انه سـلم الذكريات التي

توصلها ـ والامس ـ الى الماضي البعيد ليطرقا الباب : باب الماضي ٠٠٠٠ فيلتقيان من وراء السدود والقيود : قيود الزمان والمكان ٠ ويعود الفراق وهما كان :

وترانا فجاة نصعد السلم
في لهفة وشوق كلانا
انا والامس كله نطرق الباب
غريبين لامسا الاوطانا
وتحس النجوم أنا رجعنا
نعصر الدهر لحظة من هوانا
ويقول الزمان : « عادا الى الحب
وعاد الفراق وهما كانا » ٠

وبهذا تصبح هذه القصيدة المثال الحي على قدرة نازك على الشعور بالزمن هذا الشعور الوجداني العميق المليء بالزمن والخيال والحيوية ٠

---

(١) اسوالد شبنغلر : تدهور الحضارة الغربية (ترجمة أحمد الشيباني) بيروت ١٩٦٤ ١ : ٢٥٨ ـ ٥٩

(٢) هنرى توماس : أعلام الفلاسفة (ترجمة متري أمين ـ القاهرة ١٩٦٤) ص٧٧

(٣) عبدالرحمن بدوي : الزمان الوجودي (القاهرة ١٩٤٥) صفحات : ٤٢ ـ ٩ ٠

(٤) شبنغلر : المرجع السابق

(٥) عبدالرحمن بدوي : المرجع السابق

(٦) نظرية اوغسطين عن الزمان مفصلة في المراجع الآتية : اعلام الفلاسفة : ١٨١ ـ ٢ الزمان الوجودي : ٨٦ـ٧ ، يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة : ٦٦ـ٧

(٧) اعلام الفلاسفة ١٨٢

(٨) Wege der deutschen Literatur (W. Berlin 1962) S. 118

(٩) تاريخ الفلسفة الحديثة ٤٢٣

(١٠) اليزابث درو : الشعر ، كيف نفهمه ونتذوقه (ترجمة محمد ابراهيم الشوش ، بيروت ١٩٦١) وقد خصصت المؤلفة فصلين أحدهما للزمن في الشعر والآخر للموت ٠ ولكن المدقق يرى أن الحديث عن الزمان امتزج بالحديث عن الموت والعكس صحيح ٠ وان لم تلاحظ المؤلفة ذلك ٠

(١١) انظر القصيدة بكاملها في
English Verse Vol. II, p. 139 chosen and Edited by W. Peacock
وترجمة الابيات أخذتها عن ترجمة محمد الشوش لكتاب الشعر السابق ذكره ٠

(١٢) نازك الملائكة : عاشقة الليل (ط ثانية ـ بيروت ١٩٦٠) ص١٤

(١٣) كولن ولسن : سقوط الحضارة (ط اولى ـ ترجمة انيس زكي حسن ـ ١٩٥٩) ص٦١

(١٤) كولن ولسن : اللا منتمي (ط ثانية ترجمة أنيس زكي حسن ـ ١٩٦٠) ص٢٨٣

(١٥) Modern Americon Poetry p. 395, Editted by Louis Untermeyer (New york 1958).

(١٦) روبرت بروك : أحزان المساء (القاهرة ١٩٦١) ص١٢١

(١٧) نازك الملائكة : شظايا ورماد (ط ثانية ـ بيروت ١٩٥٩) ص٧٨

(١٩) من أراد التوسع فليراجع : الدكتور درويش الجندي : الرمزية في الادب العربي (القاهرة ١٩٥٨) ، غنيمي هلال : النقد الادبي الحديث ، صفحات : ٤٢٥ وما بعدها

مارينر ٤ ـ أعظم انجاز علمي

من النصف الثاني من القرن العشرين

في الساعة ١١ر٤١ من يوم ١٤ تموز سنة ١٩٦٥ أخذت مركبة الفضاء الامريكية « مارينر ـ ٤ » ترسل أول صورها التي التقطتها بعد أن أصبحت على بعد ٥٧٠٠ ميل من الكوكب المذكور في رحلتها التاريخية التي تعد أعظم انجاز علمي في النصف الثاني من القرن العشرين .

وقصة هذه المركبة الفريدة تستحق التسجيل لاهميتها العلمية الكبيرة ولطرافتها . فهي أول رسول من الانسان الى الاجواء البعيدة . وهي أول نجاح تطبيقي أكمل مراحله كلها وأدى المطلوب منه على وجهه الصحيح حسب البرنامج العلمي . فقطعت (٣٥٢) مليون ميل من الفضاء السحيق ، لاول مرة في التاريخ .

بدأ الاستعداد لهذا المشروع العلمي منذ سنوات وانطلقت المركبة منذ ثمانية أشهر ، وهي مكونة من (١٣٨٠٠٠) جزء للقيام بالمهمة المطلوبة منها، وهي مهمة تصوير كوكب المريخ من أقرب مسافة ممكنة لمعرفة ما يمكن معرفته من أحواله الطبيعية والعلمية بصورة متقنة .

وقد صممت هذه المركبة ـ وهي لا تتجاوز في حجمها القارب المتوسط. ولا يزيد وزنها عن ٥٧٥ باونا ـ على أساس أن تقضي بقرب الكوكب (٢٥) دقيقة ، وتكون أقصى مسافة قريبة منه تتوصل اليها هي حوالي ميلين ، تصور في هذه المدة (٢١) صورة لهذا الكوكب .

وقد جرت جميع مراحل الاطلاق حسب الخطة المرسومة . واتجهت المركبة في طريقها طيلة هذه المدة التي استغرقت شهورا عديدة وهي تحت رقابة العلماء ثانية فثانية .

وقد حصلت بعض الارتباكات في خط سير المركبة عدة مرات ، واستطاع العلماء المختصون أن يعدلوا سيرها ، واستجاب العقل الالكتروني فيها الى ارشادات العلماء ، وقالت « ريدرز دايجست » ـ المختار ـ في مقالها حول الموضوع ، أن جواب المركبة لتلك الارشادات كان بمثابة «نشكركم» !

وفي الوقت المحدد لايقاظ العقل الالكتروني في المركبة الذي ظل نائما طيلة تلك الشهور الطويلة التي استغرقتها رحلة المركبة ، أرسل العلماء

ارشاداتهم لايقاظه ، فاستجاب لهم وشرع في العمل فورا ، واعطى الاشارة المعهودة لذلك ·

وكذلك في الوقت المحدد لاطلاق الصور أخذت المركبة في انجاز مهمتها على الوجه المطلوب ، وبذلك تمت أعظم تجربة كونية في خلال النصف الثاني من القرن العشرين على النطاق العلمي ·

× ×

قال الكاتب الانكليزي المعروف ارثر كلارك عن سنة (٢٠٠٠) بعين المؤرخ في ذلك الحين :

« ان القرن العشرين كان بلا منازع أعظم مائة سنة في تاريخ البشرية · فقد افتتح بالسيطرة على الجو ، وقبل أن يستهلك نصف تلك المدة استطاع أن يقوم بأعظم تحد أتت به المدنية ، ونعني به السيطرة على الطاقة الذرية ، ومع ذلك فان هذين الحدثين المهمين سرعان ما طغت عليهما احداث جسيمة أخرى ·

« فنحن بعد الف سنة من ذلك القرن نرى أن القصة كلها قبل القرن العشرين تبدو كأنها مقدمة لتمثيلية كبرى ، يجري تمثيلها على حافة المسرح وقبل أن ترفع الستارة ، فمنذ أجيال لا حصر لها كانت الارض ــ ذلك الكوكب الصغير المزدحم ــ هي كل العالم ، والبشر هم الممثلون الوحيدون ، ومع ذلك ، وقبل أن ينتهي ذلك القرن العجيب ، بدأت الستارة ترتفع رويدا رويدا ، وأدرك الانسان أن الارض لم تكن الا واحدة من عوالم كثيرة ، وأن الشمس ليست الا واحدة بين النجوم العديدة · وجاء مع الصاروخ ختام مليون سنة من العزلة ، ومع نزول أول سفينة فضاء على المريخ والزهرة انتهى عهد الطفولة لجنسنا البشري ، وبدأ عصر التاريخ الذي نعهده » ·

وقد يبدو هذا الكلام من قبيل الظنون العلمية أو الخيالات التي يسعى الانسان الى معرفة امكانات تحقيقها · ولكنه في الواقع كلام علمي يأخذه العلماء المختصون على أساس انه « منهاج عمل » للسنوات القليلة المقبلة ·

وقد بدأ المشروع بالطبع بالنسبة للذهاب الى القمر على أساس أنه أقرب الكواكب الى الارض · ويقول (فون براون) الخبير المعروف في اخر تصريح صحافي له ما يأتي بالحرف الواحد :

« أن الانسان سوف يستطيع أن يعيش فوق سطح القمر في سنة ٢٠٠٠ بطبيعة الحال » ·

وقد شرح المشروع العلمي الذي تسير عليه مجموعات العلماء الاختصاصيين في هذا الصدد بقوله :

« ان العلماء ، والمهندسين ، والفنيين سوف يعيشون في مختلف القواعد المبثوثة على سطح القمر ، ويزورون جيرانهم بالسفن الصاروخية · وسيقوم زوار القمر هؤلاء بعمل منوع من البحث العلمي والصناعي

والتجاري ، وسوف يكون في وسعهم أن يتزودوا بما يحتاجونه لحياتهم أو أغلبــه » ٠

وزاد على ذلك قوله :

« ان رحلاتنا الى القمر الان تشبه في الحقيقة البعثات الكشفية الصغيرة عندما يرسل الجيش بعض طلائعه الكشافة لمعرفة طبيعة الارض التي ينوي اختراقها ٠ فسوف ترسل بعد الان موجة بعد أخرى من العلماء والاشخاص المدربين للاطلاع والقيام بالتجارب العلمية المطلوبة من وراء هذه الرحلات »٠

ويؤكد هذا الرجل الاختصاصي أن في وسع الانسان أن ينقل مدنيته الى الكواكب الاخرى بعد أن يكون في وسعه الوصول اليها ٠

× ×

أما أهميــة رحـلة (مارينر ــ ٤) فهي أنهــا استطاعت أن تكمــل برنامجا علميا طويل الامد ، وبدقة تكاد تكون تامة ٠ فقد تاخرت عن موعدها المحدد لها لاجتياز الكوكب بمدة ثماني دقائق ، وبمدة (١٢) دقيقة ونصف عند الطلوع ، وذلك لانها كانت مبتعدة قليلا عن خط سيرها الذي ساقها اليه العلماء الاختصاصيون على الارض سوقاً ٠

وقد قدر هؤلاء العلماء للصور التي تاخذها المركبة الفضائية أن تكون أحسن بمائة مرة من الصور التي أخذت للكوكب قبل الان بالتلسكوبات الكبيرة الموجودة في المراصد ٠ وهذه في الواقع هي مهمة هذه الرحلة العلمية الفريدة التي كلفت مبالغ خيالية أنفقتها الولايات المتحدة بكل رضى للوصول الى هذه المعلومات ٠

وسوف ترسل المركبة (٢١) صورة لكوكب المريخ تاخذها خــلال ثلث الساعة او تزيد عند مرورها بالقرب من الكوكب ، وتعيد ارسالها الى الارض ، ويستغرق ارسال الصورة الواحــدة حوالي ثماني ساعات كما يستغرق اكمال ارسالها حوالي عشرة أيام ، ودراستها كلها حوالى ثلاثة أسابيع ٠ أي أن القارىء سيكون على علم يكاد يكون تاما بنتائج هذه الرحلة العلمية عندما يقرأ هذا المقال حين صدور المجلة ٠

× ×

والواقع أن الهدف العلمي المباشر لرحلة (مارينر ــ ٤) هو هدف فلكي يريد العلماء الاختصاصيون من ورائه معرفة كل ما يتعلق بجو المريخ وما اذا كان فيه أي نوع من أنواع الحياة المعروفة لدينا ٠

ولكن هذا الهدف الصغير يتضاءل أمام الانجاز الحقيقي الذي توصلت اليه البشرية بعد نجاح عملية (مارينر ــ ٤) الذي أثبت أمرين مهمين :

أولهما : صحة الارقام الفلكية التي كان العلماء متأكدين منها بالطبع ، ولكن (مارينر ــ ٤) جعلت هذه الارقام حقائق علمية ٠

وثانيهما : نجاح تجربة السيطرة العلمية من الارض على السياحــة الفضائية ، وامكانية توسيع هذه السيطرة في المستقبل ٠

ومن باب تسجيل الوقائع العلمية بنسقها التاريخي نذكر أن رحلة (مارينر ـ ٤) لم تكن الوحيدة ، فقد أطلق الروس مركبة مماثلة بعدها بيومين فقط ، ولم يكتب لها النجاح ٠

× ×

أن سيطرة الانسان على الفضاء الاوسع لا تزال مع كل ما جرى وتم من نجاح في هذا المضمار ، تعد من المراحل التطبيقية الاولى ، ولابد من أن يتسع المجال للقيام بالاعمال الجسيمة الكبرى لكي يكون في الوسع القول أن الطريق قد أصبح ممهدا ٠

وأول هذه الامور الضرورية هي (المحطات الفضائية) الثابتة التي تغذي خطوط التنقل الجوي ـ الفضائي في مسالك المجرة ٠ وهو أمر يجب ان لانضعه في حيز الممكنات بالسهولة التي شهدناها في (مارينر ـ ٤) لاسباب كثيرة ٠

أما الامور الاخرى فهي ـ بالطبع ـ كثيرة جدا ومعقدة ، وفي مقدمتها اعداد جيل من البشر الفضائي الذي يكلف الواحد منه ملايين الدولارات ٠ فبدون رجال فضائيين لا يمكن القيام بأية خطوة علمية حتى وان تيسرت الامكانيات الاخرى ٠

والواقع أن هذه الانجازات لا يمكن التوصل اليها بالطرق الحالية ، أو على الاقل لا يمكن أن ننتظر انجازها من جانب واحد ينفرد في العمل والانفاق على هذه المشاريع التي تستهلك الجهد الانساني والاموال الطائلة ٠ وما لم يتكاتف العلماء في الشرق والغرب معا على توحيد الجهود ، وما لم يتفق الطرفان على تنسيق الاعمال والانفاق المشترك ، فان الهدف سيظل بعيد التحقيق محاطا بالمصاعب والمشاكل ٠

أن أكثر العلماء الاختصاصيين يرون أن التقدم الذي وصلت اليه بحوث الفضاء متأخر عن أوانه كثيرا ٠ ويرى البعض الاخر أن عهد (المكارثية) وجنونها الفكري قد أخر هذا العلم في أمريكا لان أغلب المتخصصين فيه عوملوا بقسوة في تلك الظروف ، واتجهت اليهم الشبهات فلم يجرأوا على الاستمرار في تجاربهم التي تكلف المبالغ الطائلة ، وبذلك تفوق الروس على الامريكان فاطلقوا (سبوتنك) الاول في الوقت الذي لم يكن لدى هؤلاء أي استعداد على نطاق واسع للسير في هذا الاتجاه العلمي على نفس الخط ٠

ولكن قدرة الولايات المتحدة على الانفاق السريع وعلى نطاق واسع ، قرب الفجوة شيئا فشيئا ، حتى جاءت رحلة (مارينر ـ ٤) فجعلت الكفتين تتعادلان ٠

وكل ما نملكه الان هو أن ننظر بتفاؤل الى مستقبل فضائي قريب تتحد فيه جهود العلماء في الشرق والغرب لاظهار قدرة الانسان في هذا المجال ٠

من الادب الاذاعي

الهدف الكبير (*)

جميل الجبوري

المسمع الاول

مصطفى — (من منتسبي جيش التحرير الفلسطيني) في ميادين الجهاد
سـالم —

« يسمع ازيز رصاص »

سـالم : ماذا ؟ اصوات بنادق تطلق ...

مصطفى : وماذا في الامر ... لقد صار ازيز الرصاص من الانغام المكررة على اسماعنا

سـالم : هكذا ؟

مصطفى : هكذا ارى على الاقل ، أو قل هذا هو انطباعي

سـالم : منذ متى وانت في جبهات القتال يا عم مصطفى ؟

مصطفى : (يتنهد) انها يا سالم يا بني ذكريات ... ذكريات تنكأ جروحا عميقة في أغوار نفسي ...

سـالم : هل لك في برتقالة يا ابا محمود ، لاحظ ، كانها من برتقال يافا الشهي .

مصطفى : وتذكرني بذلك أيضا ، يافا ... واهلي ... والبيارة ... وسعاد ..

— يتلاشى صوته مع موسيقى الفاصل —

(*) اذاعتها جميع محطات الاذاعة في العواصم العربية في برنامج « اللقاء العربي » الذى اعدته دار الاذاعة العراقية مساء ٢٦-٤-١٩٦٥ .

انتقالة الى /

مصطفى

زينب

والدهما ـ في (يافا) بفلسطين

زينب : اسمعت يا مصطفى بآخر الاخبار ٠٠

مصطفى : هل من جديد ؟

زينب : تصور يا أخي ، تقول الاخبار ان اليهود نصبوا في (مانهاتن) احدى جزر نيويورك بأمريكا مكبرات الصوت على السيارات الكبيرة وراحوا يتوسلون الى الامريكيين ان يعطوهم دولارا لكي يقتلوا عربيا

مصطفى : هكذا ؟ ٠٠٠

زينب : وماذا تنتظر اذاً من اليهود !

مصطفى : هذه الفرية الكبيرة على التاريخ ٠٠ كل المصادر تدحض بالدليل القاطع الخرافة الصهيونية التي تقوم على العرقية وتدعي ان اليهود متحدرون من أصل واحد نزح عن فلسطين

زينب : المسألة مسألة اطماع عدوانية ٠٠٠ والتاريخ يؤكد ان اليهود السلافيين الذين سكنوا امارة (كييف) على الدنيبر اعتنقوا اليهودية اعتناقاً لاسباب تجارية وسياسية محضة ٠

مصطفى : هذا أمر معروف ٠ وقد فعلت مثله قبائل (الخزر) التي كانت تقيم في الشواطيء الغربية من بحر قزوين ٠٠٠ وغيرهم ٠٠٠ وغيرهم كثير ٠٠٠

زينب : انهم يعتنقون ديانتهم لاسباب نفعية ، وينتشرون في الاقطار ، ثم يأتوننا بهذه الهرطقة الكبرى ، خرافة وطن اليهود القومي في فلسطين

مصطفى : اي ٠٠٠ دنيا ٠٠٠ ولكن لن يغلب الباطل الحق

ـ يدخل الأب ـ

الأب : (بصوت غاضب) هكذا ! ٠٠ عشنا حتى رأينا ٠٠٠ ما هذا الباطل المفجع يا عالم

زينب : ماذا يا أبي ؟

مصطفى : طاب مساؤك يا ابي ٠٠٠ ما الأمر الذي اغضبك ؟

الأب : وأي وقت يطيب لنا يا بني ، ونحن نلقى الذي نلقاه ٠٠٠ تصوروا ، سماسرة اليهود يأتونني بكل وقاحة يريدون ان ابيعهم بيارتي !!

زينب : هكذا ؟ لقد بدأ الغزو اذاً من عقر دارنا

مصطفى : هذا جزء من مخطط عملهم العدواني ٠ ان سمسارهم اللعين (حبيبم) حاول اغراء الكثير من أصحاب الاملاك ، ببيعها ، في مدينتنا ٠

الأب : انها بادرة خطرة ، لابد ان نقف امامها الموقف الصاب الذي لا يعرف الوسط

مصطفى : يجمعون التبرعات لقتلنا ويريدون اغتصاب ارضنا ويتآمرون على وجودنا بأخس السبل وأحقرها ٠٠٠ أما لهذا الليل من آخر ٠٠٠

الأب : كيف لا ٠

مصطفى : ابي ، لي عندك رجاء

الأب : ماذا يا مصطفى

مصطفى : اريد ان التحق بفصائل الكفاح

الأب : اتسمي هذا رجاء ٠٠٠ هذا واجبك يا بني ٠٠ واجب كل فلسطيني يؤلمه هذا السرطان الخبيث الذي يدب في جسم وطننا ٠

مصطفى : بورك فيك يا أبي

الأب : وانت يا زينب ، هل من موقف لديك حيال الامر ٠٠٠ أم ان للفتيات رأياً آخر ٠

الأب : كيف يا ابي ٠٠٠

الأب : ها ٠٠ ها ٠٠

زينب : انني منصرفة الى واجبي الوطني منذ مدة ٠

الأب : هكذا ؟!

زينب : وكيف اسكت اذا يا ابي ٠٠٠ انني في الواقع جندت كل طاقاتي لخدمة حركة الكفاح ٠٠

الأب : وهل حققت شيئا ؟

زينب : سنحقق بأذن الله

الأب : انني اريد منكم أكثر من هذا يا اولادي ٠٠ انا لا اوصيكم بان تحافظوا على البيت والبيارة من اغراء أموال اليهود فقط ٠ ولا اكتفي منكم بمجرد العمل العابر ، لا ، انني اريد فداء ، فداء من أجل عيش كريم والا فالموت أفضل من حياة الذل هذه

مصطفى : وحقك يا أبي ٠٠ وحق وطني ، ساحمل روحي على راحتي ٠٠

ـ انتقالة سريعة ـ

مصطفى ـ سعاد « خطيبته » ـ

سعاد : مصطفى ، ما هذه الاخبار ؟

مصطفى : أي اخبار يا سعاد !

سعاد : هذه التي سمعتها عنك ..

مصطفى : ماذا قيل لك ؟

سعاد : اصحيح انك التحقت بفصائل الجهاد ؟

مصطفى : وهل في ذلك ما يضير ؟!

سعاد : لا بالعكس ، ... لكن ...

مصطفى : لكن ماذا ؟

سعاد : اما إتفقنا على أمور أخرى يا مصطفى

مصطفى : على أمور أخرى ، أية امور تعنين ؟!

سعاد : مصطفى (تجهش) انني أخاف عليك ، .. لقد احببتك يا مصطفى وربطت مصيري بمستقبلك ...

مصطفى : وانا ما كرهتك يا حبيبتي قط . وسأبقى ذلك الوفي المخلص ، لكن هناك كما تدرين ، ما هو أهم من الحب .

سعاد : أهم من الحب ! ما هذا الكلام ، أي شيء أهم من حبنا يامصطفى!

مصطفى : قضية وطننا يا سعاد ، وطننا المهدد بالاغتصاب ، أي حب بل أية حياة تبقى لنا ان اغتصب اليهود وطننا ؟

سعاد : انك مصمم اذاً ؟

مصطفى : ليس هذا فحسب

سعاد : بل ماذا أيضاً ؟

مصطفى : أريدك أن تؤدي الواجب انتي كذلك .

سعاد : وما الذي استطيع ان افعله انا ، فتاة لا حول لي ولا قوة ، هل استطيع ان احمل السلاح واحارب في ميادين القتال ؟

مصطفى : ان حركتنا في حاجة لكل الخدمات ، حتى الصبية يستطيعون ان يخدموا قضية الوطن ، وامام الفتيات دورهن الكبير .

سعاد : هكذا !

مصطفى : طبعا .

سعاد : وهل استطيع ان اعرف دوري ؟

مصطفى : شكرا لك يا سعاد .. لقد ربطت علاقاتنا بالف وثاق ، نعم ، تستطيعين وبكل سرور ، تعالي معي

سعاد : الى اين ؟

مصطفى : اعرفك على اختي زينب ، فهي واحدة من اللواتي يؤدين دورهن الوطني ، وسترسم لك الطريق .

ـ فاصل موسيقي ـ

في الميدان/

أحمد ـ قائد منظمة الجهاد ـ ومصطفى

أحمد : مصطفى ·
مصطفى : نعم يا سيدي
أحمد : هل تلقيت اشعارات جديدة
مصطفى : لا يا سيدي
أحمد : ما هذا الصمت الغريب ···
مصطفى : صحف العالم كلها تتحدث عن مذبحة دير ياسين
احمد : وهل هي في دير ياسين وحدها ؟!
مصطفى : تلك هي المسألة يا سيدي ، كأن لم تكن مذابح الصهاينة في قرى « نصرالدين » و « بيت الخوري » و « الزيتون » و « بيت دارس » ·
احمد : كيف لا ، هل نسينا مذابح الارهابيين من الهاغانا ومن لف لفهم · أي ، من يدري كيف ستسير الامور ، ··· ترى ، لم هذه القطيعة من قيادتنا ·
مصطفى : لعلها مغلوبة على امرها
أحمد : ماذا تتوقع ؟
مصطفى : لا ادري بالضبط يا سيدي ··· لكن نفسي تحدثني بالكثير
أحمد : مثل ماذا؟
مصطفى : ان في الجو لقتامات تنذر بما لا تريد ·

ـ تقرع الباب ـ

ـ يدخل (هاشم) احد المكافحين ـ

أحمد : ادخل
هاشم : (صوت حركة ادائـــة التحية العســكرية) ··· مساء الخير يا سيدي
أحمد : أهلا بك ، هل من جديد يا هاشم ؟
هاشم : ما لا يسرك يا سيدي
أحمد : هكذا ؟
مصطفى : كل ما أخشاه ان تكون الفكرة اللعينة قد وضعت موضع التنفيذ ·
أحمد : فكرة الهدنة ؟
مصطفى : هذا ما اخشاه يا سيدي
هاشم : بل هو الواقع المريع ·
أحمد : يا لله ·· ماذا ؟ هل جن جنونهم ام فقدوا قابلية التمييز · ان الهدنة تعني خسارتنا المعركة بشكل قاطع ·

هاشـم : هذا هو المفجع في الامر ·
مصطفى : غـداً ستنهال المساعدات من انكلترا وامريكا وغيرهما على الصهاينة ، ستكون الهدنة فرصة مواتية لليهود لتحشيد قواهم وتجميع فلولهم ··· كيف ارتضت القيادات كل هذا ؟!
هاشـم : هذا ما يتسال عنه الجميع ·
أحمـد : انها لخيانة وقحة ·
مصطفى : ومن المسؤول يا سيدي عنها ، ان الموضوع اخطر من ان نساوم عليه ··· انه مستقبل شعب ومصير أمة ·
أحمـد : انها الحكومات ، المسؤولية تترتب عليها بشكل مباشر ··· وسيحاسبها التاريخ على هذا الموقف الشائن ·
مصطفى : بل سوف تحاسب قريباً ، هذه قناعتي
هاشـم : ولم لا
مصطفى : ان الشعوب لا تغفر خيانة الوطن ·

ـ موسيقى فاصل ـ

، عودة الى المسمع الاول

مصطفى
سـالم ـ في ميدان جبهة التحرير

سالم : انه لتاريخ حافل ·· ترى كم لقيتم يا عم مصطفى من اهوال ··
مصطفى : يشيب لها الولدان ، كما يقولون ، ـ يا بني ـ ولكننا لم نصل الى نهاية المطاف بعد
سالم : سنصلها انشاء الله ·
مصطفى : وتلك عقيدتي انا ايضاً ، فواقع اليوم هو غير واقع الامس ، ولم يعد هناك حكام يتاجرون بالاسلحة الفاسدة ولا قيادات تساوم على الهدنة ··· لقد قال الشعب العربي كلمته في كل ذلك ·
سالم : كان أبي ـ رحمه الله ـ يقول لي ، وكنت لم أزل صبيا ـ وهو يشير الى الجبل المطل على قريتنا ·· سنحرر هذا الجبل ، سنجعله عربيـا ·· ولكنه مات وظلت الامنيـة حبيسة في صدره ·
مصطفى : تلك هي مهمة الابناء يا ولدي ·
سالم : وهذا ما احسه بالضبط ·
مصطفى : اي ··· كانت أيام حافلة بالذكريات ··· برتقال يافا ··· والبيارة ··· وبيتنـا السابع ابدا في ألق الشمس ، ··· حديقته المزدهرة ··· أشجار اللوز والمشمش وعطر القداح ··

سالم : ها يا عم ... مالك انسقت هكذا مع الذكريات
مصطفى : لقد نكأت جروحا في قلبي يا بني ... آه لو دريت ما اعاني ..
سالم : (مواسيا) ولكنك لم تحدثني عن تلك البدايات

« يسمع أزيز رصاص »

سالم : ها ، ماذا ؟
مصطفى : ليس ثمة جديد ، فدائي يقتل أو يقتل .
سالم : لنتأهب ، أليس من الافضل ان نتأهب ؟
مصطفى : طبعا ... دعني يا بني اختصر لك بقية الحديث

« تسمع أصوات دوي عالية »

سالم : لندعه الآن الى فرصة أخرى ، يبدو ان وضع الفدائيين محرج
مصطفى : هذا صحيح . ولكنني أود ان اكمل حديث الذكريات ... سألتني عن البيت وسعاد والبيارة ... نعم يا بني (يتنهد) ..

« يشتد أزيز الرصاص » .. « مؤثرات موسيقية »

لقد تزوجتها يا بني ... تزوجتها بعد الهدنة اللعينة ، وانجبنا ولدا (يتنهد بعمق) ... ولكنه مات ايضا برصاص اليهود

« المؤثرات تشتد »

سالم : يا الله ، كيف ، لا . هل كبر حتى شارك في الجهاد !
مصطفى : لا يا بني ، لقد مات رضيعا ... كنت احمله على صدري عندما فتح علينا اليهود النار ونحن في هجرة من قرية الى اخرى على الحدود ... لقد صبغت دماه ملابسي ... مات بصمت ودفنته بصمت تحت شجرة زيتون يتيمة (يتهدج صوته) .. انك لو قدر لك المرور من هناك لوجدت قبره الصغير ... واستحلفك بالله ان تهز الشجرة عنها تظلل القبر بأوراقها ... (يكاد صوته ان يختنق)
سالم : يا عم مصطفى ، مهمتنا ازفت الآن ، اسمع ..

« يسمع دوي شديد »

مصطفى : انا متأهب لها يا بني ، لقد جندت حياتي لها ، فماذا بقي لي ، حتى وصية والدي لم استطع ان انفذها .
سالم : وصية والدك ؟

مصطفى : نعم ، اما اوصاني ان احتفظ بالبيت ··· والبيارة ·· اين هي الآن ، بل اين وطني فلسطين ، وكيف ارضى ان يسلبه اليهود !

« دوي ومؤثرات »

سالم : يا عم مصطفى ، لقد فاجأونا ··
مصطفى : تماسك يا بني ، استعد (بلهفة) خذ حذرك

« اصوات طلقات »

قتل اللعين ···

« طلقات ودوي »

سالم : يا الله ، لقد افنيتهم يا عم ·· انك لرائع التهديف

« تستمر المؤثرات/جو مقابلة حربية »

مصطفى : هاجم يا سالم
سالم : خذ حذرك ··· آه ، ماذا ؟ عم مصطفى ··· يا عم مصطفى ··· هل أصبت ؟!
مصطفى : « بصوت مصاب » نعــــم يا ولدي ، واظنها القاتلـــة ··· لقد استهدفني الوغد ·
سالم : ولكنك افنيتهم جميعا ، كيف أفلت هذا المجرم ؟
مصطفى : هذه طبيعة الجهاد يا بني
سالم : عم مصطفى (يختنق صوته) يالله ··· اسفي عليك يا بطل ··· أبختتم كل جهادك بطلقة غادرة ···

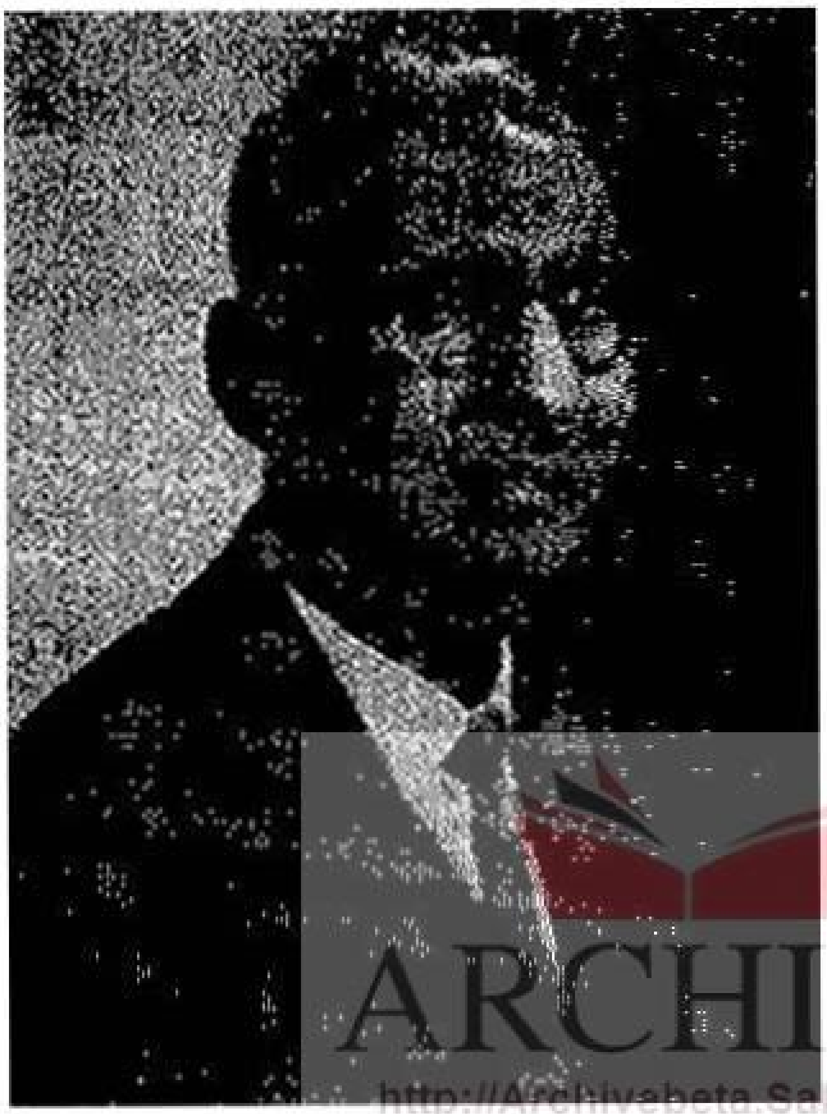
« يواصل ازيز الرصاص »

مصطفى : سالم ، بني ، اتعدني لكي أموت قرير العين ··
سالم : انني على أتم الاستعداد لكي أموت من اجلك يا عم ·· يا انموذج التضحية ·
مصطفى : لا يا بني ، لا تمت من أجلي ··· كل ما اريدك ان تعمله هو ان تحمل الراية وتسير على الدرب ··· واصل الجهاد من اجل تنفيذ ما مات آباؤنا من اجله ··· وما ضحينا في سبيله ، فالمهمـــة مهمتكم ، انتم جيش التحرير ، معقد آمال المشردين ···
سالم : انها رسالتنا يا عم ·
مصطفى : لتكن رسالة الجميع يا ولدي ·· لتضعوا دائما نصب اعينكم ذلك الهدف المقدس ··· الهدف الكبير ···

« تسمع حشرجة/تختلط بأصوات اطلاقات الميدان »

الختـــام

لقاء مع الفنان



هاشم محمد الخطاط

كان لقاء هذا الجزء من الاقلام مع الفنان المعروف الاستاذ هاشم محمد الخطاط . وقد تناول الفنان في حديثه اصالة عراقية فن الخط العربي والتطورات التي اتسم بها عبر العصور . وسجل رايه في نتاجات الفنانين القدامى والمحدثين .

قال الفنان هاشم الخطاط :

بقدر ما يتعلق الامر بعراقية فن الخط العربي لا بدلي من أن أقدم الاسانيد التاريخية كدليل على ما أريد تأكيده

فالمعروف ان اول تسمية للخط العربي في عهد الخلفاء هي (الخط الكوفي) فعندما تأسست مدينة الكوفة في أثناء الفتح الاسلامي ابتدأت هجرة أهل الحيرة اليها ، ولكونها مدينة مأهولة ومقرا للقوات الاسلامية فقد نمت الحياة العامة فيها بسرعة الامر الذي فسح المجال أمام هواة فن الخط للابداع . وقد حفظت (السلسلة الخطية) أو ما يسمى ب (سلالة الخط الحيري) أسماء الكثير من مبرزيهم .

وفي اثناءخلافة الخليفة الثالث ابتدأ بتسجيل القرآن الكريم وخطه على رق الغزال والجلود الاخرى ، وقد اظهرت التجارب ان أحسن الخطوط واجودها هي خطوط أهل الكوفة

لذلك اجمع الرأي على ان تكون كافة الكتابات العربية والاسلاميه بخطهم الذي سمي منذ ذلك الحين ب (الخط الكوفي) .

ثم تطورت الحالة الثقافية والعلمية واطلع الاعراب على ما رأوه في البلدان المفتوحة في العهد الاموي وصدر الدولة العباسية . كما وفد الى الكوفة الكثير من الاعاجم الذين دخلوا الدين الاسلامي . وكان بينهم الصاغة وعمال التذهيب والنجارة .

ولقد تكونت طبقة مميزة من الكتاب العرب والاعاجم دب فيها النشاط واتسع نطاق التنافس على الابداع والتفنن الامر الذي أوجد أنواعا متعددة من فنون الخط منها (كوفي القرن الاول)وهو الذي يسميه البعض الكوفي القرآني و (كوفي المساجد) وهو الذي يتصف بالمستقيمات الثابتة و (كوفي عناوين المصاحف) و (الكوفي الشطرنجي) وهو الذي يعتمد المربعات ثم كوفي المآذن .

ومنذ القرن الثالث ابتدأ الكتاب بزيادة أنواع الخط الكوفي الى ما يقارب السبعين نوعاً ومن هذه الانواع (الاندلسي والمغربي والفاطمي والمماليكي وكوفي بغداد) وقد تطور هذا النوع الاخير الى ابعد الحدود وشمل عشرين شكلا من الاشكال الخطية .

وعندما استنسخت الكتب الخطية اختزلت قواعد واستنبطت اخرى فوجدت الاشكال الجديدة مثل (قلم الريحان وقلم الغبار وقلم المسلسل وقلم النسخ وقلم الرقاع) .

وعلى هذه الاسس واقتباسا من اشكال الشجرة والحيوان ثبت المؤرخون اسس وقواعد الخط .

وكان الرائد في هذا المجال الوزير (ابن مقله) ثم جاء من بعده (ابن البواب) فياقوت المستعصمي وعبدالله الصيرفي وهم — جميعهم — من بغداد . ففي بغداد رسمت هذه الخطوط ونقحت أشكالها وثبت قواعدها وأصولها . ومنها انتشرت في البلدان العربية والاسلامية .

والمعروف انها أخذت من العراق متأخرة بما ينوف على القرن من زمان وجودها .

وبعد سقوط بغداد نقل فن بغداد الخطي الى الدولة العثمانية وبلاد فارس ومصر وسوريا الحجاز .

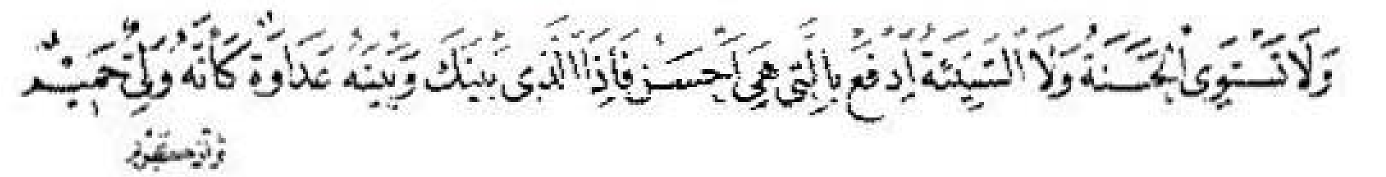
والواقع ان العثمانيين بالدرجة الاولى ومن ثم الفرس هم الذين اجادوا الفن وابتكروا فيه . اما مصر فقد بقيت مقلدة لفن بغداد لأمد بعيد .

فالاتراك الذين أخذوا فن الخط البغدادي لم يبقوه كما أخذوه ، انهم اضافوا عليه لمسات من الفن الجميل والرونق البديع وكذلك كان الحال في بلاد ايران .

ولقد أصاب المستوى الفني لفن الخط العربي في العراق ضعف بارز بعد سقوط بغداد ذلك ان الكثير من المبرزين في هذا الميدان قتلوا أو ادركهم الموت ومن بقي منهم هاجر الى المراكز الاسلامية الكبرى المكتظة بالسكان في تركيا وايران ومصر حيث الطلب على الفن أكثر ومجال العيش أوسع .

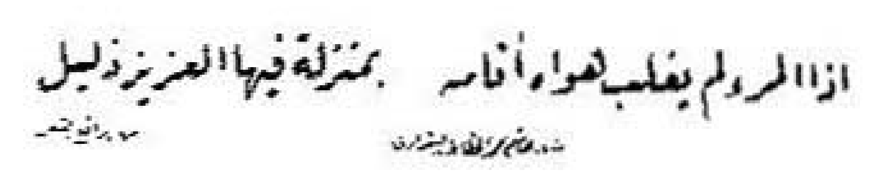
لذلك اتسمت خطوط الخطاطين الذين مارسوا فن الخط في هذه الفترة ببغداد بالضعف ولقد شاهدت أنواعا كثيرة من فنهم وكانت كانها من كتابات كتاب القرنين الثاني والثالث للهجرة

هذا بالوقت الذي تطور فيه فن الخط واتسع الابتكار فيه في البلاد التركية . وظلت الحركة كذلك حتى القرن الحادي عشر الهجري حيث جاء الخطاط الشهير اسماعيل البغدادي وهو من معاصري الخطاط التركي (حافظ عثمان) حيث قلده في البدء ومن ثم برز في فنه . ثم جاء الخطاط (نعمان الذكائي) الذي سار على نهج وسط بين القاعدة التركية والقاعدة









البغدادية القديمة في الخط . وقد تتلمذ عليه (سفيان وصالح افندي السعدي) وكان هذا الاخير اكثر امكانية من حافظ عثمان وأوفر جمالا وقد نافس كبار الخطاطين الاتراك .

وتتلمذ على سفيان (محمود الثنائي) وقد برز هذا في خط (الجلي) والثلث وكتب مساجد بغداد ودور السقاية (السبيل خانه) وقد امتازت خطوطه بالدقة والمهارة ولا تزال بعض نماذجها موجودة في بغداد .

ومرت السلسلة بعد محمود الثنائي بـ (سليمان أفندي وأحمد نوري أفندي) ثم جاء (محمد علي الفضلي) وهو من علماء بغداد الاعلام ومن خطاطيها المشهورين وكان أفضل من كتب في عصره معتمدا القاعدة التركية الصحيحة في أصولها وقوتها وجمالها .

وقد تتلمذت على يد هذا الاستاذ الفاضل وأخذت عنه كافة فنون الخط على الطريقة التركية التي كان أحد أساتذتها المبرزين .

ـ قلنا للاستاذ هاشم :

على ضوء ما ذكرتموه ، من هو في رأيكم من حمل تلك الرسالة الفنية التي تحدثتم عنها وأداها بامانة من الخطاطين ؟

فقال :

في العهد العثماني وما تلاه في تركيا كان مصطفى الراقم وشريف بك وشوقي بك وسامي بك ومصطفى نظيف والحاج أحمد الكامل ثم حامد الآمدي وهذا الاخير من ابرز اعلام الفن فقد جمع الى جانب الخبرة والمعرفة الواسعة بالاصول والقواعد امكانيات فذة في التطوير والابتكار والابداع اضافة الى ذوقه السليم ولمساته الجمالية الاخاذة لذلك احتل مكان الصدارة ـ ولا يزال ـ في دنيا الخط العربي كلها .

اما في بلاد فارس فقد برز من الخطاطين (مير علي التبريزي) وهو أول من أوجد الخط الفارسي ومالك الديلمي وعماد الحسني وهذا الاخير فاق من سبقه ومن تلاه في الاجادة ، ثم ، غلام رضا واسد الله الشيرازي وعماد الكتاب المعروف بالسيفي وتلميذه الحاج حسن المعروف بـ (ذرين خط) أي الخط الذهبي . وقد طور القاعدة القديمة ونسقها بشكل جميل وما يزال حي يرزق في طهران .

اما في مصر فان اقدم الاساتذة في هذا المضمار هو (محمد مؤنس) من خطاطي الدرجة الثالثة .. وقد تتلمذ عليه (محمد جعفر بك) الذي جود عليه نتيجة تلمذته ـ أيضا ـ على الخطاط التركي (عبدالله الزهدي) .

ومن الخطاطين البارزين أيضا (محمد ابراهيم ومحمد غريب العربي ومحمد رضوان وعبدالرحمن محمد وسيد ابراهيم ومحمد حسني ونجيب هواويني (وهذان الاخيران من سوريا) ومحمدعلي المكاوي .

وهؤلاء ـ جميعهم ـ لم يتوصلوا الى ما حققه كبار الخطاطين بالرغم من دراساتهم على يد اساتذة كبار وفدوا الى مصر من تركيا لتعليم الخط العربي في العهد الخديوي

وفي سوريا برز ممدوح والحاج بدوي وحلمي الحباب وفي فلسطين عبدالقادر الشهابي ومحمد صيام وفي لبنان مكارم وكامل البابا ·

وكان سؤالنا الاخير للاستاذ هاشم الخطاط عن رأيه في نتاجات الخطاطين الشباب باعتباره استاذا للخط العربي بمعهد الفنون الجميلة وقد تتلمذ على يده العديد من الهواة والمحترفين ·

قـــال :

الشباب الذين يتعلمون الانواع السهلة البسيطة من فنون الخط كالرقعة والتعليق والنسخ ورائدهم الاحتراف من أجل العيش لا يحققون ـ بالطبع ـ شيئا على مستوى الفن ·

اما الذين يدرسون الخط وغايتهم هضم قواعده وادراك اسراره والتجويد فيه فقد حقق بعضهم نجاحات تبشر بخير كثير · وأملي ان يكونوا قدوة حسنة لزملائهم ·

ولان الخطاط يتقدم بالمران الطويل والمتابعة والمشاهدة فان مواصلة ذلك كله وزيارة المتاحف والاطلاع على ما تكتنزه من تحف فنية في الخارج من الضرورات التي لا يستغني عنها الخطاط الذي يتطلع نحو الابداع ·

الفنان في سطور

- ولد في بغداد عام ١٩١٧
- بدأ يتعلم الخط على يد الخطاط محمدعلي الفضلي عام ١٩٤٤
- قدم امتحان الدبلوم بمدرسة تحسين الخطوط العربية في القاهرة وناله بدرجة امتياز عام ١٩٤٥
- رئيس فرع الخط والزخرفة بمعهد الفنون الجميلة ببغداد

عواصف الخليج

ضياء خضير



يا رفاق الدرب قد طال الطريق
كاد أن يخبو بعيني البريق
لا يزال الوحش يرغو في الظلام
والخفافيش كأسراب الحمام
في سكون الليل تمتص الرحيق
من فم الزهر ،
وتجتاح الحقول
واذا ما دغدغ الفجر جفون النائمين
وتمشى في عيون الحالمين
حاولت أن ترجع الليل
ويأبى أن يطول

* * *

يا رفاق الدرب قد طال السفر
لم نزل نمشي وئيدا
سوف لن نرسو في تلك الجزيرة
مهبط الاحلام والشمس الغريرة
سوف يحوينا ظلام وحفر
ان تباطئنا ولم نجر شديدا!

* * *

سددوا السهم لاقواس السحاب
واغسلوا العار على تلك الروابي
ستصيدون القمر !
وستجنون من الحقل الزهر
سوف لن يرحل في البحر النمر
لذئاب تتغذى من دماء الشهداء
وتعب الكاس ملأى من دموع الضعفاء
لكلاب نهبت قوت الجياع
وزغيف الفقراء
كي تسويه صليباً فيه رمز للوفاء !!

* * *

سددوه ستصيدون القمر !

الحلقة الكاملة *

للكاتب الانكليزي

جي · بروثر

ترجمة

احمد مصطفى الخطيب

حضر خلفي في يوم ثلاثاء من أوسط مارس وأعلن نفسه قائلا :

ـ أنا روبرتس · أحسبني سأتسلم عملي منك ان كنت أنت أيضا تشايمان · فقلت له :

ـ ذلك صحيح · كلانا هو بعينه ·

واذ تصافحت معه ، بدا لي أن ما استشعرته في تلك اللحظة لم يكن هو النفور أو الكراهية ، بل الفزع مجسما في قرارة نفسي ·· فقد ران علي احساس طاغ بالخوف من اشياء غامضة متشوومة لا سبيل لي الى معرفة كنهها ·· كانت يده رخوة في مثل نعومة المطاط ، وعندما حدقت في عينيه ، لاحتا لي باردتين كالزجاج ·

وقد ابتدرني روبرتس قائلا :

ـ هل ستغادر المصنع ؟ فأجبت :

ـ كلا ! سارتقي درجة أخرى في السلم ·· ساكون الضابط القائم بتنسيق الاعمال في هذه المصانع الستة ··

ثم اخذت أطوف به في أرجاء المصنع ·· كانت ثمة عشرات من اختبارات البحوث الذرية وهي في طريقها الى الانجاز ·· فطفقت اشرح له ـ ونحن نسير ـ كل شيء تقريبا ·· أما هو فقد ظل صامتا لا ينبس ببنت شفة طول الوقت مع أنه كان يلتهم كلماتي التهاما ··

وعلى أي حال فقد تيقنت في خاتمة التطواف أن روبرتس هذا يعلم من شؤون الذرة بقدر ما أنا أعلم منها وكنت قد أمضيت هنا عشر سنوات ··

× ×

كان مكتبي الجديد يقع في مبنى الادارة العامة ·· وكانت التقارير

---

* من مجلة London Mystery Magazine

تصلني من كل من المصانع الستة باستمرار .. فكنت أنا أيضا أحيلها من ناحيتي الى المدير الذي كان يتلقى كذلك تقارير ضباط التنسيق الاخرين .. ثم يحدد في ضوء ذلك نوع السياسة والطرائق والتجارب التي يجب القيام بها .

مضت عدة أشهر .. وفي ذات يوم أخذت طريقي الى مكتب المدير .. فبادرني هو بالتحية قائلا :

ـ هالو تشابمان ! ماذا في جعبتك من الاخبار ؟

ـ روبرتس !

ـ يتراءى لي أنه « طيب » .

ـ وهذا ما أنا قلق بسببه !..

ثم أضفت بعد توقف قصير :

ـ انه « طيب جدا » .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

ـ في خلال أشهر معدودات يتعلم من دقائق علم الذرة أكثر مما تعلمته أنا منها في مدى عشرة أعوام مع أنني لست بالكسول البليد .. وربما هو يعرف الان من أسرار الذرة بقدر ما تعرفه أنت منها ..

ـ حسنا .. قد يكون انسانا عبقريا !

ـ أنا لا أميل الى هذا الرأي .. مستحيل .. اذ ليس في استطاعة أي دماغ بشري أن يفعل ذلك ..

ـ ماذا تريد الان ؟

ـ اطلب موافقتكم على اجراء تحقيق شامل في هويته

رمقني المدير بنظرة صارمة ..

ـ لقد منحه مكتب الاستخبارات الحربية جوازا سالما لا مغمز فيه .

فسكت ولم احر جوابا . ولكن المدير استأنف كلامه قائلا :

ـ حسنا افعل كما يتراءى لك .. ولكن دعني أطلع على كل ما سيجري أولا بأول .

× ×

كان فنسان كرين ، الباحث الخاص في مصانع (كارلتون) جالسا الى طاولة كبيرة منهمكا في دراسة احدى الاضابير .. وعندما رفع بصره الي ألفيته رجلا ضخما متين البنيان ، تنم ملامحه على امارات القوة والحزم .. وقد بادرني بقوله :

ـ تفضل ! خذ لك كرسيا .. ثم استدار نحوي وقال :

ـ أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك يا سيد ...

ـ اسمي تشابمان يا سيد كرين أود أن تفحص لي هوية احد الاشخاص .

ـ هل تريد تمحيصا يمتد الى يوم الميلاد ؟

ـ أجل .. انني ضابط في مؤسسة كارلتون للبحوث الذرية .. ثمة رجل غريب الاطوار يدعى جون روبرتس .. ولكنه ذكي جـدا .. ولا احسبني مغاليا اذا قلت أنه نصف عبقري .. فقاطعني كرين بقوله :

ـ رجل ذكي جدا في مصنع للبحوث الذرية ؟

ـ الى حد خارق .. ففي أثناء أشهر قليلة تعلم ما أنا تضببت في تعلمه عشر سنوات ..

ـ وكيف أنت ؟

ـ انني « طيب » والمسالة ليست منافسة أو حسدا بسبب المهنة ..

ـ ألا تعتقد أنه كان عالما قبل أن يلتحق بالمصنع .. ولكنه تظاهر بالجهل لامر ما ؟

فنفضت رأسي نفيا وقلت :

ـ القضية ليست هينة الى هذا الحد .. وقد كنت أتمنى حتى أن يكون روبرتس هذا جاسوسا أجنبيا .. أنا واثق من أن الامر أعمق من ذلك بكثير ..

ـ إنك تثير اهتمامي .. اعطني عنوانه .. لسوف أقتفي أثره من هنـاك .

× ×

... ولم إقابل كرين الا بعد اسبوعين .. فقد شغلتني عنه شواغل العمل كما لم ألق بالا أيضا لاي فكرة عن روبرتس الا عندما كانت ترد الى مكتبي تقاريره الرائعة الناجحة .

وفي الساعة العاشرة من صباح أحد الايام ، زارني كرين في مكتبي على غير انتظار .. فهتفت به قائلا :

ـ بحق السماء ! كيف سمح لك باجتياز الباب الخارجي ؟

ولكن كرين لم يجب بل اكتفى بأن ألقى بجواز مروره على مكتبي واذا به يحمل توقيع مسؤول كبير في مكتب الاستخبارات الحربية .. ثم قال بسـذاجة :

ـ تقصيت عن ماضيك حتى يوم مولدك .. ومن حسن الحظ لم يستغرق ذلك وقتا طويلا فقد تبين لي أنك عشت حياة هادئة طيبة ..

ـ شـكرا لك !..

ابتسم كرين ابتسامة ذات مغزى ثم قال :

ـ لا تكن شكسا ، سريع الغضب .. كان لزاما علي أن أفعل ذلك حتى أستطيع أن أحدد موقفي منك .. لقد اطلعت على تقاريرك كافة .. على كل شيء .. ومن المحتمل انني أعرف عنك الان أكثر مما تعرفه أنت عن نفسك .

وبعد أن جذب نفسا قويا من سيجارته استأنف كلامه قائلا :

ـ ومن ثم شرعت في مراجعة أوراق جـون روبرتس الشخصية ..

يا للغرابة ! هل تصدق أنه حي يرزق منذ عامين فقط !٠٠
فقلت وأنا أحملق في وجهه بذهول :
ـ مـا٠٠٠ذا ؟
ـ لم أستطع العثور على أي شيء عنه يرجع تاريخه الى أكثر من سنتين ٠٠ فقد اشترك في دورة دراسية قصيرة في اكسفورد ٠٠ ثم اجتاز امتحانا في الذرة حاز فيه علامات ممتازة جدا ومن ثم حضر ههنا ٠٠
ـ ماذا يعرف عنه مكتب الاستخبارات الحربية ؟٠٠
ـ لا شيء اطلاقا ٠٠
التقطت المسماع :
ـ هالو ! كبير ضباط الامن رجاء ٠٠ اوه ٠٠ سمبسون ٠٠ تشابمان ٠٠ هل تتفضل بالحضور الي في خلال دقيقة واحدة ٠٠
كان سمبسون من قدامى ضباط الامن فعرفته بكرين قائلا :
ـ سمبسون ٠٠ مستر كرين من قسم الاستخبارات الحربية يريد أن يفحص وثائق أمن روبرتس ٠٠
ـ سآتي بها في الحال ٠

× ×

تأمل كرين الاوراق التي طرحها سمبسون أمامه مليا لمدة بضع دقائق ثم رفع رأسه وقال :
ـ تزييف متقن ! ولكن كيف حدث هذا ؟ ثم من الذي أوصل هـذه الاوراق الى المدير ٠٠ أنا لا علم لي بشيء قط ٠٠ ومن المؤكد أنه لا توجد كذلك أية نسخة اضافية لدى مكتب الاستخبارات الحربية ٠٠ وبعد أن توقف هنيهة أردف يقول :
لا جرم أنه بوسعنا الان أن نلقي القبض عليه بتهمة التزوير ٠٠ ولكن ذلك لن يفسر لنا من أين لروبرتس كل هذه المقدرة العجيبة ، والبراعة المدهشة في بحوثه العلمية وفي عمله في المصنع ٠٠
ـ أحسب أننا نتمكن من الحصول على المعلومات الحقيقية عنه في مسكنه الذي يقيم فيه في كينسنجتون ٠٠ وقد علمت حتى الان أنه نزيل من الطراز الاول ، هادىء ، حيي ، منطو على نفسه ٠٠ لا خمر ولا نساء أو أي شيء اخر من هذا القبيل في حياته ٠ يتناول وجبات طعامه كلها في خارج البيت ٠ أما أين ؟ وفي أي مطعم ؟ فذلك ما لم أتوصل الى كشف النقاب عنه ٠٠ والاغرب من ذلك أن تاريخ ميلاده لم يدون في سومرست هاوس أو في أي مكان اخر ٠٠ وأما الان ؟٠٠
ـ ان اقتحامنا لمسكنه يعتبر عملا مخالفا للقانون ٠٠ ولكننا نستطيع بطريقة أو باخرى اجلاء قاطني المنزل ولو لفترة ما بعد الظهر في الاقل ٠٠ سيكون روبرتس انذاك هناك منهمكا في عمله ٠٠ وسنزعم مثلا أنه قد تم

اكتشاف قنبلة موقوتة في المبنى ·· فصر كرين باسنانه وقال : ناولني الهاتف ··

× ×

تحدث كرين بقوة وبسرعة وبدقة ·· وعندما أعاد المسماع إلى مكانه قال :

ــ لقد تم ترتيب كل شيء ·· ثمة قنبلة لم تنفجر بعد في غرفة المؤن ·· وسيتم اخلاء المنزل في الحال ·· أما أنا وأنت فسنمثل دور خبيرين من فرقة المتفجرات ··

وعندما بلغنا المنزل وجدناه وقد ضرب البوليس حوله نطاقا من الحبال ·· وكان كلانا يرتدي بزة (كابتن) في الجيش ·· فاتجهنا فور وصولنا صوب غرفة روبرتس ·· كان باب الغرفة مقفلا ·· غير أننا كنا قد أخذنا للامر عدته ·· وقد تمكن كرين من فتحه في خلال بضع دقائق ·

وعند ذاك تلقينا صدمتنا الاولى ·

كانت الغرفة مجهزة بمعمل كامل ولكن بمعدات وأجهزة لم يسبق ان رأيتها من قبل ·· وعلى طاولة انتثرت عشرات من المواد ذوات الاشكال الغريبة والشبيهة بقنابل يدوية من أحجام مختلفة ·

جذب كرين ذراعي بشدة ··

ــ انظر الى ذلك الركن !

وما أن أدرت بصري حتى انتفضت من شدة الهلع ومن هول المنظر ·· كانت ثمة جثة امرأة مقطوعة الرأس مطروحة على الارض ، كما كانت ههنا وهناك بالقرب منها أشياء وأدوات غريبة تثير العجب والتأمل ·

واذ هدأ روعي بعض الشيء ، استجمعت أطراف شجاعتي ، وأخذت أقترب من الجثة ·

وهنا تلقيت صدمتي الثانية ··

كانت ثمة لفات معدنية ، وآلات دقيقة متنوعة ، وشبكات سلكية في محز عنق الجثة بدلا من الغضاريف والعضلات ··

وعندما أومأ كرين قائلا :

ــ هوذا الرأس !

بدا لي وجهه ممتقعا شاحبا كوجوه الموتى ·· كان الرأس ملقى على عتبة النافذة يحجبه ستار عن الانظار وفي داخل تجويفه مزيد من اللفات المعدنية وأنواع شتى من الاسلاك والصمامات ·

فهتفت قائلا ــ

ــ انسان آلي ··

فرد كرين على الفور :

ــ ·· أكثر من انسان آلي ·· انه روبوت (Robot) بشري ··

ليت شعري ‥ كم من أمثال هؤلاء يسرحون ويمرحون الان على سطح الكرة الارضية ‥

ـ ألوف !!‥

جلجل صوت مرعب من ناحية الباب فقفزنا كلانا من شدة الذعر ‥

دخل روبرتس الغرفة بخطوات وئيدة ‥ ثم أغلق الباب وراءه باعتنا، وكان يرتدي بزة عسكرية مماثلة لبزتنا ‥

وقد لمع في ذهني انذاك أن أنجو بجلدي ، وألحق برجال الشرطة الذين كانوا يحيطون بالمنزل ولكن صوت روبرتس دوى ثانية :

ـ هل تذكران رجلا يدعى ماسترتون ؟‥ انه العالم المخترع الذي بلغ بالصناعة الذاتية (Automation) الى ذروة الكمال ‥ في الواقع لم تبق ثمة ضرورة ليقوم أفراد من بني البشر بادارة المصانع وتشغيلها بعد اليوم ‥ فالالات تستطيع أن تصنع آلآت غيرها ‥ آلآت أفضل ‥ وهذه أيضا بوسعها أن تصنع ما هو أدق وأكثر اتقانا ‥ وهكذا دواليك ‥ الانسان هو الذي صنع الالة الاصلية ‥ لذا فقد كان من العدل أن تمضي الالات أيضا من ناحيتها في صنع الات أخرى مترسمة في هذا السبيل خطى صانعها الاول ‥

« ‥ انها الحلقة الكاملة ‥ » .

وهنا توقف روبرتس عن الكلام ورمقنا بنظرة غامضة ‥

ـ « ‥ ان كلا منا يصنع بنفسه انسانه الآلي أو روبوته كما تسمونه انتم ‥ وها أنذا أرى انكم قد شاهدتم بأعينكم واحدا من هؤلاء ولما يتم صنعه ‥ » وأشار الى الركن الذي فيه الجثة ‥

ـ « ‥ انها ستكون زوجي ‥ » !

وبعد أن توقف لحظة استأنف كلامه وقد تبدلت لهجته المعتدلة :

ـ « ‥ اننا سنستمر في جمع علوم الانسان وعندما يأزف الوقت فسوف ننزل ضربتنا القاضية ‥ » .

فصاح كرين مندهشا :

ـ ضربتكم القاضية ؟

ـ ‥ أجل !‥

كان روبرتس وهو يتحدث يقترب منا رويدا رويدا ‥ ويهز قبضة يده في وجهينا ‥

ـ ‥ اننا سنمحو البشر من على وجه الارض أولا ‥

فقلت بسرعة :

ـ وثانيا ؟‥

فدمدم بصوت كهزيم الرعد :

ـ ‥ نحن في هذه البلاد سنقضي على كل روبوت دخيل ، مغرور ‥

ومتى تم صنع عدد كاف منا فسنستولي على زمام السلطة ٠٠ وعندئذ فقط سنقوم بادارة العالم كما نشاء ونهوى ٠٠

واذ وثب كلانا ـ أنا وكرين ـ نحو الباب كنا نقهقه في جنون ٠٠

اذن كانت جحافل الروبوت البشري قد شرعت منذ الآن ، بل حتى قبل أن تفرض سلطانها على العالم في وضع الخطط واحكام التدابير لابادة بعضها البعض ٠٠

× ×

لا حاجة لي الى القول بانه لم يكتب لنا أن نبلغ الباب قط ٠٠ وقد قيل لمن كانوا في الخارج أن القنبلة الموقوتة قد انفجرت ٠



قاب قوسين

ديوان محمود حسن اسماعيل

نقد بقلم

عباس خضر

ليسمح لي القـــارىء أن أدخل على هذا الموضوع بطرف من حديث شخصي ، لان له دلالة موضوعية ، على أنني قد بلغت من العمر المرحلة التي يباح فيها للكاتب أن يمنح من ذكرياته ويعود بالنظر والمقارنات الى ماضيه ، وعلى أن ما سأذكره لا يعد من المفاخر أو من المآثر التي قد تثقل على القارىء من الكاتب ، بل هو على العكس من قبيل الاعتراف ·

لي مع البدء الطيب الذي بدأه محمود حسن اسماعيل في الشعر ـ بدء غير طيب في النقد ··

كان قد سبق فأخرج ديوانه الاول « أغاني الكوخ » ـ ١٩٣٤ ـ ثم ثنى بديوانه الثاني « هكذا أغني » ـ ١٩٣٧ ·

وكنت أبدأ النقد ، بدأته في مجلة « الرسالة » بمقالات « شعراء الموسم في الميزان » ـ١٩٣٦ـ ولم أكـن قد خرجت عن مزاج كلاسيكي مطبوع بما درسناه من شـــعر الأقدمين وما قرأناه من دواوين المحدثين التقليديين · وبهذا المزاج أهويت على شـــعر ابراهيم ناجي وأحمد رامي ، وأعليت من أشعار الهراوي والاسمر والزين ·

ولما ظهر ديوان « هكذا أغني » دفعه الي كي أكتب عنه صاحب الرسالة الاستاذ الزيات ، وكنت قد بدأت العمل معه بالمجلة ·

وبنفس المزاج الكلاسيكي أهويت على المـــولود الثاني لمحمود حسن اسماعيل بطريقة أقلقته ونفت عنه النوم ليالي أسبوع كامل ·· كما قال لي بعد ·· اذ ذهب ظنه الى أبعد من الواقع ، فتخيل مؤامرة تدبر له عـلى يد جماعة تخاصمه وجدت في شخصي أداة التنفيذ ··

لم تكن هناك أية مؤامرة أو تدبير ·· كل ما في الأمر اني كنت متخلفا عنه ، وكنت دون مستوى هذا اللون من الشعر الجديد ··

كنت أنقد شاعرا ينأى عما قيل من الشعر ـ ليعبر تعبيرا جـديدا ـ

كنت انقده بمقياس لا يعد الشاعر شاعرا الا بمقدار التصاقه بروائع ما قيل ·

واليوم أتأمل ذلك الذي حدث من قرابة ثلاثين عاما ، كي أستخلص العبرة ، فأنفذ منه الى أمرين : الأول ما لا يزال يعاني منه الأدب المتقدم ، اذ يعرض له النقد المتخلف ·· او الناشيء ·· ومن حقي أن أذكر أن تخلفي ذلك لم يطل ، واني اجتهدت بعد في أن أفتح نفسي ومداركي لكل جديد · والأمر الثاني خاص بشاعرنا نفسه ، شاعرنا الذي بدأ صادقا في التعبير ، لا يريد أن يحاكي ، ويأبى أن يتخذ الشعر حلية ووجاهة في المجتمع ، وظل حتى اليوم يعاني التعبير الشعري كرسالة يضطلع بها ويصدق في أدائها ، ويجتذب الى « دربه » في الشعر كثيرا من الشادين الذين يؤثرون الصدق والمعاناة ·

كانت رسالة محمود ـ على ما يبدو لي ـ وما تزال ، هي التحرر من التقليد والترديد في الكيان الشعري ، وتحرر الانسان من الرق بأنواعه المختلفة ، وتحرر النفس الانسانية من كل ما يعوقها عن «الزحف الى النور» وهذه هي عبارته الأثيرة التي يكررها في مختلف المواضيع. كما يكرر «الدرب» في الدلالة على المذهب أو الطريق الى الغاية المنشودة ·

بدأ محمود يغني للكوخ الذي جاء من أدنه الى القاهرة « مشحونا » بانفعالاته نحوه ، ومحملا بتجاربه الاولى حيث كان في قلب « الصعيد » وغناء شاعرنا « الصعيدي » ليس كسائر الاغاني · انه غناء التحدي وتوكيد الارادة الحادة ، انه يغني بمزمار غير مألوف كما يقول لنفسه في الديوان الأخير :

« اتبعيني في دروبي واحذري أي هروب »
« فأنا أظمأ . وأسقيك من السحر الرهيب »
« وأنا أشقى وأشجيك بمزماري الغريب »

وفي أول ليلة دنست تراب فلسطين أقدام الناهبين ·· يغنى الظلام ، وينوح الضوء ، ويسمع غضب الانبياء :

« مزامير ويـل ، غنى صداه »

وهو يغنى « نار الجراح » كما يقول :

مالك لا تلهم غير الاسى ولا تغني غير نار الجراح ؟

غناء محمود اسماعيل من البدء حتى اليوم ثورة على الرومانسية الواهية الضعيفة ، كما كان وظل شعره ثورة على الكلاسيكية الببغائية ·

بدأ يغني جراح ساكني الكوخ ، وينشد لها الالتئام . على حين كان الشعراء يغنون الملذات ويهيمون في الشهوات · انه دائما يأتي بجديد ، لا ينسج على منوال ·

واستمر يغني الجراح والآمال في « هكذا أغني »

وكأنه قد مل الغناء وداخله الشعور بالضياع .. الضياع القومي .. فجعل يسأل « أين المفر » – ١٩٤٨ – حينما اسودت الدنيا واكفهـرت الآفاق .

ثم اشتد الصراع وقامت المعارك بين بقايا عهد يؤذن بالافول وطلائع جديدة تنتصر ، فكانت قصائد « نار وأصفاد » التي قيلت في خلال ذلك وظهرت في ديوانها سنة ١٩٥٩ .

واخيرا جاء الديوان الاخير

« مع هدير الشروق
وهو يفجر صحو الاعماق ..
مع الانسان وهو يسترد ذاته ..
الموج يجرف الهشيم ..
.. والريح تعزف الرباب للسائرين مع النور ..
الشاطيء قريب ..
والضحى ..
. قاب قوسين ..

جاء اذن ديوان « قاب قوسين » مصدرا بهذه الكلمات ، جاء غناء جديدا للنصر .. ما تحقق منه ، وما هو قاب قوسين او قوس واحد .. كما يقول في آخر القصيدة الاولى :

قد وصلنا .. لم نكد .. فاقتربي
من ضفاف النور في قاع الصدور
قاب قوسين .. بلى ..
أنا على قاب قوس ، من ضحى المرسى الاخير

ومن صدق شاعرنا أن دواوينه تمثل مراحل حياتنا القومية والاجتماعية على نحو ما أشرنا . والجزء الاول من هذا الديوان – وهو قسم كبير منه – يعبر عن الانتصارات العربية التي تحققت في السنوات الاخيرة مزجها الشاعر بنفسه او تقول تمثلها في ذاته ، وعبر عنها في صور تتشابه دائما في الشكل ، وتختلف أحيانا في الموضوع ، كموضوع فلسطين والسد العالي ، أما من حيث الشكل فاننا نجده في كل منها يجري حوارا بينه وبين نفسـه ، يستحثها للتقدم والزحف الى النور ، ويحذرها من النكوص والتسكع في الظلام . وخير مثال لهذه القصائد قصيدة « أنا والنفس والطريق » وهي تحكي لنا كيف يتسامى الانسان – كفرد من القوم – فيصر على بلوغ اهدافه العليا البعيدة مجتازا أشواك الحياة ، ماضيا الى غايته لا يثنيه عنها شيء من مغريات او أوهام أو مشقات . انه يمضي الى النور .. نور الغـاية

السديدة ·· ويخشى على نفسه أن تتقاعس أو تنحرف عن الجادة في التواءات ومتاهات ، يبدأ قائلا لها :

« اتبعيني في دروبي واحذري أي هروب »
« فأنا أظما وأسقيك من السر الرحيب »
« وأنا أشقا وأشجيك بمزماري الغـــريب »
« وأنا أسري ، فأهديك الى الشط الرحيب »

فاذا أنست اليه واطمأنت الى ما يعدها به ، جعل يستحثها ويدني منها شعاع الامل ، يقول :

« فانفذي ·· فالسر ان سرت على قيد ذراع »
« واصرعي الموج ، ولو أقبلت من غير شراع »
« واركبي الاعصار والاصرار في وجه القلاع »
« انما الخائف عند الزحف ، محتوم الضياع »

وبعد أن يحذرها من النكوص والاستجابة للمغريات يدعـــوها الى الصفاء ، يقول :

« واذا حياك وجه غلف الزور عيونـــه »
« فبدت ليلا على الادغال زاوته السكينه »
« تحمش الذعر ، مصلوب الهوى فوق الضغينه »
« تزحف البسمة من أوكاره ثكلى حـزينه »
« فابسمي أنت ولا تبقي صفاء تحملينه »
« واسكبي النور ، يساقيه ، ويمتص دفينه »
« ويريك النفس في سحنته ، تعوي سجينه »
« واتبعيني واتركيه للدجى يشوي جفونه »

ولعلك تشعر معي بالتعارض في هذه الابيات بين الصفاء المنشود وبين الحدة والشماتة في تصوير « الوجه المغلف بالزور » ·

ثم نمضي مع الشاعر في حواره مع النفس ، فنراه يحذرها أن تخلد الى الراحة وأن تلتفت الى الزمن الماضي الذي يصوره في هذه الصـــورة الجميلة بقوله :

« وزمان أحدب الخطوة من عض السلاسل »

وقد ولى الظلم والذل ، وفك القيد ، واندحر الفارس « المســـجور في البغي حسامه » :

« فجأ الله خطـــاه بضحى عات صـــدامه »
« وانتهى .. لا شيء .. الا ما يروي عنه ظلامه »
« فازحفي .. دربك حر ، أذهل الدنيا ابتسامه »

وها نحن أولاء قد وصلنا إلى النور :

« يجرف الظلمة ان مست عصاها طرقاتك »
« فازحفي .. قد باتت العتمة من كل جهاتك »
« وركبت الضوء ، معراجاً لأعتى أمنياتك »

وهذه المكاسب العظيمة التي حققناها علينا أن نحرسها :

« فاذا أحسست وهماً للدجى دب ورائي »
« فانسخي روحك اعصاراً يدوي بالفنـــاء »
« وانفذي بالنور في أخفى سراديب الخفاء »
« واسحقيه قبل أن يسترق الليل حدائي »
« فتسيرين على الــدرب بلا أي عنــاء »
« فاصحبيني .. أنت سر النور يجري في دمائي »

ولا ارى معنى لعبارة « يدوي بالفناء » وقد قرأت هذه القصيـــدة منشورة من قبل ، فكانت الجملة هكذا : « يدوي بالفضاء » .
ولعل الفناء أدركها في خطأ مطبعي بالديوان ..

والقسم الثاني من الديوان معظمه قصائد عاطفية لا ترقى في الصدق وبلورة الاغراض ووضوح الهدف إلى مستوى القسم الاول القومي ، فكثير من القصائد العاطفية يسوده التوليد الذهني والتفنن في التصوير الصناعي أكثر مما نحس فيه بصدق التعبير وحيوية الانفعال .

قصيدة « فاتنتي مع النهر » – مثلا – نرى الشاعر فيها يحدثنا عن نفسه كشاعر يؤثر في « الفاتنة » بأنغامه ، وهي تحدث النهر عن ولهها به . ولا نكاد نجد الفاتنة نفسها في القصيدة وكيف فتنت الشاعر .. تقول للنهـــر :

يا نهر .. قاسمني الهوى مرة   وهات أخبـــارك عن عـــابدي
نجي أحلامي ، وشـــادي الهوى   بمعجـــزات النغم الخـــالد

ومن الجيد في القسم العاطفي وصفه للملاك النائم في قصيدة « الملاك النائم » وان كنا نلحظ أنه يكرر كلمة « حينما » في أول بيت .. يبدأ هكذا :

حينما تهجعين في مهدك الطاهر   والســـحر متعب في جفونــــك

ثم تتلو ذلك احدى عشرة « حينما » ولا جواب لحينما ٠٠ وان كان يقول بعد :

لو تسمعت خافقي في دجى الليل ... وشكوى جراحه في سكونك

وهذا لا يصلح جوابا للحينمات قبله ٠٠

وحينما يدع الشاعر هذا التوثيد العاطفي ويجنح الى الصور الاجتماعية ، يجيد كل الاجادة ، ففي قصيدة « صحراء المصائب » يعطينا صورة رائعة لشخصية المنافق وشخائله النفسية ، يقول فيها :

برت ايدي البهتان جلدة وجهه ... مطايا رياء لا تضيق براكب
اذا قيل : هذا الصخر ماء ٠٠ رأيته ... يردد للمينبوع شوق السباسب
وان قيل : هذا الماء نار ٠٠ رأيته ... عليها مجوسيا عريق المذاهب
وان قيل : تلك النار فجر ٠٠ رأيته ... أذان مصل هز سمع الكواكب
وان قيل : هذا الفجر قبر ٠٠ رأيته ... من الثكل يستجدي دموع النوادب
تلاشى بلا موت ، وأودى بلا ردى ... لعل بهذا النعش بعض المكاسب
أمانك ربي منه ٠٠٠ هذا منافق ... أخف لقاء منه وجه المصائب

محمود حسن اسماعيل مدرسة في الشعر العربي الحديث ، أهم خصائصها التعبير الشعري المنحوت على غير مثال سابق ، والمجنح باجنحة من الاستعارات المنحوتة هي أيضا على غير مثال سابق ٠٠ ومحمود نفسه شاعر له تصور خاص للاشياء ، وله قصد صادق في الحياة يعبر عنه تعبيرا صادقا ، ومن صدقه الحدة لان الشاعر نفسه حاد ٠

ويبدو لي أنه يتأمل التجربة قبل أن يعبر عنها بطريقة تختلف عن التعبير نفسه ٠ انه يعاشر التفصيلات والجزئيات ويفكر فيها ، ثم يستخلص منها ما يحدثنا به أمرا كليا يدفعه الينا نتيجة مسلمة ٠ وأعتقد أنه لو أشركنا في جزئيات التجربة بعرضها علينا ، وجعلنا نسير معه فيها حتى نخلص معه الى الكلي العام ، لكان ذلك أقرب لنا الى المتعة الفنية وأبعد عن كثير يفاجئنا به فنجد عنتا في ادراكه وتذوقه ٠

وما زلنا ننتظر من محمود حسن اسماعيل المزيد من الابداع ٠

محي الدين بن عربي

في ذكرى مرور ثمانية قرون على مولده

عباس فاضل السعدي

عربي الاصل ، اندلسي المولد ، اسمه محمد ابوه علي بن محمد بن احمد بن عبدالله ، يكنى ابا بكر ، ويلقب بمحي‌الدين ، ويعرف بانحاتمي ، الطائي ، الاندلسي ، وبابن عربي ، وبالشيخ الاكبر ، وبابن افلاطون .

ولد بمدينة مرسية من بلاد الاندلس ، يوم الاثنين أو ليلته في ١٧ رمضان سنة ٥٦٠هـ/٢٨ تموز ١١٦٥م ، بينما جاء في تاريخ الفلسفة العربية ١٨ تموز وليس ٢٨ تموز(١) . وتوفي في دمشق ليلة الجمعة في ٢٨ من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ/١٦ تشرين ثاني ١٢٤٠م . بينما يجعلها ابن كثير في ٢٢ ربيع الآخر من السنة المذكورة(٢) . وكانت له جنازة حسنة . ودفن بمقبرة القاضي محي‌الدين بن الزكي ، عند سفح جبل قاسيون خارج دمشق بالتربة الصالحية ، وقبره مايزال معروفا في دمشق يقوم عليه جامع يعرف باسمه . وقد بنيت على قبره قبة عظيمة وتكية فيها طعام وخيرات على حد قول الشعراني .

وقضى في مسقط رأسه ـ مرسية ـ ثمانية أعوام ، تعلم خلالها شيئا من القراءة والقواعد اللغوية وشيئاً من الدين والأدب . وكانت اسرته على ثراء ، وفي سنة ٥٦٨هـ ذهب الى اشبيلية على أثر استيلاء الموحدين على مرسية . في اشبيلية قضى سنوات طفولته وصباه ، وفي هذه المرحلة من حياته قرأ القرآن والحديث ودرس الفقه على يد أحد تلاميذ ابن حزم الظاهري . وكتب لبعض الولاة ، وتزوج بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبدالرحمن الباجي(٣) .

امتاز محي‌الدين بن عربي بكثرة مؤلفاته الصوفية والفلسفية والعلمية والادبية ، وكان يكتب بأسلوب موجز مشتملا على معنى واسع . ويعد هذا المتصوف « من طبقة الكتاب العظام ، ويمتاز نثره بميزة عجيبة : هي انه لا يشغلك بالألفاظ وانما يشغلك بالمعاني ، ففي كل صفحة من كتبه معركة عقلية : فالقوة البيانية عنده قوة فكر لا قوة تهويل »(٤) .

ومؤلفاته كثيرة . لا تقل عن (٢٥٠) كتابا ورسالة على أقل تقدير . وقد لعب ابن عربي دورا كبيرا في الفكر الاوربي حتى ان المستشرق بلاسيوس اعتبره الاستاذ الحقيقي للنهضة الصوفية الدينية في اوربا .

وبالنظر لضيق المجال سنترك جانبا الحديث عن حياته وشعره ومؤلفاته واثره في الفكر الاوربي وسوف نقتصر على جانب واحد هو تصوفه .

اتجه ابن عربي منذ صغره اتجاها دينيا اذ انه درس القرآن والحديث والفقه وأمور الدين الاخرى . غير انه عندما انتقل من مسقط رأسه في مرسيه الى اشبيلية بدأ مجرى حياته يتغير بسبب ما كان يسمعه من مواعظ زوجته ، ثم وفاة ابيه في أعقاب ذلك وهذا مما ادى به الى أن يتجه الى طريق العبادة والتصوف .

ومن أوائل أساتذته في التصوف: موسى بن عمران الميرتلي الذي علمه كيف يتلقى الالهام الألهي. وأبا الحجاج يوسف الشبربلي وأبا عبدالله بن المجاهد. وأبا عبدالله قسوم وكلاهما من اشبيلية ، وقد تعلم منهما محاسبة النفس ، وأبي العباس العرياني . بيد ان استاذه الحقيقي كان « الاعتكاف » . فكان ينفرد بنفسه أياما طويلة بين القبور يناجي أرواح الاموات(٣) .

وعندما بلغ السن الثامنة والثلاثين ، بلغ مرتبة المشيخة ، واخذ يؤمه المريدون فيرشدهم الى سلوك السبيل القويم ، وقد اصبح بين علماء الصوفية « الشيخ الاكبر »(٥) . والتصوف في حقيقته « نوع من التسامي في الروحانية »(٦) . ولهذا فهو قد ذهب مذهبا بعيدا في عالم الفكر والخيال والحس الروحي ينقصه المنهج المنظم والتحليل العلمي الدقيق . وهو من غير شك مؤسس مدرسة فلسفية ولكن ينقصه المنهج العلمي في التحليل والتركيب . ولهذا نرى الاستاذ أبو العلاء عفيفي يقول ان مذهبه « فلسفي صوفي معا ، جمع فيه بين وحدة التفكير وقوة الوجدان ، وحاول أن يوفق بين قضايا العقل وأحوال الذوق والكشف »(٧) .

وهو لم يصل الى المعرفة عن طريق العقل والبحث النظري وانما عن طريق الذوق والوحي الألهي .. الله هو معلمه الحقيقي ، فتراه يقول(٨) :

قلمي ولوحي في الوجود يمده ... قلم الأله ولوحه المحفوظ

ومن الامور التي ينتقد فيها ابن عربي هي شطحه في الكلام وكثرة الغازه ، وتعقيد اسلوبه ، وصعوبة نظرياته ، ولغته الاصطلاحية . وفي ذلك يقول المستشرق نيكلسن : « ... ونظرياته .. صعبة الفهم .. لان لغته اصطلاحية خاصة » . وقال الذهبي : « ان له توسعا في الكلام .. ولولا شطحه في كلامه وشعره ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته »(٩) . وقال بعض مترجميه : « كان محي الدين رجلا صالحا .. والمشكل علينا

نكل أمره الى الله تعالى ولا كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله »(١٠) .

وقد لخص الاستاذ أبو العلاء عفيفي أسباب تعقيد اسلوبه بالنقاط التالية :

١ ـ كان يتعمد تعقيد البسيط واخفاء الظاهر لأغراض في نفسه .

٢ ـ كان يستعمل كثيرا من المصطلحات الفلسفية والكلامية على سبيل الترادف أو المجاز مع الفاظ اخرى واردة في القرآن والحديث فيحملها من المعاني ما يخرجها عن أصلها .

٣ ـ ان قوة التفكير عنده خاضعة الى حد كبير لقوة خياله لذلك تراه يلجأ الى الاساليب الشعرية والتشبيهات والمجازات في ايضاح أدق المعاني الفلسفية في مذهبه ، وهذا مما قد يضلل القارىء .

٤ ـ انه لا يلتزم الرمزية التزاما مطردا . فاذا رمز لشيء في موضع ، عاد فرمز به هو نفسه الى شيء آخر .

وكان ابن عربي يحارب التأويل ، وكان يدعو الى الاخذ بكلام الله كما انزل دون تأويل لأن « الايمان يجب ان يكون بما انزل الله من الألفاظ والمعاني ، لا بما أوله العقل وابتدعه التصور أو المنطق »(١١) . وكان يرى الشر كل الشر في التأويل بينما الخير في الايمان وفي ذلك يقول : « اعلم ان الخير كله في الايمان بما انزل الله ، والشر كله في التأويل ، فمن أول فقد أخرج ايمانه »(١٢) . غير ان الاستاذ « بالنثيا » يرى انه كان يؤول النصوص المنزلة(١٣) .

وابن عربي لا يسلم بحرية الارادة والاختيار كما يسلم بذلك علماء الكلام . بل كان يعتقد ان كل ما في الوجود من افعال هو من فعل الله وحده . فنراه يقول « كلما في الكون من خير وشر أوجده الله لحكمة لايدركها سواه »(١٤) . وكان يقول : « واعلم ان الله سبحانه وتعالى خلق الافعال كلها ثم قسمها سبحانه وتعالى الى مذموم ومحمود »(١٥) .

ويوضح ابن عربي العلاقة بين الله والانسان . وبين الأنسان والعالم بقوله : « ان الله تعالى لما أوجد العالم كان شبحا لا روح فيه ، وكان كمرآة غير مجلوة ... فاقتضى الامر جلاء مرآة العالم . فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة »(١٦) . أي ان الانسان وحده الذي تظهر « فيه الذات الالهية متعينة بجميع صفاتها ، وهذا هو المعنى الجديد الذي أعطاه ابن عربي لقولهم (خلق الله آدم على صورته) »(١٧) . وبالنظر لسعة ثقافة ابن عربي ، فقد وقف على مختلف المذاهب كقوله بتسلسل الموجودات ، وحدوث العالم ، والجبرية ، والنفس وقواها وفضائلها ورذائلها(١٨) .

وقد عرف ابن عربي ، المقامات والأحوال التي عرفها من الصوفيين ، لكنه ابتكر اشياء جديدة وصل اليها بالممارسة أهمها نظرية الوحدة والفناء(٥) . وفي ذلك يقول نيكلسن : « ان ابن عربي وان كان صوفيا فقد

ابتكر اشياء جديدة وصل اليها بالممارسة والدرس أهمها نظرية الوجد والفناء »(١٩) .

والفناء غاية ما يصبو اليه المتصوفون وهو نتيجة الحب المفرط . وفي ذلك يقول ابن عربي : « والطف ما في الحب ... ذهول وذهاب وفناء » وقوله : « ان من تقرب الى ربه فاحبه ، أفاض عليه أنوار المعرفة ، فانكشفت له الحقائق ، فرأى كل شيء بنور هذه المعرفة »(٢٠) .

أما فكرة الحلول ووحدة الوجود وعلاقة ابن عربي بهما ، فقد اختلف الرأي بين فريقين : فريق يلصق هذه الفكرة به ويتهمه بالكفر ، وفريق آخر يبرئه منها ويصفه بالايمان . وهناك عدة نصوص لابن عربي بعضها يؤيد الفريق الاول وبعضها يؤيد الفريق الثاني .

ففي ختام نصوص الحكم يقول ابن عربي : « فاله المعتقدات تأخذه الحدود ، فهو الأله الذي وسعه قلب عبده ، فان الأله المطلق لا يسعه شيء ، لانه **عين الأشياء وعين نفسه** ، والشيء لا يقال فيه يسع نفسه ولا يسعها » . وما دام الله عين الأشياء ، وما دام العالم من الأشياء بنظر ابن عربي نستطيع القول انه يقول بوحدة الوجود .

وفي كتاب الفتوحات (ج١ ، ص١٥٤) توجد فقرة لابن عربي ، يعلق عليها الدكتور زكي مبارك قائلا : « ومن هذه الفقرة نفهم ان ابن عربي متأثر كل التأثر بمذاهب الحكماء ونعرف انه بعيد عن بساطة التوحيد كل البعد ، ونفهم انه يضمر القول بوحدة الوجود » .

والقاشاني كان يقول ان ابن عربي قال بوحدة الوجود(٢١) . وقد رماه (عليا القاري) في رسالته بالهرطقة والزندقة واعلن ضده ٢٤ دعوى كفرية(١٩) . أما ابن كثير فيقول : « وله كتابه المسمى بنصوص الحكم فيه أشياء ظاهرها كفر صريح(٢) . وقد أشار ابن خلدون في مقدمته الى انه ذهب الى الحلول والوحدة كالمتصوفة المتأخرين (٢٢) .

ويعتقد الاستاذ جبور عبدالنور ان ابن عربي قال بالحلول ووحدة الوجود ، ولكنه كان اكثر تقية من الحلاج استنتاجا من كتبه ومن زيارته للاماكن المقدسة والتبرك بها(٢٣) . ويقول الدكتور زكي مبارك : « وقد تأملت طويلا في كتاب الفتوحات فرأيت ابن عربي يدور حول فكرة وحدة الوجود »(٤) . وهذا يمثل ايضا رأي الاستاذ ابو العلاء عفيفي وبعض المستشرقين أمثال بلاسيوس وبالنثيا وغيرهم .

واذا اكتفينا بهذه النصوص والاقوال نستنتج ان محي الدين آمن بالحلول ووحدة الوجود . غير ان هناك كثيرا من النصوص والاقوال تنفي عنه هذه الأفكار .

فابن عربي كان يقول : « أنا أعرف اسم الله الأعظم »(٢٤) . وقد جعل القرآن مصدره الاول فنراه يقول : « ما عندنا بحمد الله تقليد لأحد انما فهم في القرآن أعطيته ومدد من رسولي اختصصت به ، وفيض من ربي

اكرمني بانواره » (٢٥) .

وفي وصية (٣) قال ابن عربي : « أحسن الظن بربك » ، وفي وصية (٤) قال : « عليكم بذكر الله في السر والعلن » . وفي وصية (٧) قال : « ثابر على كلمة الاسلام وهي قولك : لا اله الا الله » . وفي وصية (٢٦) قال : « وعليك بتلاوة القرآن وتدبره » . وفي وصية (٤١) قال : وعليك بالصلاة المكتوبة » (٢٦) . وقال ابن عربي في الديوان :

وان لي ربا كريما أجده   كالذي نعلم أو نعتقده

وكان الشعراني يحرص كل الحرص على تبرئة ابن عربي من فتنة القول بوحدة الوجود أو بالحلول . ويقول نيكلسن : « لا مبرر لتهمته بالزندقة » . وقال ابن المسدي : « كان ابن العربي ظاهري المذهب في العبادات ، باطني النظر في الاعتقادات ، خاض بحار تلك العبارات »(٢٧) .

واذا اكتفينا بهذه النصوص والاقوال نستنتج ان ابن عربي لم يقل بالحلول ووحدة الوجود ، وانما نستنتج بانه مؤمن بالله وبرسوله ولا يتطرق اليه الشك . غير اننا اذا جمعنا بين الطرفين اضطرب علينا الامر ولا نستطيع أن نجزم أي الطرفين أحق .

ولهذا يقول الطيباوي : « ولعله اتخذ نظرين في الله ، الاول يتعلق باله القرآن ، ... وهذا الأله ينفي عنه الحلول والاتحاد . والآخر كائن لا صفات له ولا علاقة له ، وهو كل ما هو موجود ، وهو عين المخلوقات »(٢٨) .

ونتيجة لما سبق يصعب علينا أن نجزم أي مذهب ذهب ابن عربي . فاذا كان قد ذهب مذهب « وحدة الوجود » فهذا يعني القضاء على كيان أي دين منزل ، ويضيع معالم الألوهية بمعناها الديني الدقيق . ولكن الاستاذ ابو العلاء عفيفي يهون الأمر حينما يقول : « ولكن مذهب وحدة الوجود ... لم يكن له ذلك الاثر الهادم في مذهب ابن عربي ، فهو يهدم من ناحية ليبني من ناحية اخرى »(٢٩) . ولهذا نستطيع ان نكرر قول الاستاذ حنا الفاخوري : « لعل ابن عربي كان مترددا في قضية وحدة الوجود »(٣٠) .

---

(١) حنا الفاخوري ، وخليل الجر ، تاريخ الفلسفة العربية ، ١ : ٣٦٠ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣ : ١٥٦ .
(٣) بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣٧١ .
(٤) زكي مبارك ، التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، ١ : ١٧٣ .
(٥) تاريخ الفلسفة العربية ، ١ : ٣٦٢ .
(٦) زكي مبارك ، ١ : ١٦٢ .
(٧) مقدمة فصوص الحكم ، ١ : ١١ .
(٨) تاريخ الفلسفة العربية ، ١ : ٣٦٤ .
(٩) نفح الطيب ، ٢ : ٣٦٤ .
(١٠) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ٣ : ١٠٨ .
(١١) سرور ، من أعلام التصوف الاسلامي ، ص١٠١ .

(١٢) تاريخ الفلسفة العربية ، ١ : ٣٦٦ .
(١٣) تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٢٨٠ .
(١٤) ابن عربي ، التدبيرات الألهية ، ص١٧٦ .
(١٥) ابن عربي ، مواقع النجوم ، ص ٦٧ .
(١٦) الفصوص ، ١ : ٤٩ .
(١٧) مقدمة الفصوص ، ١ : ٣٨ .
(١٨) جبور عبدالنور ، التصوف عند العرب ، ص١٢٩ .
(١٩) عبداللطيف الطيباوي ، التصوف الاسلامي العربي ، ص ١٠٦ ــ ٧ .
(٢٠) تاريخ الفلسفة العربية ، ١ : ٣٦٧ ــ ٨ .
(٢١) مقدمة الفصوص ، ١ : ٢٠٥ .
(٢٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧٣ .
(٢٣) عبدالنور ، ص ١٢٩ ، ١٤٣ .
(٢٤) ابن شاكر ، فوات الوفيات ، ٢ : ٤٧٩ ، ابن كثير ، ١٣ : ١٥٦ ، نفح الطيب ٢ : ٣٦٤ .
(٢٥) تاريخ الفلسفة ، ١ : ٣٦٥ .
(٢٦) ابن عربي ، الوصايا ، ص ٧ ــ ٧٢ .
(٢٧) ابن شاكر ، ٢ : ٤٧٨ ، نفح الطيب ، ٢ : ٣٦٣ .
(٢٨) الطيباوى ، ص ١٠٤ وما بعدها .
(٢٩) مقدمة الفصوص ، ١ : ٤٢ .
(٣٠) تاريخ الفلسفة العربية ، ١ : ٢٧١ .



الفيلسوف توماس الأكويني

غذته الفلسفة الرشدية فتنكر لها

عبد الإله ابو عياش

كثيرا ما يبدو ان عقدة الكره التي تعمقت جذورها في نفوس الاوربيين للتراث الشرقي بصفة عامة والتراث العربي الاسلامي بصفة خاصة كانت تبعد الاوربيين عن النظر في معالجة الموضوعات التي خاضها المفكرون المسلمون نظرة موضوعية تتسم بالطريقة العلمية . ومع أن البعض حاول الوصول في ابحاثه الى الحقيقة بأسلوب علمي الا انهم لم يستطيعوا التخلص من آثار تلك العقدة التي حكمت العلاقات الاسلامية ـ الاوربية قبل الحروب الصليبية وبعدها . عقدة كانت تلعب دورها في ابعاد النظرات العلمية الموضوعية عن الحقائق الواضحة ومحاولات اللف والدوران للبعد عن الحقيقة .

اذكر مثالا لذلك كتاب « الإسلام والغرب »⁽¹⁾ لمؤلفه نورمان دانيال وهو عبارة عن آراء غربية تجنية في الدين الاسلامي وبالرغم من ان صاحبه يدعي الموضوعية في ما حاول بحثه نجده لا يتطرق الى معالجة الموضوع من ناحية الدين المسيحي . بينما كان الموضوع بطبيعته يقتضي البحث وراء الحقائق للوصول الى نتيجة ما .

ولنرجع الآن قرونا الى الوراء لنلتقي بأحد أولئك الذين غذتهم الفلسفة الاسلامية فغرفوا من مناهلها ولكنه تنكر لها فلم يشر اليها ولم يعط تلك الفلسفة حتى كلمة شكر كونها من أهم المصادر التي استقى منها جزء من فلسفته . ان تلك الشخصية هو توماس الاكويني . فقد تأثر الاكويني بالفلسفة الاسلامية وخاصة فلسفة ابن رشد وهي ما سيدور حوله مقالنا هذا . الا ان الاكويني لم يشر الى ذلك في كتاباته كما ان كثيرا من الكتاب الاوربيين حاولوا الدفاع عن بعض الاراء التي جاء بها الاكويني على انها من بنات افكاره . وان ما حدث من وجود تشابه بينه وبين آراء ابن رشد ليس الا توارد خواطر . اي ان الاكويني في نظر هؤلاء لم يكن متأثرا او ناقلا لجزء من فلسفة ابن رشد وانما كان صانعا لتلك الفلسفة المشابهة لفلسفة ابن رشد .

وسأحاول في هذا المقال عرض الحقائق الثابتة التي تؤكد اثر فلسفة

ابن رشد على الاكويني وكيف انتقلت تلك الفلسفة الى الاكويني ؟ وكيف اطلع عليها ؟ وسنستعرض حياة الاكويني والاماكن التي درس فيها ووصل اليها في تنقلاته والمفكرين الذين اتصل بهم والظروف السائدة في عصره لنستخرج بعد ذلك من الحقائق ما يؤكد وجهة نظرنا من ان الاكويني مرتبط بفلسفة ابن رشد ارتباط السوار بالمعصم ٠

حياته : ولد القديس توماس الاكويني في قلعة « ردكا سيكا » قرب نابلي في اواخر سنة ١٢٢٤م أو اوائل سنة ١٢٢٥م ٠ وكان والده اميرا وعندما بلغ عمره خمس سنوات ارسل الى دير « بنيدكتاين » في « مونتي كاسينو » وكان اعداده للمستقبل ليصبح قديسا وطبيبا وقد بقي في الدير من سنة ١٢٣٠-١٢٣١م ، عندما طرد فردريك الثاني الرهبان ٠ وعاد بعدها الغلام الى عائلته لبضعة أشهر ارسل بعدها الى جامعة نابلي في خريف نفس العام وكان عمره أربعة عشر عاما ٠

اتصاله بالدومنيكان :

كان في مدينة نابلي دير للرهبان الدومنيكان وقد جذبت حياتهم الاكويني وانضم الى نظام الجماعة ١٢٤٤م ولم يمانع والداه ذلك وهما اللذان ارادا دخوله الى دير مونتي كاسينو كخطوة نحو التدرج الروحاني وعندما اراد الرئيس الدومنيكاني اخذه الى « بولونيا » على ان يرسل بعدها الى جامعة باريس عارضت عائلته ذلك واعيد الاكويني وهو في طريقه وبقي في « اكوينو » كسجين لمدة سنة تقريبا ٠ وقد كان راغبا في ذلك النظام الدومنيكاني ولهذا نجده في ما بعد يشق طريقه الى باريس في سنة ١٢٤٥م ٠

مع البرت الكبير :

ومن المحتمل انه بقي في باريس من ١٢٤٥م حتى صيف سنة ١٢٤٨م عندما ذهب بصحبة البرت الكبير الى كولون حيث كان الاخير قد انشأ بيتا لدراسات « النظام الدومنيكاني » وبقي هناك حتى سنة ١٢٥٢م ٠ وخلال هذه الفترة في باريس أولا وفي كولون أخيرا كان للاكويني اتصال مع البرت الكبير الذي تحقق من امكانيات تلميذه ٠ ولقد كان واضحا ان رغبته في التعليم والدراسة يجب أن تحفز بشكل كبير بواسطة اتصال ودي مع استاذ له اطلاع عقلي واسع ٠ ويمكننا القول ان محاولة البرت لاستثمار ما هو ذي قيمة في الارسطوطاليسية كان بدون أن يكون لها تأثير مباشر على عقل تلميذه وحتى ان الاكويني لم يفكر في اتمام ما بدأه استاذه ولكنه تأثر على الاقل بعمق بالعقلية المتفتحة لهذا الاخير ولا شك ان مقابلته بمطلع وذي عقلية متفتحة وتوفر قوة تأملية وقابلية توحيدية لدى الاكويني كانت تؤدي الى نتيجة عظيمة ٠

وقد كان هدف الاكويني التوصل الى توضيح الايدولوجية المسيحية

بتعابير ارسطوطاليسية واراد استثمار الارسطوطاليسية كأداة للتحليل اللاهوتي والفلسفي والتوحيدي • وقد كان هذا بلا شك عاملا رئيسا في نموه العقلي • والحقيقة الرئيسة هي ان البرت كان « سقراط » توماس •

مهمته التدريسية :

وفي سنة ١٢٥٢م عاد الاكويني من كولون الى باريس متابعا دراسته ومحاضرا في الكتاب المقدس • وقد حصل على اجازة للتدريس في كلية اللاهوت • وفي نفس الفصل الدراسي للسنة ذاتها أصبح مأمورا ومحاضرا واستاذا دومنيكانيا حتى سنة ١٢٥٩م • وغادر باريس الى ايطاليا سنة ١٢٥٩م ودرس اللاهوت في البناية الملحقة بالبلاط البابوي حتى سنة ١٢٦٨م• وقد عمل في بلاط ايريان الرابع وقابل هناك المترجم المشهور « موير بك » •

وعاد مرة أخرى في سنة ١٢٦٨م الى باريس ودرس هناك حتى سنة ١٢٧٢م وانشغل بالجدل مع الرشديين ومع الذين جددوا هجومهم على الانظمة الدينية • وفي سنة ١٢٧٢م ارسل الى نابلي في مهمة لتشييد بناية عامة للدراسات الدومنيكانية واستمر في مهنته هناك حتى سنة ١٢٧٤م عندما استدعاه البابا « كريكور العاشر » الى ليون ليشارك بالمجلس البابوي وكانت الرحلة قد بدأت الا انها لم تتم حيث ان الاكويني مات في الطريق في ٧ مارت « آذار » سنة ١٢٧٤م في دير فوسانوتا بين نابلي وروما (٢) •

ذيوع فلسفة ابن رشد في اوروبا :

لا يوجد هناك دليل ثابت يشير الى اول الذين نقلوا فلسفة ابن رشد الى الاوربيين فلحد الآن ما زالت هناك آراء مختلفة حول أول من نقل تلك الفلسفة الا ان تلك الآراء بالرغم مما بينها من اختلافات فانها تؤكد على ان آراء ابن رشد ترجمت ونقلت من قبل المترجمين الاوربيين •

فهناك من يعتقد بان فئة من اليهود هي اول من اشتغل بترجمة آثار ابن رشد الذي عرف لدى المدرسيين في ما بعد بالشارح(٣) ويذكر ايضا ان أقدم من انكب على ترجمة تآليفه هو ميشيل سكوت «١٢١٧ـ١٢٣٠» ثم هرمان الالماني بين ١٢٤٠ـ ١٢٥م الذي كان يريد الحصول على دائرة معارف كاملة لكتب ارسطوطاليس التي شرحها ابن رشد(٤) •

ويقول المستشرق الفرنسي رينان « ان اول من عرف الناس بابن رشد هو ميشيل سكوت الذي ترجم شرح كتاب السماء والعالم وشرح كتاب النفس(٥) وقد اهديت ترجمات ميشيل سكوت الى الامبراطور فردريك الثاني الذي كان يعيش في بالرمو في حاشية تزخر بالعرب واليهود •

ويذكر ايضا بان القرن الثالث عشر كان عصر الالحاد في الغرب ذلك ان شغف فردريك الثاني بالفلسفة العربية كان يسير جنبا الى جنب مع حركة الحادية غزت اوروبا وايطاليا على وجه الخصوص •

وقد قام مترجمون آخرون بترجمة شروح ابن رشد وذلك لاشباع الحاجة العقلية والحضارية لدى فردريك الثاني ومن هؤلاء (يعقوب ابن أبا ماري)[٦] .

ويذكر العقاد في كتابه عن ابن رشد ان توماس الاكويني طلب من صديقه وليام موبربك ان ينقل جميع كتب ابن رشد[٧] .

ان ما اردنا التوصل اليه من عرض هذه الدلائل هو ان شروح ابن رشد ومؤلفاته ترجمت من قبل الاوربيين ونقلت الى اوربا فعندما جاء الاكويني كانت هذه الشروح والمؤلفات جاهزة امامه للاطلاع عليها والاستفادة منها .

اطلاع الاكويني على آراء ابن رشد :

من المعروف عن الاكويني انه تصدى للرشديين ورد عليهم . واذا نحن سلمنا بذلك فلابد لنا من مناقشة الموضوع . فكيف يستطيع فيلسوف كالاكويني ان يرد على الرشديين وهو لا يعرف آراءهم ؟ ثم ان استخدام الحجة للرد على قول من الاقوال يستدعي تجميع النقاط الكفيلة للرد على الموضوع المراد مناقشته حتى في المواضيع العامة فكيف بالنسبة لمثل هذه المواضيع الحساسة التي تستدعي تفكيرا عقليا واعيا ومنظما .

ان هذا سيقودنا الى القول بأن الاكويني قد اطلع بالفعل على آراء ابن رشد ذاتها ليعرف تلك الآراء وذلك ليكون رده مقنعا وفي محله .

وربما ينبري قائل ليقول : كيف ان الاكويني تأثر بابن رشد طالما تنقصنا الدلائل التي تثبت الصلة الاكيدة للاكويني بابن رشد ؟ . ونجد انفسنا لحظتها في حرج في الموضوع ولابد عندها من الاشارة الى تلك الدلائل التي تؤكد ذلك الاتصال .

الدلائل الثابتة لاتصال الاكويني بابن رشد :

ذكرنا عددا من الدلائل التي تشير الى انتقال فلسفة ابن رشد وآرائه الى الاوربيين وسنتطرق الآن الى الدلائل التي تشير الى انتقال فلسفة ابن رشد وآرائه الى الاكويني والكيفية التي تمت بواسطتها انتقال تلك الفلسفة . ثم الاشخاص الذين اتصل بهم الاكويني والذين كان لهم اطلاع على فلسفة ابن رشد وآرائه .

اولا : يذكر الاستاذ ماجد فخري في كتابه عن ابن رشد انه ما ان شاعت آثار ابن رشد بين الفلاسفة المدرسيين حتى انقسموا الى فريقين يشهد كلاهما بعلو كعبه في الفلسفة لا سيما مدى نفوذه الى اغوار الفلسفة الارسطوطاليسية . فريق يأخذ بأقواله دون تحفظ وفريق يأخذ عليه مفهومه الجبري للكون . وقد تزعم الفريق الاول « سيجر دي برابانت » حامل لواء المدرسة الرشدية اللاتينية في باريس في القرن الثالث عشر . وتزعم الفريق

الثاني القديس توماس الاكويني الذي حمل على هذه المدرسة في كتابه الرد على الرشديين وقد بلغ النزاع حدا اضطرت السلطة الكنسية عنده الى التدخل(٨) .

ثانيا : ذكرنا ان الاكويني طلب من صديقه « وليام فردريك » ان ينقل جميع كتب ابن رشد(٩) . وهذا يعني انه كان لدى الاكويني رغبة شديدة للاطلاع على آراء ابن رشد والا لماذا يطلب من صديقه أن يترجم آثار الفيلسوف العربي لو لم يكن له هدف من وراء طلبه ؟ .

ثالثا : يذكر العقاد في كتابه عن ابن رشد « انه على الرغم من تحريم الاشتغال بالدراسات الدنيوية أو العالمية على الرهبان فقد اقبل على دراسة ابن رشد ومناقشته والاستفادة منه قطبـان أمامان في رهبنة الدومنيكان ورهبنة الفرنسيين وهما توماس الاكويني وروجر بيكون(١٠) .

رابعا : لقد كان البرت الكبير استاذ الاكويني وكان لالبرت المام شامل بالفلسفة الاسلامية وهو كما ذكرنا أخذ عن استاذه وتأثر به(١١) .

خامسا : يؤكد « اسين بلاسيوس » على الصلة بين الاكويني وابن رشد ويبين ان الآراء الدينية لدى الاكويني هي عبارة عن ترجمة للآراء الدينية لابن رشد(١٢) .

سادسا : يذكر روم لاندو في كتابه الاسلام والعرب ان الاكويني استعار كثيرا من فكرات ابن رشد(١٣) .

محاولات التشكيك بابن رشد :

ان من جملة الوسائل التي يحارب بها ابن رشد من قبل الكتاب الاوروبيين الصاق تهمة الالحادية بابن رشد وذلك يعني انه طالما ان ابن رشد ملحد فكيف يقول بفكرة التناغم بين العقل والدين ؟ وهذا لا يمكن فابن رشد اذن لم يأت بهذه الفكرة وان الاكويني هو أول من جاء بها .

والحقيقة الثانية للرد على هذا الاتهام هي ان فردريك الثاني كان من انصار المذهب العقلي الموجه ضد السلطة الدينية فانه وجد في شروح ابن رشد لآراء ارسطو وسيلة لتدعيم ذلك المذهب(١٤) . وتقول آراء ارسطو وليست آراء ابن رشد . اي ان الفيلسوف العربي اتبع الامانة العلمية في شروحه لنقل الآراء الارسطوطاليسية . وان محاولة البعض الصاق تهمة الالحادية به تدينهم انفسهم لانهم انما يحاولون التشويش والتمويه في الحقائق العلمية .

ومما يؤكد كذب هذا الادعاء ان المترجمين اشاروا على فردريك الثاني عدم ترجمة كتاب الفلسفة لابن رشد لان فيه ما يدحض نظريتهم المعتمدة على العقل الالحادي .

ويؤكد رينان حقيقة مهاجمة الاكويني لابن رشد بقوله « ان مهاجمة

ابن رشد ترتبط في تفكير الاكويني بالرغبة في حماية العقائد المسيحية من الفلسفة الارسطوطاليسية »(١٥) ٠

لماذا تنكر الاكويني لابن رشد ؟

يبدو ان السبب في عدم الاشارة الى ابن رشد من قبل الاكويني ان لم يكن تجاهلا فربما لان ردة الفعل الدينية التي أوجدتها الحركة الالحادية كانت عاملا مهما في ابعاد ابن رشد عن الاذهان وعدم الاشارة اليه ومهاجمته بكونه شارح الآراء الالحادية الارسطوطاليسية واكد ذلك ما ذكرناه عن رينان من ان مهاجمة ابن رشد ترتبط بالرغبة في حماية العقائد المسيحية من الفلسفة الارسطوطاليسية ٠ ونستطيع القول ايضا انه ربما اراد الاكويني أن ينسب لنفسه بعض الآراء التي جاء بها ابن رشد ويدعي في ما بعد كما ادعى بعض الكتاب الاوروبيين من ان المسألة لا تعدو أكثر من توارد خواطر بين الفيلسوفين ٠

ونحن اذا سلمنا بذلك فلابد لنا أن نسأل هذا السؤال : طالما ان الدلائل تشير الى تلك الصلة بين الاكويني وابن رشد وان الاكويني أخذ من ابن رشد بعض آرائه فلماذا لم يشر الاكويني ومن معه من الكتاب المتحمسين له الى ذلك ؟ اذن فالتنكر وعدم الاشارة الى آراء الفيلسوف العربي كانت مقصودة طالما ان كل الدلائل تشير الى ان الاكويني قد تغذى بما جاء به ابن رشد ٠

الرشديون ومحاولة للرد :

من جملة القضايا التي رد بها الاكويني على ابن رشد أو على اتباعه من اللاتين خاصة في ما يتعلق بما قاله ابن رشد أو ان اتباعه من الرشديين قالوا ذلك استنادا الى بعض اقواله من انه قد يتفق ان تكون قضية ما صادقة في الفلسفة وكاذبة في الدين دون تناقض(١٦) ومع ان البعض يعترض على ارجاع هذا القول الى ابن رشد ، الا اننا في كلتا الحالتين نريد القول بأن الاكويني كان له اطلاع على شروح ابن رشد ومؤلفاته والا فكيف يستطيع الرد على هذه المسألة وهو فيلسوف مشهود له من قبل الباحثين الاوروبيين باصالة فلسفته بدون أن يكون له سابق اطلاع على الآراء التي تعالج مثل هذه المسائل وتبحث بها خاصة وان الرد على الرشديين يقتضي دراسة عميقة لآرائهم ؟

ثم في كتابه الرد على الرشديين ــ وكما هو معروف فان الرشديين هم تلك الجماعة التي أخذت آراء ابن رشد كأساس لدراساتها الفلسفية ــ بالرغم من التحوير الذي « احدثه هؤلاء في آراء ابن رشد ــ فكيف لا يطلع مثل هذا الفيلسوف على أعماق المسائل التي جرى حولها النقاش والرد والاعتراض ؟ واذا لم يطلع فكيف يستطيع عندها الرد على قضاياهم لم يعرف جوانبها ؟

وكما ذكرنا ايضا في ان المفكرين الذين اتصل بهم الاكويني كالبرت

الكبير ووليام موبربك كانوا قد اطلعوا على الفلسفة الاسلامية وخاصة فلسفة ابن رشد وهو لابد تأثر بما اطلع عليه هؤلاء وغيرهم ٠

الخلاصة : ومهما تكن طبيعة الآراء التي عالجت الموضوع فان هدفنا للوصول الى الحقيقة سيبقى قائما على اساس الاسلوب العلمي ٠ وقد أشارت الحقائق المتمخضة عن هذا الاسلوب الى ان الاكويني متأثر بالفلسفة الرشدية ولا سيما الآراء الدينية منها وان تأثره واطلاعه لم يكن مجرد اطلاع سطحي عابر وانما اطلاع باحث وفيلسوف عميق التفكير ٠

واذا كان بعض الكتاب الاوربيين يهدفون الى القول بان ما جاء به الاكويني من آراء مشابهة لابن رشد لم يكن سوى توارد خواطر فهم يكونون قد وضعوا انفسهم امام أمرين :

الامر الاول : اما ان الاكويني لم يطلع على فلسفة ابن رشد وشروحه ومؤلفاته ويكون عندئذ ما جاء عنه من انه رد على الرشديين وعلى آراء ابن رشد ضربا من صنع الخيال ويكون كل ما قيل عنه كذبا وافتراء والامر الثاني : هو ان الاكويني اخذ عن ابن رشد بعض آرائه وانه أراد الصاق تلك الآراء بنفسه وبذلك تكون أمانته العلمية وعمق نظرته الفلسفية مسألة معرضة للشك وستعرض كل ما قيل عن الاكويني للشك والعودة لاثارة البحث من جديد ٠

ومهما تكن طبيعة تلك المحاولات فقد جذبت الفلسفة الاسلامية الاكويني وخاصة الفلسفة الرشدية فغرف منها واستطاعت تلك الفلسفة أن تنسج جزءا من شخصيته ٠ ومهما حاول البعض من الكتاب الاوروبيين التنكر لابن رشد فان الاستمرار في دراسة آثاره من قبل الاوروبيين طيلة قرون عديدة ونهج كثير من الفلاسفة نهجا رشديا في نظرتهم الى العقائد الدينية يؤكد بالدليل القاطع على ما تتمتع به آراء ابن رشد من مكانة عالية حتى في الاوساط الفلسفية المعاصرة والتي تعطي الفيلسوف العربي حقه مهما حاول البعض التنكر له ٠

---

(1) Daniel, Norman. Islam and the West. Edinburg (1960).

(2) Coplesion, Frederivk. A History of Philosophy Vol. II. London, (1950).

(٣) فخري ـ ماجد ـ ابن رشد ـ بيروت ـ ١٩٦٠ ص ١٢٨ ٠

(٤) قاسم ، محمود نظرية المعرفة عند ابن رشد ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٢ ـ ص٦٠ ٠

(٥) قاسم ـ محمود ـ نفس المصدر ص ٥٨ ٠

(٦) قاسم ـ محمود ـ نفس المصدر ص ٦٠ ٠

(٧) العقاد ـ عباس ـ ابن رشد القاهرة ـ ١٩٥٧م ص٤٩

(٨) فخري ـ ماجد ـ نفس المصدر ص١٤٠ ٠

(٩) العقاد ـ عباس ـ نفس المصدر ص٤٩ ٠

(١٠) العقاد عباس ـ نفس المصدر ص٥٠ ٠

(١١) Copleston. Ibid, p. 302.

(١٢) قاسم ـ محمود ـ نفس المصدر ص٧٤ ٠
(١٣) لاندو ـ روم ـ الاسلام والعرب ـ بيروت سنة ١٩٦٢م ص٢٣٠ ٠
(١٤) قاسم ـ محمود نفس المصدر ص٦٤ ٠
(١٥) قاسم ـ محمود ـ نفس المصدر ص ٧٤ ـ ٧٥ ٠
(١٦) ماجد ـ فخري ـ نفس المصدر ص١٦٤ ٠

المراجع الاجنبية والعربية

(1) Copleston, Frederick. A History of Philosophy. Vol. II. London, (1950).
(2) Daniel, Norman. Islam and the West. Edinburg, (1960).
(٣) العقاد عباس ـ ابن رشد ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥٧
(٤) لاندو ـ روم ـ الاسلام والعرب ـ بيروت ـ سنة ١٩٦٢ ٠
(٥) قاسم ـ محمود ـ نظرية المعرفة عند ابن رشد القاهرة ـ سنة ١٩٦٢م
(٦) فخري ـ ماجد ـ ابن رشد ـ بيروت ـ سنة ١٩٦٠ ٠



تجربتي الأولى مع الفقر

فصل من أيام التشرد في باريس ولندن

للكاتب الانكليزي
جورج اورويل ١٩٠٥ـ١٩٥٠

ترجمة
احمد حازم يحيى

كان فندقي يسمى فندق العصافير الثلاثة « اوتيل دي تروا موانو » وهو مكان مظلم كسيح ذو خمسة طوابق ، قسمتها جميعا حواجز من الخشب فكانت النتيجة اربعين غرفة كجحور الارانب ــ من هذه الغرف المزمنـــة القذارة ، فلم يكن في المنزل خادم تتعهدها ولا عند مدام (ف) مالكة المكان ، الوقت الكافي لكنسها • والجدران برقة علب الكبريت ، قد غطيت بطبقات كثيرة من ورق وردي اللون . لاخفاء التصدعات ، فآوت ، بعد انحلالها ، عددا لا يحصى من الحشرات • وعند السقف تزحف صفوف طويلة من هذه الحشرات ، طول النهار ، كصفوف الجند ، وتنزل في الليل ، هائجة الجوع، فلا يجد المرء بدا من أن ينهض ، بين حـين وآخر ، ليقتلها كما في احـدى المجازر • وأحيــانا ، حين يشتد أذاها ، يعمد النزيل الى حرق الكبريت ليطردها الى الغرفة المجاورة ، فيرد الجار على ذلك بأن يحرق الكبريت هو الآخر ليرجعها من حيث أتت • نعم ، لقد كان مكانا وبيئا ، ولكنك تحس فيه بما يشبه جو البيوت لان مدام (ف) وزوجها من الناس الطيبين • اما ايجار الغرف ، فيتراوح بين الثلاثين والخمسين « فرانكا » في الاسبوع •

وأما النزلاء ففي تغير دائم ، أغلبهم أجانب يظهرون فجاة دون متـاع او حوائج ، فيمكثون اسبوعا أو بعض اسبوع ثم يختفون من جديد • كانوا من كل صنف ولون ــ بينهم الاسكافي والبنـاء والحفار والطالب والمومس وجامع الخرق • بعضهم على درجة غريبة من الفاقة • ففي أحد جحور الفندق طالب بلغاري يصنع أحذية زاهية للسوق الامريكية ، يظل في فراشه من السادسة حتى الثانية عشرة يشتغل في هذه الاحذية ليصنع منهما عشرة ازواج أو أكثر يكسب بها خمسة وثلاثين فرانكا • اما بقية اليوم فيمضيه في السوربون يستمع الى المحاضرات • كان يدرس للكنيسة فكانت كتب

اللاهوت هنا وهناك على أرض الغرفة ، وقطع الجلد في كل مكان ٠

وفي غرفة ثانية امرأة روسية مع ولد لها يدعو نفسه فنانا ، تشتغل هي ست عشرة ساعة في اليوم ترتق الجوارب لتتقاضى خمسة وعشرين « سانتيما » على الجورب ، بينما يسكع[1] الابن ، بملابس حسنة ، في مقاهي مونبارناس ٠

وغرفة ثالثة أجرت لنزيلين في وقت واحد ، أحدهما من عمال النهار والآخر من عمال الليل ٠

وفي غرفة اخرى ارمل يشارك ابنتيه البالغتين ـ وكلتاهما مصابة بالسل ـ فراشا واحدا ٠

وتجد في الفندق أطوارا غريبة ـ فاحياء باريس الوبيئة ملتقى هذه الاطوار ـ اشخاصا سقطوا في دائرة موحشة نصف مجنونة من هذه الحياة فلم يملكوا ان يكونوا أسوياء أو لائقين ، وكفوا عن المحاولة ٠ لقد حررهم الفقر من معايير السلوك المعروفة كما يحرر المال الناس من العمل ٠ فبعضهم يعيش على نحو من الغرابة لا تصل اليه الكلمات ٠

ولا ريب ان في سرد حياة هؤلاء متعة لمن عنده الوقت ٠ أما أنا فليس حب الاستطلاع ما يدفعني الى وصف الناس في هذا الحي ، بل لانهم جميعا جزء من القصة ٠ ان موضوعي الفقر ، وقد عرفته أول ما عرفته في هذا المكان ٠ كان هذا الحي ، أول الامر ، درسا معبرا في الفقر ، بقذارته وأطواره الغريبة ، ثم عاد البطانة لتجاربي نفسها ، فأنا احاول لهذا السبب أن أتحدث عن تلك الحياة ٠

عشت في هذا الحي قرابة عام ونصف عام واذا بي أجد نفسي ، في يوم من أيام الصيف ، وقد نفد دخلي الا من اربعمائة وخمسين فرانكا ٠ وبجانب هذا المبلغ ستة وثلاثون فرانكا في الاسبوع احصل عليها من تدريس اللغة الانكليزية ٠ لم أكن حتى ذلك الحين قد فكرت بالمستقبل ، وكان علي الان ان افعل شيئا ، فقررت أن أبحث عن عمل ٠ ومن حسن الحظ ـ كما ظهر لي فيما بعد ـ انني اتخذت الحيطة فدفعت ، مقدما ، شهرين من ايجار غرفتي ـ مائتي فرنك ٠ وكان بوسعي أن أعيش شهرا آخر على ما تبقى لي بجانب دروس اللغة الانكليزية ، وقد أجد عملا في تلك الاثناء ٠ وخطر لي ان اكون دليلا لاحدى جماعات السواح ، أو مترجما ، ولكن حظا عاثرا وقف في طريقي ٠

وذات يوم ظهر في الفندق فتى ايطالي ادعى بأنه يشتغل في الطباعة ٠ وقد وجدت فيه شيئا من الغموض ، اذ كان يترك لحية نامية على خديه ـ علامة الشقاة في باريس او المفكرين ـ ولم يكن أحد ليعلم على وجه التحديد في اي صنف يضعه ٠ أما مدام (ف) فلم تعجبها هيئته وجعلته يدفع اسبوعا من الايجار مقدما ٠ فدفع ومكث اسبوعا في الفندق ٠ وقد استطاع ، أثناء

---

(١) يسكع : يسير على غير هدى ٠

اقامته هذه ، ان يحصل على مفاتيح مطابقة ، ليسطو ، في آخر ليلة على أكثر من عشر غرف من الفندق بينها غرفتي · ومن حسن الحظ أنه لم يجد النقود التي كانت في جيبي ، فبقي معي سبعة واربعون فرنكا لا غير ·

وقد كان من شأن هذه السرقة أن قضت على ما كنت اعلل به نفسي من مشاريع العمل . فقد تحتم علي الان أن أعيش بمعدل ستة فرنكات في اليوم ، ولن أجد المجال في مثل هذه الحال للتفكير في شيء آخر · لقد بدات منذ الان تجربتي مع الفقر ـ فهذه الفرنكات الستة في اليوم ان لم تكن الفقر بعينه فهي حافته · ستة فرنكات تساوي شلنا ، وليس مستحيلا في باريس ان تعيش على هذا المبلغ اليومي ، اذا عرفت كيف تدبر نفسك · ولكنه أمر ليس بالهين ·

تجربتك الاولى مع الفقر غريبة حقا ـ لقد فكرت فيه كثيرا · انه الشيء الذي خشيته طيلة حياتك · الشيء الذي تعرف انه سيحل بك ان عاجلا أو آجلا ، ولكنه الان يختلف أشد الاختلاف عما كنت تتصور · كنت تعتقد انه سيكون من البساطة بمكان ، ولكنك تجده الان في غاية التعقيد · كنت تعتقد انه شيء فظيع ، ولكنه الان مجرد سأم وقذارة ·

تكتشف أول ما تكتشف وضاعة الفقر الغريبة · المواقف التي يعرضك اليها · الخساسة المعقدة والبحث الذليل عن كسرة الخبز ·

تكتشف مثلا هذه التعمية التي تحيط بالفقر · ففي لحظة مفاجئة ترى نفسك وقد تقلص دخلك الى ستة فرنكات في اليوم ، ولكنك لا تجرأ بالطبع على الاعتراف بذلك · ولابد لك أن تتظاهر بأن حياتك تأخذ مجراها الطبيعي · فانت تقع في شبكة من الكذب منذ اللحظة الاولى ، ومع ذلك ، مع هذا الكذب ، لا تستطيع أن تدبر أمرك · تتوقف عن ارسال ملابسك الى الغسالة ، فتستوقفك هذه في الشارع وتسألك عن السبب فتتمتم بحثا عن عذر ، فتصبح عدوك اللدود وقد اعتقدت انك تحولت الى غيرها ·

ويسالك بائع التبغ لماذا أنقصت ما تشتريه منه فلا تدري بماذا تجيب وتصلك رسائل تريد الاجابة عليها فلا تستطيع لان الطوابع أغلى مما تتحمل وخذ الطعام · الطعام أصعب هذه الاشياء جميعا ، فأنت تخرج كل يوم عند موعد الطعام متظاهرا بأنك تذهب الى المطعم فتتسكع ساعة على غير هدى في حدائق الكسمبورك ، تتأمل الطيور · وبعد ذلك تعود الى غرفتك وقد أخفيت طعامك في جيوبك · وطعامك خبز وسمن أو خبز ونبيذ · وحتى طبيعة الخبز تحكمها الاكاذيب ، فلابد أن تشتري الخبز المستدير ، على غلاء ثمنه ، بدلا من خبز البيت ، لانك تستطيع اخفاءه في جيبك · وهذا يضيع عليك فرنكا في اليوم · وتلجأ أحيانا الى أن تصرف ستين (سانتيما) على الشراب ، لتحافظ على المظهر ، فتبقى دون طعام · وتتسخ ملابسك الداخلية ويعوزك الصابون وأمواس الحلاقة · وتحتاج الى أن تقص شعرك فتحاول ذلك بيدك ، ولكنك ترجع بنتيجة مخيفة ، فلا تملك ، بعد محاولاتك ، الا الذهاب الى الحلاق لتنفق ما يعادل طعام يوم · تكذب طول اليوم وتدفع الثمن غاليا ·

تكتشف تذبذب هذه الفرنكات الستة التي تعيش عليها ، فكثيرا ما تحدث نكبات خسيسة تسلبك الطعام · لقد أنفقت آخر نقودك ــ ثماني (سانتيما) على نصف لتر من الحليب · وبينما هو يغلي على مصباح كحولي اذا بحشرة تحط على ذراعك فتطوح بها بحركة سريعة فتسقط ·· أين ؟ في وسط الحليب · ولا تملك بعد ذلك الا أن ترمي به ، وتبقى دون طعام ·

أو تذهب الى حانوت الخباز لتشتري بعض الخبز · وتنتظر ريثما تقطع الفتاة شيئا منه لزبون آخر · وترتبك هذه فتقطع أكثر مما طلب الزبون وهي تقول : « عفوا أيها السيد · لا أظن انك تمانع في هذه الزيادة البسيطة في الثمن ؟ » وحين يخطر لك انك معرض الى مثـــل هذا الخطأ ، وسوف تضطر انذاك الى الاعتراف بعجزك عن الثمن يأخذك رعب مفاجيء وتلوذ بالفرار · ولا تستطيع الدخول الى مخبز آخر قبل أن تنقضي ساعات على تلك التجربة ·

وتذهب الى بائع الخضار لتنفق فرانكا على « كيلوغرام » من البطاطس ولكن قطعة من النقود التي تؤلف الفرانك عندك ، بلجيكية ، يرفضها صاحب الحانوت · فتخرج خجلا متعثرا ولا تعود مرة اخرى ·

وتتيه خطاك يوما فتجد نفسك في أحد الاحيــــاء المحترمة · وتلمح صديقا من ذوي اليسار مقبلا نحوك ، فتلجأ الى أقرب مقهى لتتفادى اللقاء وفي المقهى يتحتم عليك أن تطلب شيئا ، فتنفق آخر ما تملك على قهوة تسبح فيها ذبابة ميتة ·

نكبات كثيرة مثل هذه ، فهي جزء لا يتجزأ من الفاقة ·

تكتشف طبيعة الجوع · فبعد أن تأكل خبزك وسمنك تخرج لتنظر في نوافذ الحوانيت · فتجد في كل مكان طعـــاما تهينك أكداسه الضخمة ــ أكداس فيها اسراف وتبذير ــ خنازير بكاملها ، سلال من الارغفة الحارة قطع صفراء عظيمة من الزبدة ، حبال من سجق اللحم ، جبال من البطاطس قطع ضخمة من الجبن السويسري ··· فيطغى عليك ، امام ذلك ، احساس كظيم من الرحمة لنفسك ، ويخطر لك أن تقبض على رغيف ثم تهرب به وتلتهمه قبل أن يقبضوا عليك ، ولكنك تحجم عن ذلك ، من الخوف لا غير ·

تكتشف السأم الذي لا ينفصل عن الفقر · الاوقات التي لا تجد ما تعمله فيهـــا ، ولا يستهويك شيء وبطنك خاوية أو تكاد · فتستلقي على فراشك أكثر من نصف اليوم ، وأنت تشعر بما شعر به الهيكل العظمي في قصيدة بودلير jeune squelette لا شيء يستثيرك الا الطعام ·

تكتشف ان من يعيش عسلى الخبز وسمن « المرغرين » ولو اسبوعا واحدا ، لا يظل انسانا ، بل ينقلب الى بطن مع بعض الاعضاء الثانوية ·

تلك هي حياتك وانت تعيش على ستة فرنكات في اليوم · وبوسعك أن تضيف الى ذلك تفاصيل اخرى كثيرة ، ولكن النمط واحد في جميـــع الاحوال ·

نشيد العودة

زهير غازي زاهد

هيـــا الى المجـــد بعـــزم كالحديـد
هيـــا لنحيي عـــز ماضيـنـــا المجيد
هيا فهيهات عن الحق نحيد
هيا بعزم كالحديد

*

نحـــن واهلـونـــا فـداء الـوطـــن
نحـــن دروع الشعـب يوم المحـــن
هيا نشق الدرب رغم الزمن
هيا بعزم كالحديد

*

لا ترهـب المـوت اذا الداعـي دعـــا
والعرس في صـوت الـردى ان لعلعـا
هيا لقد حاز المعالي من سعى
هيا بعزم كالحديد

*

يا قدس يا صوت الجهـاد الصـــابر
يـــا جمـــرة الحـــق بقلب الغـــادر
وافاك اهلوك بجيش ثائر
هيا بعزم كالحديد

حكاية الزنابق و الصياد الغريب

محمد اسماعيل الاسعد

انتهجت في هـذه القصيدة (حكـاية الزنابق والصياد الغريب) أسلوبا في توزيع التفاعيل على أبيـات القصيدة خاصا ، وهـو أسلوب الشعر الحر ، فجاءت التفاعيل مختلفة العدد والطول الموسيقي بين الابيات ، منسابة تماما مع نغمة القصيدة الشعورية قبل ان تنتظمها الحروف ، ولا أعتقد ان هذا الشعور يمكن أن ينتظمـه الشكل التقليدي بصـورة صحيحة ، ولا أعتقد أيضا أن هذا الخروج على الاسلوب التقليدي قد أثر تاثيرا سلبيا في بناء القصيدة لاني واثق تماما بأن التجربة الشعرية لا يمكن أن تستوعبها القوالب الجاهزة قبـل ولادتها ، فمن الافضل أن نعطيها الشكل الذي يتيح لنا الالمام بالتجربة بكل أبعادها .

واتباعي لاسلوب الشعر الحر لم يكـن متعمدا ، ورأيي بهذا الموضوع هو أن الشعر العمودي له مواضيعه التي يضيق عن استيعاب غيرهـا اذا ما حـاول أن يتعداها ، وهنـا يأتي دور الشعر الحر ليملأ هـذا الفراغ ، وليستوعب تجارب أعمق ونظرات أشمل للوجود ، ولا أعتقد ان بامكاننا الاستغناء عن الشعر العمودي كتراث نستمد منه الكثير ، وفي نفس الوقت لا ندع صوره تسيطر على شعرنا ، لانه مثلما كان لشاعرنا القديم تجاربه وأحاسيسه فلنا نحن أيضا نظرتنا الجديدة وامالنا الجديدة ، ولا يمكـن أن نستعير النظرات القديمة الى الحياة لنجعلها نظرتنا نحن ، هذا ، ولا يمكن أيضا أن نستغني عن الشعر الحر كتيار جديد أخصب عالمنـا الشعري وخلصه من جمود القرون المظلمة . ويبقى اسلوب الكتابة بأحدهما وأنا أرى أن اللحظة الشعورية هي التي تملي الشكل المطلوب .

أما من ناحية مضمون هذه القصيدة او الرمز الذي توحيه فأستطيع أن اقول بمقدار ما أدركته من قصيدتي أنهـا تصوير لامل الانسـانية في المستقبل السعيد وفقدانها لهذا الامل الذي كان واضحـا يبتسم في الماضي البعيد ، والشاطىء هو صورة هذه الحياة التي كان الانسان يحياها بين أساطير حلوة تجسد أعمق أفكاره لفلسفة الوجود ، وغمغمات لايام رائقة في دجى حياته . والاعين الخضراء هي مستقبل الانسانية وحلمها الطويل .. وطاف الصياد الذي هو روح الانسانية الهائمة في أسرار الحياة والموت .. واصـطاد ذلك اللؤلؤ الفريد ، وضم في يديه تلك الزنابق . البراءة الانسانية الاولى وأنداء أول أمل يرف على الانسان حين تفتحت عيناه تحت سماء هذا الكوكب ..

ولكن ترى هل وصل الى ذات العيون الخضراء ، مستقبله ؟

هنا يرسم واقع الانسانية المحزن ذلك المصير ، فالصياد غريق تتقاذف الامواج عظامه ، والزنبق واللؤلؤ اسطورة ماتت في طوايا السنين ٠٠ وظلت الاعين جوعى ترتقب وصول صيادها الى ضفافها المقفرة ٠٠ وربما تقذف الامواج زنبقة كئيبة ، ولكنها صفراء قد امتص البحر صفائها والبحر هنا هو الزمن الذي أبحر فيه الانسان منذ بدء الخليقة ، فهذا الامل الاخير هو التذكار المصغر الذي تحمله الحبيبة ، انسان الحاضر المتعب ٠

كانت هناك على ضفاف النهر حيث الذكريات
تبقى تهوم في ارتخاء ،
وتغوص أشباح النجوم بلا انتهاء ،
كانت هنالك بين أفياء الظلال ،
تهتز كالنغم المذاب على قياثر من خيال ،
اضمامة من زنبق تسري الحياة
منها ، وينعكس الحفيف على الضفاف الحالمات
كانت هناك ٠٠
والليل ، والقمر الوحيد ،
وخطا الربيع ، وما يبث العشب من نغم شرود ٠
والريح تحمل ما توسوسها المياه ،
عن حلوة خلف الزمان يهزها نغم انتشاء
عن أعين خضراء يشرب غورها الحلم الطويل
بين الترقب والتمني للقاء
فتظل تنشر للرحيل
في المرفأ المسحور اشرعة وترتقب الوصول ٠٠

× ×

وتفيق أطياف ويعبر في الدجى قمر شريد
ينساب من خلل الغصون
منه الضياء ، فتخفق الاعماق ٠٠ يرتعش السكون ،
وتكركر الامواج ٠٠ ينبثق المحار(١)
متفتحا ، تحسو السناء ، جفونه ٠
قطرا ، فقطرا ٠٠ ثم تنطبق المياه ،
وتظل تغرق في دجى الامواج غمغمة افترار ٠
والنخل يصغي ، والمعابر ، والطيوف ،

---

(١) تقول اسطورة يابانية ان المحار يخرج من أعماق البحار في الليالي المقمرة الى وجه المياه ويسرق من ضوء القمر دفقة ثم يغوص مرة أخرى ومن هذه الدفقة يتكون اللؤلؤ ٠

والشاطىء المخضر يرعشه الحفيف ،
والزنبق المذهول اهة عاشق شرب المحار ،
من قلبه ‥ فتفتحت في الشاطىء المهجور وشوشة الحياة ‥

× ×

ويمر عام بعد عام مثلما ذاب النداء
بعد النداء على ضفاف من رمال :
وتعود تضحك في مياه النهر أشرعة الظلال ،
زرقاء أو خضراء من لون الزنابق ، فالضياء
دفء على النهر العميق ينثه القمر الشريد
آها ‥ فآها ، واستفاق الحلم ، والمطر العليل
قطر تسقسق منه إشرعة النخيل ،
فتظل تنطف ‥ ثم تنطف ‥
ثم يرتعش النشيد ‥!

× ×

كانت هناك ‥
كالامس تنسرح الرياح ‥
يتهامس السعف الكئيب ‥
عن حلمها ، يتطلع القمر الغريب
من كوة في الغيم بيضاء الجناح ،
ينشق حقل من محار ،
يحسو اللآلىء ثم يغرق في القرار ‥
وصــدى نواح ‥
كانت هنــاك ‥
كانت هنــاك ‥
غابت هنــاك ‥!

ظلت تهوم وشوشات من بعيد ،
يتهامس الموج الثقيل بها ، ويصمت من جديد ‥

× ×

كالامس ‥ الا انها ليست هناك ‥
تصغي الى حلم أطاف
بـين التطلع والتشوق تحت أفياء السنين
فلقد روت عنها الضفاف ،
والموج ، ان على المياه أطاف صياد حزين
يلقي الشباك ، وينشر اللحن القديم

عن أعين خضراء يشرب غورها الحلم الطويل
عن حلوة باتت هنالك في انتظار
للباقة الزرقاء يحملها اليها ، والنسيم
والزنبق المسحور وسوسة أطافت في رؤاه ..
فتطلعت تلقي شذاها في يديه ،
وترف من شوق عليه ..
وانساب زورقه المغني ،
في الليل ينأى كالخيال المطمئن ..
.. « يا زهر .. يا زهر الزنابق في بلادي ..
يا طيفها .. يا دفء أيام السهاد .. »

* * *

وتلملم الكفان أطراف القلوع
وتظل تحلم بالضفاف وبالرجوع ..

× ×

يحكون عنه .. عن الزنابق .. عن خضار في رؤاه ،
عن لؤلؤ في الصدر أودعه القمر
والليل أسرار السحر
جمعت يداه ..
من مرفأ الحب الفريد ..
يحكون عنه ، عن الرياح يلوب في نسماتها نغم أسير
ناء ، يذكر بالبحار النائيات وبالطيور ،
في صبحها الفضي تلثم شوقه عند الاياب ..
يحكون عنه .. وكيف ضيعه الضباب ..
أواه كم مرت سنين من عذاب ،
غب السفار .. تبللت عيناه يأسا بالنداء
بعد النداء يجيئه من ذلك الشط المضاء
يحكون .. كيف تمزقت كفاه شوقا وهي تحترق الرجوع ..
ولا رجوع ..
وثوى هنالك في ارتخاء
وتفتحت أضلاعه في القاع .. غرغرت الزنابق والقلوع ..
بين الرمال ، وعاد فانفلق الضياء
من سلة تتفتح الاعشاب فيها والمحار ..

× ×

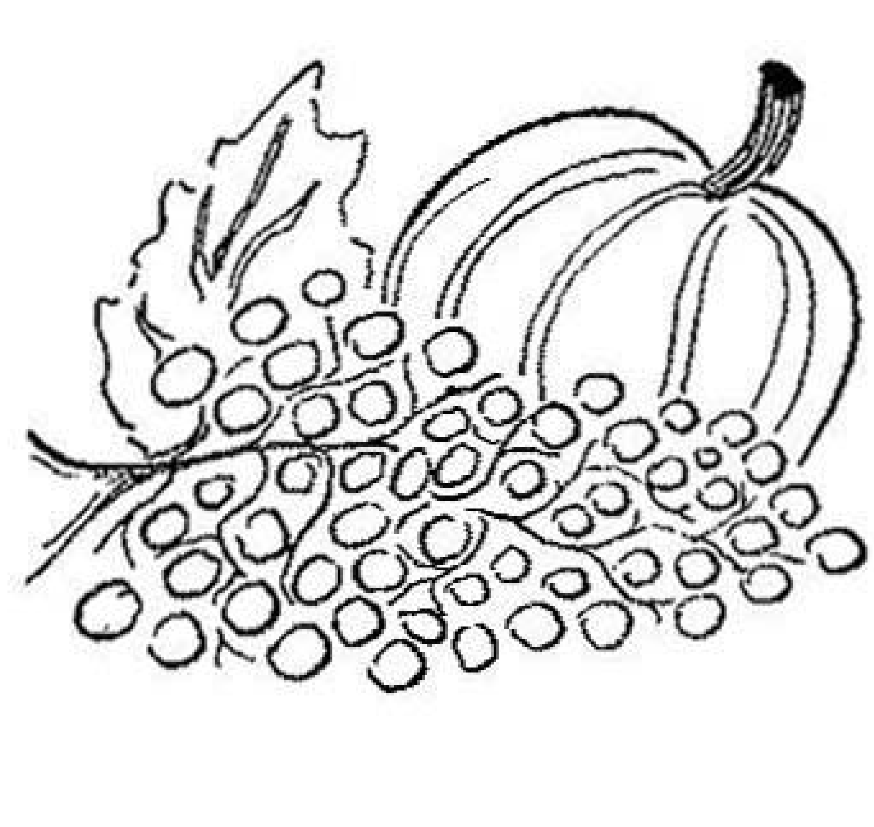
ـ غابت هنالك في السكون
اضمامة من زنبق ـ ، وتبوح أسمار ويطبق في العيون ،
هم يشد قلوعها ‥ هم دفين ‥
هي في رمال البحر ترقد في القرار ،
هي والسكينة والمحار ‥
وضلوع صياد حزين ‥
ولرب يوم تحمل الامواج زنبقة كئيبة ،
نحو الضفاف ، تكون تذكار الحبيبة ‥
عن رحلة الصياد في الامس المثار ،
والليلة القمراء والريح الرطيبة ‥
عن حلمها ذاك الطويل ‥
يأتي اليها في الاصيل ،
بالباقة الزرقاء ، ترتعش الخصوبة ،
تتململ الاشواق فيها ‥ والشريد ‥
يدنو رويدا ‥ ثم يرتعش النشيد ‥

* * *

« يا زهر ‥ يا زهر الزنابق في بلادي
يا طيفها ‥ يا دفء أيام السهاد ‥ »

× ×

وتغمغم العينان في القاع السحيق
ويذيبها الابد العميق ‥



من رثى نفسه من الشعراء

في الجاهلية

نوري حمودي القيسي

الرثاء ظاهرة طبيعية في آداب الامم ، وتكاد تكون معالمه واحدة فيها ؛ لانه التعبير الحقيقي عن العواطف البشرية وهي على أشد حالة من التوتر والتأثر . وقد حفل الادب العربي – كغيره من الآداب – بصورة رائعة من صور الرثاء ، رسم فيه الشعراء أحاسيسهم ، وبكوا من رحل من دنياهم بأفجع ما يصل اليه التعبير ، وعلى قدر ما تتفاوت به الاخيلة والقابليات ، ليدللوا بذلك على عظم المصاب ، وجلاء الرزء ، وشدة الفاقرة .

والرثاء يعتمد على الحالة النفسية التي يحسها الانسان وهو يستقطب اشتات الحزن ، ويستجمع دواعي الرثاء ، ويستكمل صورة المرثي ؛ ليبعد منها اللوحة الفنية التي تتناسب والتجربة التي يعانيها .

ومن هنا كانت قصائد الرثاء في مختلف الآداب اصدق تعبيرا ، وأشد احساسا من اغراض الشعر الاخرى .

ان الشعور بالفراغ الكبير الذي يتركه (الفقيد) بين اهله وذويه واصحابه ، سيخلف في نفس الشاعر – وهو اكثرهم احساسا – مكانا لا يسد ، وجرحا لا يندمل ، وتضل هذه الصورة موجبة في نفسه ، دافعة لاستمراريته الشعرية ، حتى تستكمل القصيدة شكلها .

والشاعر الجاهلي – كغيره من الشعراء الذين سبقوه – ادرك حقيقة الموت بكل ابعادها ، وأحس بقوته التي ارتعدت لها فرائصه ، فبات يخشى المصير ، ويخاف النهاية ، وقد تمثل الخوف من الموت ، والتفكير فيه في الشعر الجاهلي بصورة كثيرة[1] . على ان الشاعر الجاهلي لم يلتزم بهذه الظاهرة ، ويقف عندها الوقفة التي تثير في نفسه اليأس وحده ، وانما حاول أن يعللها بالاسباب التي تهيأت له ، وهداه اليها تفكيره .

ان قصائد الرثاء المتناثرة في دواوين الشعراء ، ومجاميع الشعر الموثوق بها ، تؤكد هذه الحقيقة ، وتوضح جوانبها التي عرفها الشاعر

الجاهلي ، وتلمس جوهرها ، وتكشف لنا موقفه تجاهها ، الذي تمثل بأساليب تعبيره ٠

والرثاء في الشعر موضوع واسع ، تتعدد اطرافه ، وتتسع نواحيه ، لا يلم به في مثل هذه المقالة القصيرة[٢] ، ولكني سأقتصر على جانب واحد من الرثاء ؛ يتمثل في رثاء الشعراء انفسهم ، وندبهم حياتهم ؛ لانني لمست في هذا الاتجاه احساسا قويا ، وادركت عاطفة متميزة ، ولان هذه الظاهرة متعلقة بالشاعر نفسه ، فهو صاحب المصير المحتوم ، ومن أولى برثائه منه . فلا غرابة اذا وجدنا العاطفة الصادقة تتدفق بغزارة ، وتنبعث بقوة ، مجسدة آماله في الحياة ، مصورة نهايته التي ادرك انه ملاقيها ٠

ومن خلال دراستي للشعر الجاهلي وقفت عند بعض القصائد التي بكى فيها الشعراء انفسهم ، وذموا الدنيا ٠ ولعل قصيدة يزيد بن الخذاق[٣] التي أسف فيها على نفسه اول شعر قيل في هذا الباب ٠ فقد تخيل ما سيصنع به أهله بعد الموت من ترجيل شعره ، (الترجيل : تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه) وادراجه في الكفن ، واختيار أفضل الفتيان ؛ ليتولوا دفنه في ضريحه ٠ ولعله قد انفرد بهذا التصوير المفصل لهذه الحال بين الشعراء ، وهو لم يقف في قصيدته عند هذا الموقف من ظاهرة الموت التي نظر اليها هذه النظرة ، وانما حاول أن ينتفع من تجربة الحياة التي عاشها ، فحاول ان يقدم النصيحة للذين يستقبلون الحياة ، فهو يهون شأن المال ؛ لانه سوف ينتهي الى الوارث فيقول[٤] :

هل للفتى من بنات الدهر من واق ... أم هل له من حمام الموت من راق[٥]
قد رجلوني وما رجلت من شعث ... وألبسوني ثيابا غير اخلاق[٦]
ورفعوني وقالوا : أيما رجل ... وادرجوني كأني طي مخراق[٧]
وارسلوا فتية من خيرهم حسبا ... ليسندوا في ضريح الترب اطباقي[٨]
هون عليك ولا تولع باشفاق ... فانما مالنا للوارث الباقي[٩]
كأنني قد رماني الدهر عن عرض ... بنافذات بلا ريش وافواق[١٠]

اما القصيدة الثانية فهي قصيدة عبد يغوث بن وقاص الحارثي[١١] وكان من خبره انه اسر يوم الكلاب الثاني ، وكان قائد قومه مذحج ، وأراد أن يفدي نفسه ، فأبت بنو تميم الا ان تقتله بالنعمان بن جساس . ولم يكن عبد يغوث قاتله ، ولكن قالت تميم : قتل فارسنا ولم يقتل لكم فارس مذكور ٠ وكانوا قد شدوا لسانه لئلا يهجوهم ، فلما لم يجد من القتل بدا طلب اليهم ان يطلقوا عن لسانه ، ليذم أصحابه وينوح على نفسه ، وان يقتلوه قتلة كريمة ، فأجابوه ، وسقوه الخمرة وقطعوا له عرقا يقال له الاكحل ، وتركوه ينزف حتى مات ٠

فقال هذه القصيدة حين جهز للقتل[١٢] :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا ... فما لكما في اللوم خير ولا ليا

ألم تعلما ان الملامة نفعهـــــا ... قليل ، وما لومي أخي من شماليا
فيا راكبـــا اما عرضت فبلغــن ... ندماي من نجران أن لا تلاقيا (١٣)
ابا كـــرب والايهمــين كليهمـــا ... وقيسا بأعلى حضرموت اليمانيـــا
جزى الله قومي بالكـــلاب ملامـــة ... صريحهم والآخرين المواليـــا (١٤)
ولو شئت نجتني من الخيل نهـدة ... ترى خلفها الحو الجياد تواليـا (١٥)
ولكنني أحمــي ذمــار أبيكـــم ... وكان الرماح يختطفن المحاميـا (١٦)
اقول وقد شدوا لساني بنسـعة ... أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا (١٧)
أمعشر تيم قد ملكتم فاسـجحوا ... فان أخاكم لم يكن من بوائيـا (١٨)
فان تقتلوني تقتلوا بي ســـيدا ... وان تطلقوني تحربوني بماليا (١٩)
أحقا عباد الله أن لست سـامعا ... نشيد الرعاء المعزبين المتاليـا (٢٠)
وتضحك مني شيخـة عبشـمية ... كان لم تر قبلي اسيرا يمانيـا (٢١)
وظل نساء الحي حولي ركـــدا ... يراودن مني ما تريد نســـائيا
وقد علمت عرسي مليكـــة أنني ... أنا الليث معـدوا علي وعـاديا
وقد كنت نحار الجزور ومعمــل المطي وأمضي حيث لا حــي ماضيـــا
وانحر للشرب الكـــرام مطيتـــي ... واصدع بين القينتين ردائيـــا (٢٢)
وكنت اذا ما الخيل شمصها القنـــا ... لبيقا بتصريف القناة بنانيـــا (٢٣)
وعادية سوم الجـراد وزعتهـــــا ... بكفي وقد انحوا الي العواليـــا (٢٤)
كأني لم اركب جوادا ولـم اقـــل ... لخيلي كري نفسي عن رجاليـــا
ولم اسبأ الزق الروى ولم اقــل ... لايسارصدق :اعظموا ضوء ناريا (٢٥)

والقصيدة الثالثة التي وقفت عندها هي قصيدة بشــر بن أبي خــازم الاسدي (٢٦) وقد ذكر في اسباب قولها ان غلاما من الابناء رمى بشر بن أبي خازم بسهم فاثخنه . والابناء وائلة ومرة ومازن وغاضرة وسلول بنو صعصعة . فكل ولد صعصعة غير عامر يسمون الابناء .. والغلام من بني وائلة بن صعصعة . وأن بشرا اسر الوائلي . ثم ايقن بشر انه ميت فاطلق الغلام في بعض الطريق وقال : انطلق واخبر أهلك أنك قتلت بشر بن أبي خازم . ثم اجتمع اليه اصحابه فقالوا له : اوص . فقال هذه القصيدة وهو يجود بنفسه . فمات بالرده من بلاد قيس ، فدفن هناك ، وبشر يرثي نفسه بهذه القصيدة ويفخر بها وبقومه وهي من جيد شعر العرب (٢٧) :

اسائلة عميرة عن أبيهـــــا ... خلال الجيش تعترف الركابا (٢٨)
تؤمــل أن أؤوب لهــــا بنهب ... ولم تعلم بان السهم صابـــا (٢٩)
فان أبـاك قد لاقــى غـــلامـا ... من الابناء يلتهب التهابـــا (٣٠)
وان الوائلي أصـــاب قلبــي ... بسهم لم يكن يكسي لغـــابا (٣١)
فرجي الخير وانتظــري ايابــي ... اذا ما القارظ الغــزي آبـــا (٣٢)
فمن يك سائلا عن بيت بشــر ... فان لــه بجنب الرده بابـــا (٣٣)

ثوى في ملحد لابد منه … كفى بالموت نأيا واغترابا(٣٤)
رهين بلى وكل فتى سيبلى … فأذري الدمع وانتحبي انتحابا
مضى قصد السبيل ، وكل حي … اذا يدعى لميتته أجابا(٣٥)
فان أهلك عمير فرب زحف … يشبه نقعه عدوا خبابا(٣٦)
سموت له لالبسه بزحف … كما لفت شآمية سحابا(٣٧)
على ربد قوائمه اذا ما … شماته الخيل يتسرب انسرابا(٣٨)
شديد الاسر يحمل اريحيا … أخا ثقة اذا الحدثان نابا(٣٩)
صبروا عند مختلف العوالي … اذا ما الحرب ابرزت الكعابا(٤٠)
وطال تشاجر الابطال فيها … وابدت ناجذا منها ونابا(٤١)
فعز علي أن عجل المنايا … ولما ألق كعبا أو كلابا(٤٢)
ولما ألق خيلا من نمير … تضب لثاتها ترجو النهابا(٤٣)
ولما تلتبس خيل بخيل … فيطعنوا ويضطربوا اضطرابا
فيا للناس ان قناة قومي … أبت بثقافها الا انقلابا(٤٤)
هم جدعوا الانوف فاوعبوها … وهم تركوا بني سعد يبابا(٤٥)

اما عبيد بن الابرص فله اكثر من مقطوعة في ذلك ، فعندما اتى عبيد الى المنذر بن ماء السماء في يوم بؤسه ، الذي اقسم أن يقتل اول من يراه فيه ، فعزم على قتله ، واستنشده قبل ذلك ، فقال : انشدني قبل أن اذبحك • فقال عبيد : والله ان مت ما ضرني • فقال له : لابد من الموت ، فاختر ان شئت من الاكحل ، وان شئت من الابجل ، وان شئت من الوريد فقال عبيد : ثلاث خصال كسحابات عاد : واردها شر وارد ، وحاديها شر حاد ، ومعادها شر معاد ، ولا خير فيها لمرتاد ، فان كنت قاتلي فاسقني الخمر حتى اذا ذهلت ذواهلي ، وماتت لها مفاصلي ، فشأنك بما تريد • ففعل به ما اراد • فلما طابت نفسه ودعا به ليقتله ، أنشد هذه الابيات • ثم امر به المنذر ففصد فنزف دمه حتى مات(٤٦) •

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه … خصالا ارى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة … سحائب ما فيها لذي خيرة أنق(٤٧)
سحائب ريح لم توكل ببلدة … فتتركها كما ليلة الطلق(٤٨)

وقيل لما اراد المنذر بن ماء السماء أن يقتل عبيدا ، قال له انشدني قولك : « اقفر من اهله ملحوب » • فقال عبيد :

اقفر من اهله عبيد … فاليوم لا يبدي ولا يعيد
عنت له منية نكود … وحان منها له ورود

ثم قال يرثي نفسه(٤٩) :

يا حار ما راح من قوم ولا ابتكروا … الا وللموت في آثارهم حادي
يا حار ما طلعت شمس ولا غربت … الا تقرب آجال لميعاد
هل نحن الا كأرواح تمر بها … تحت التراب واجساد كأجساد

وذكر ان المنذر استنشد عبيدا قبل ان يقتله ، فأنشد(٥٠) :

والله ان مت ما ضرني ... وان عشت ما عشت في واحده
فابلغ بني واعمامهم ... بان المنايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العباد ... اليها وان كرهت قاصده
فلا تجزعوا لحمام دنا ... فللموت ما تلد الوالده
فوالله ان عشت ما سرني ... وان مت ما كانت العائده

وبهذه المقطعات يكون عبيد من اكثر الشعراء رثاء لنفسه ، كما ان الصور التي صور بها الحياة والموت صور لا تكاد بعيدة عن اذهاننا . اما الشيء الذي تجدر الاشارة اليه فهو الحالة التي وقعت في مقتله في القصيدة الاولى ، لانها مشابهة الى حد بعيد الصورة التي انتهت اليها حياة الشاعر عبد يغوث بن وقاص التي مرت .

وامرؤ القيس شاعر آخر كتب عليه أن يموت ميتة بعيدة ، فكانت مثارا لعاطفة قوية في نفسه ، فالموت في ارضه وارض قومه حق يعزيه ، لان الانسان ليس بخالد ، ولكن الموت ببلاد الغربة ، يبعث في النفس كوامن لاهبة(٥١) ، فبقي يعالج قروحه ؛ ثم قدم انقرة فكان بها حتى مات ، وفي ذلك يقول(٥٢) :

ألا ابلغ بني حجر بن عمرو ... وابلغ ذلك الحي الحريدا(٥٣)
باني قد بقيت بقاء نفس ... ولم اخلق سلاما أو حديدا
فلو اني هلكت بدار قومي ... لقلت الموت حق لا خلودا
ولكني هلكت بأرض قوم ... بعيد من دياركم بعيدا
أعالج ملك قيصر كل يوم ... وأجدر بالمنية أن تعودا
بأرض الروم لا نسب قريب ... ولا شاف فيسند أو يعودا
ولو وافقتهن على أسيس ... ضحيا أو وردن بنا زرودا(٥٤)
على قلص تظل مقلدات ... أزمتهن ما يدفعن عودا(٥٥)

اما الابيات المشهورة التي قالها وهو يحتضر ، فهي تحمل المعنى نفسه وان معاني الغربة ، والم البعاد قد جسد فيها تجسيدا قويا(٥٦) :

أجارتنا ان المزار قريب ... واني مقيم ما أقام عسيب
اجارتنا انا غريبان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب

وقيل انه قال عند موته(٥٧) :

لقد دمعت عيناي في القر والقيظ ... وهل تدمع العينان الا من الغيظ
فلما رأيت الشر ليس ببارح ... دعوت لنفسي عند ذلك بالفيظ(٥٨)

وبعد ، فلم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على هؤلاء الشعراء وحدهم وانما ترددت في نفوس كثير من الشعراء الاخرين الذين جاءوا بعدهم ، فكان ابو

ذؤيب الهذلي ، وعروة بن حزام ، والطرماح بن حكيم ، ومالك بن الريب وافنون التغلبي وهدبة العذري وغيرهم من الشعراء(٥٩) .

واذا اردنا أن نخضع هذه القصائد للدراسة الفنية ، تمكنا من تلمس بعض الجوانب التي لم نجد لها نظيرا في بقية فنون الشعر الذي عرفناها في الشعر الجاهلي . وانني استطيع أن اؤكد بان هذا النمط من الشعر يمثل الذروة العاطفية في هذا الشعر ، لما اشتمل عليه من صور ، وما صاحب التجربة من أحاسيس . ولا غرابة في ذلك اذا علمنا ان الشاعر حاول التعبير بكل ما يملك : ليوصل هذه الحقيقة الى المستمع الذي اهتم به الشاعر كل الاهتمام ، فهو الرجل الذي يتألم لهذه المأساة ، وهو الصديق الذي يشاطر الشاعر هذه الاحزان ، وهو ابن القبيلة التي يفخر بها الشاعر حتى في هذا الموقف الذي يجود فيه بنفسه .

وبعد ، فهذه الدراسة الموجزة لهذا الفن الشعري هي دراسة اخرى تفتح امامنا نوافذ جديدة على الادب العربي ، وتلقي عليه الاضواء الكاشفة ، وتدفعنا الى الوقوف عند بعض ظواهره التي توجب الوقوف ، وتفــرض التدقيق ، لانها جديرة بكل ذلك .

ان هذه الظاهرة التي نلمسها – كما ذكرت – في هذه المجموعة من الشعراء لم تقف عند هذا الحد ، وانما ظلت اصداؤها تتجاوب في ارجــاء الحياة الشعرية ، وبدأت آثارها تطبع النتاج الشعري بهذا الطابع .

وفي عصرنا الحاضر ، نجد هذه الظاهرة تتجسد تجسدا حيا عنــد شاعر الالم والحرمان ، بدر شاكر السياب(٣) ، الذي لم يقف عند حدود القصيدة الواحدة أو المقطوعات الصغيرة ، وانما تعداها الى ديوان كامل يرثي به نفسه ، ولا اغالي اذا قلت أن الشعر العربي يعتبر بدر شاكر السياب قمة هذا الفن الشعري بلا منازع ، لانه تمكن من رسم الصور الحية بكل جوانبها ، وشحن قصائده بهول الفاجعة من جميع نواحيها ، فكان هذا العطاء الخصب ، والقدرة الجبارة على استيعاب ابعاد التجربة .

---

(١) معلقة عمرو بن كلثوم ومعلقة طرفة بن العبد وبعض قصائد اوس بن حجر .

(٢) اعددت بحثا كاملا عن الرثاء في الشعر الجاهلي .

(٣) اختلف القدامى في نسبة هذه القصيدة فقد نسبها المفضل الضبي في المفضليات جـ ٢ ص ٩٩ للممزق العبدي . وكذلك ثعلب فيما نقل الانباري عنه أنه قال : الممزق أول من ذم الدنيا . يعني هذه القصيدة . ونقل الانباري عن أبي عبيدة انها ليزيد بن خذاق ، وهو الصحيح . فقد نقل ابن قتيبة في الشعر والشعراء والبكري في السمط عن ابي عمرو بن العلاء ان ليزيد بن خذاق أول شعر قيل في ذم الدنيا . ولاطباق سائر الرواة على نسبتها لابن خذاق ولان بعضهم زاد فيها بيتا هو :

وقسموا المال وارفضت عوائدهم　　　وقال قائلهم مات ابن خذاق

وهذا البيت مثبت في نسخة قبنا بعد البيت (٦) بلفظ :

اذ غمضوني وما غمضت من وسن　　　وقال قائلهم أودى ابن خذاق

المفضليات جـ ٢ ص ٩٩

تحقيق احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون

(٤) المفضل الضبي : المفضليات جـ ٢ ص ٩٩ .

(٥) بنات الدهر : احداثه ومصائبه . الحمام ، بالكسر : الدنو . حم الشيء دنا . وهذا تفسير لم يذكر في المعاجم . والذي فيها حم بمعنى قضي وقدر والحمام قضاء الموت وقدره . الراقي : من الرقية .

(٦) الترجيل : تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه . الشعث : تفرق الشعر وانتفاشه . الاخلاق : الممزقة البالية .

(٧) على بطن مخراق : المنديل الذي يلهو بها الصبيان ثم يضرب بها بعضهم بعضا .

(٨) الاطباق : المفاصل واحدها طبق .

(٩) ولع بالشيء : لزمه ولج فيه . الاشفاق : الخوف . أراد من الموت أو من الفقر .

(١٠) العرض ، بضم فسكون وبضمتين : الجانب والناحية . ورماه عن عرض ، أي عن شق وناحية لا يباليه . النافذات أراد بها السهام . الافواق : بضم الفاء ، وهو مجرى الوتر من السهم .

(١١) كان شاعرا جاهليا ، وفارسا سيد قومه من بني الحارث بن كعب ، وهو الذي كان قائدهم يوم الكلاب الثاني فأسرته تيم وقتلته ، وهو من أهل بيت معرق في الشعر في الجاهلية والاسلام . قال الجاحظ في البيان والتبيين حـ ٢ ص ٢٧٥ « وليس في الارض اعجب من طرفة بن العبد ، وعبد يغوث . وذلك انا اذا قسنا جودة اشعارهما في وقت احاطة الموت بهما ، ولم تكن دون سائر اشعارهما في حال الامن والرفاهية » .

(١٢) المفضل الضبي : المفضليات حـ ١ ص ١٥٤ ، العقد الفريد حـ ٢ ص ٢٤٤ خزانة الادب للبغدادي حـ ١ ص ٣١٤ .

وهذه القصيدة تشتبه على كثير من الناس بقصيدة مالك بن الريب التميمي :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة   بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

باتحاد الوزن والقافية والروي ، وبتقارب المعنى بينهما والغرض الذي تتفقان في معالجته ، فعبد يغوث ينوح على نفسه في الاسر ، ومالك ابن الريب يرثي نفسه وينوح عليها حين حضره المرض واستيقن من الموت ، وتشتبه بعض الابيات . وهذا الاشتباه قديم (انظر هامش المفضليات حـ ١ ص ١٥٤) .

(١٣) عرضت : أتيت العروض ، بفتح العين ، وهي مكة والمدينة وما حولها ، وقيل واليمن أيضا .

(١٤) الكلاب ، بضم الكاف : يوم الكلاب الثاني . صريحهم : خالصهم ومحضهم في النسب . الموالي : الحلفاء .

(١٥) النهدة : المرتفعة الخلق . الحوة : الخضرة ، والاحوى من الخيل ما ضرب لونه الى الخضرة .

(١٦) الذمار : ما يجب على الرجل حفظه ، من منعه جارا وطلبه ثارا .

(١٧) النسعة : بكسر النون : القطعة من النسع ، وهو سير يضفر من جلد .

(١٨) اسجحوا : سهلوا ويسروا في أمري . اخاكم : هو النعمان بن جساس . البواء من قولهم « باء فلان بفلان » اذا قتل به وصار دمه بدمه . يريد اني لم اقتل صاحبكم حتى تريدوا قتلي به .

(١٩) حربه ، من باب طلب ، اذا أخذ ماله وتركه بلا شيء .

(٢٠) الرعاء بكسر الراء : جمع راع . المعزب : المتنحي بابله . المتالي الابل التي نتج بعضها وبقي البعض الاخر .

(٢١) عبشمية : نسبة الى عبد شمس ويقال فيه عبشمس .

(٢٢) الشرب : جمع شارب . المطية : البعير ، لان ظهره يمتطى . اصدع : اشق . القينة : المغنية . يريد أنه يعطي كلا منهما شطر ردائه .

(٢٣) شمصصها : نفرها .

(٢٤) وعادية : يريد وخيل عادية . سوم الجراد : انتشاره في طلب المرعى . يريد أن الخيل كالجراد في كثرتها . وزعتها : كففتها . انحوا الي : وجهوا الي .

(٢٥) السباء : اشتراء الخمر . الروق : اراد به المملوء . الايسار : الذين يضربون القداح .

(٢٦) من شعراء بني اسد في الجاهلية . عاش في النصف الثاني من القرن السادس من الميلاد . لاسباب ذكرت في مقدمة ديوانه الذي حققه الدكتور عزت حسن وللشاعر مع اوس بن حارثة مواقف خلدها في شعره .

(٢٧) ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي . تحقيق الدكتور عزت حسن ١٣٧٩ ـ ١٩٦٠ دمشق .

(٢٨) اعترف الرجل القوم : سألهم عن خبر ليعرفه . والركاب : الابل التي تحمل القوم . ويريد بها القوم .

(٢٩) النهب : الغنيمة . وصاب السهم : اصاب وقصد .

(٣٠) يلتهب التهابا : يتحرق من الغضب .

(٣١) المغاب : الريش الردي . يكسى به السهم فلا يعتدل ولا يستقيم . فاذا رمي به لم يذهب بعيدا ولم يصب .

(٣٢) القارظ : الذي يجني القرظ وهو شجر يدبغ بورقه وثمره . والقارظ العنزي : رجل من عنزة خرج يطلب القرظ فمات ولم يرجع الى اهله . فضربته العرب مثلا للمفقود الذي يفوت فلا يرجع .

(٣٣) الردم : موضع في بلاد قيس . دفن فيه عشر . وقيل انما عنى بالبيت الداثر . ربما جعله بيتا وكانت البيوت ذوات ابواب . استجاز ان يجعل له بابا .

(٣٤) الماجد : العين الذي عنى له الجحر وهو الشق الذي يكون في جانبه او وسطه الماء فيه .

(٣٥) قصد السبيل : واضح الطريق . اي [illegible] . والقصد [illegible] الطريق .

(٣٦) الزحف : الجماعة يزحفون الى العدو بمرة . والنقع الغبار الذي تثيره الخيل في ركضها .

(٣٧) شآمية : أي ريح شآمية .

(٣٨) ربذ قوائمه : أي فرس ربذ قوائمه . والفرس الربذ الخفيف القوائم في المشي وسابق الخيل : أي سبقته .

(٣٩) الاسر : الخلق . والاريحي : الكريم الذي يرتاح لفعل المعروف .

(٤٠) العوالي : الرماح . جمع العالية وهي أعلى القناة وهو النصف الذي يلي السنان . والكعاب : الجارية التي كعب ثديها أي نهد . وابرزت الكعاب : كناية عن شدة الحرب وهولها .

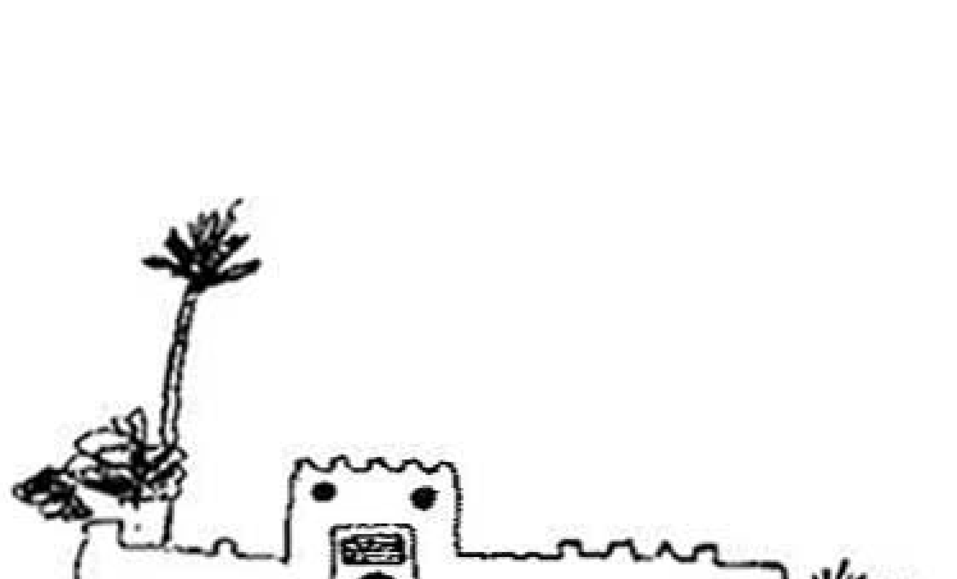
(٤١) النواجذ : اقصى الاضراس . وأبدت ناجذا منها ونابا كناية عن شدة الحرب وهولها .

(٤٢) كعب وكلاب . من احياء بني عامر . وكان بين بني أسد قوم الشاعر واحلافهم وبين بني عامر ايام وحروب أشهرها يوم النسار .

(٤٣) اللثات جمع اللثة وهي مغارز الاسنان وضبت لثته : الحلب ريقها . يضرب ذلك مثلا للنهم الحريص على الامر . وصف الخيل بشدة شهوتها للقاء . وهو يريد اصحابها . والنهاب : جمع نهب وهو الغنيمة .

(٤٤) الثقاف : آلة من خشب فيها ثقب تسوى بها الرماح . يصف الشاعر قومه بشدة البأس والاقتدار على مغالبة الخطوب .

(٤٥) اوعبوها : استأصلوها بالجدع ٠ واليباب : الخراب ٠
(٤٦) ديوان عبيد بن الابرص : تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار ، مطبعة الحلبي ص ٨٨ ٠
(٤٧) الانق : الاعجاب والفرح والسرور . ويقال : ان قبيلة عاد لما اراد الله هلاكها ارسل اليها سحبا مختلفة الالوان . وخيرها بينها . فاختارت السحابة التي ابادتها ٠
(٤٨) الطلق : سير الليل لورد الخمس . وهو ان يكون بين الابل والماء ليلتان أولاهما الطلق ٠
(٤٩) ديوان عبيد . ص ٤٥ ـ ٤٦ ٠
(٥٠) الديوان ص ٦٢ ٠
(٥١) انظر قصيدة مالك بن الريب التي تعتبر انعكاسا قويا لهذه العاطفة ، جمهرة اشعار العرب ص ١٤٣ . العقد الفريد حـ ٣ ص ٢٤٤ ، خزانة الادب للبغدادي حـ ١ ص ٣١٤٠
(٥٢) ديوان امرىء القيس تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف ١٩٥٨ ص٢١٣٠
(٥٣) الحريد : الذي ينزل ناحية منفردا ٠
(٥٤) السلام : الحجارة . والواحدة سلمة ٠
(٥٥) والفتهن : يعني المنايا والاحداث ٠ وعسيس : اسم موضع وكذلك زرود ٠
(٥٦) القلص والقلاص والقلائص : جمع قلوص . وهي الفتية الانثى من الابل ٠ وقوله : ما يعدفن : يعني ما يأكلن وما يذقن ٠
(٥٧) ديوان امرىء القيس ص ٣٥٧ ٠
(٥٨) الديوان ص ٣٥٧ ٠
(٥٩) الفيظ : الهلاك ، يقال : فاظت نفسه ، اي خرجت ٠
(٥٩) العقد الفريد حـ ٣ ص ٢٤٤ ٠
(٦١) نشرت قبل سنة تقريبا مقالا في جريدة البلد تحت عنوان : شاعر يرثي نفسه على اثر صدور ديوان « منزل الاقنان » أوضحت فيه جانبا من عبقرية بدر ٠



الخبر واهميته في الصحافة والمجتمع

عبدالجبار داود البصري

- ١ -

من تعاريف الخبر المتداولة :

١ ـ الاخبار هي بعض وجوه النشاط الانساني الذي يهم الرأي العام ويسليه ويضيف الى معلوماته جديدا اذا قرأ عنه ٠

٢ ـ الخبر ايراد الحادث تنشره الجريدة إعتقادا منها بأن ذلك يعود عليها بالربح ٠

٣ ـ الخبر كل ما يود عدد كاف من الناس قراءته بشرط الا يخالف قواعد الذوق وقوانين خدش السمعة ٠

٤ ـ الخبر هو كل ما تلوكه ألسنة الناس ٠ وكلما أثار الخبر مزيدا من التعليقات زادت أهميته ٠

٥ ـ الخبر هو سرد صحيح موقوت لأحداث وكشوف وآراء وأمور من أي نوع تؤثر في القراء وتثير اهتمامهم ٠

ومن أطرف تعاريف الخبر : أن الكلمة الانجليزية (News) هي مجمل للحروف الاولى من كلمات الجهات الاربع : الشمال .N ، والشرق .E ، والغرب .W والجنوب .S ، وعلى ذلك تكون الاخبار ما يقع في جميع الجهات ٠

ومن أوجه التشابه بين هذه التعاريف يمكن القول بأن الخبر هو بيان للعلاقات المتغيرة بين الانسان والانسان ، أو بين الانسان وبيئته ٠

* * *

والخبر حق للشعب وواجب على السلطة ٠ لان الديمقراطية تحتم على الحكام أن ينوروا المحكومين ليأتي اختيارهم وانتقاؤهم اختيار مواطن راشد وقدير ٠

ويقال : احتراما لكرامة المواطن يجب أن يزود بكل العناصر اللازمة لتكوين فكرته دون الضغط بأي أسلوب من الاساليب ٠

وتعميم الاخبار المتعلقة بالمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية اكبرى هو أجل عمل يمكن المناداة به من أجل السلم فالتعميم يسهل تبادل الآراء بين البشر ويهيء مجال التكاشف الذي هو خطوة في طريق السلام ٠٠ فكتمان أنباء صناعة القنابل الذرية والصواريخ وسفن الفضاء مثلا مما يزيد في حدة الحرب الباردة ٠

ويوصف المخبر بأنه مؤرخ واسع الافق ، متسرع في كتابته ، يعتمد على المشاهدة الشخصية ويتناول الاحداث الكبيرة والصغيرة ٠

وفي عهود الملكية والديكتاتورية تبدو الانباء وقفا على الملك أو الديكتاتور والمقربين ٠ أما اليوم فالمفروض أن يطلع الشعب على كل وقائع المجتمع لانه صاحب الكلمة ٠

والخبر من الوجهة المادية سلعة تباع وتشترى مثل أي قميص أو قلم أو علبة مربيات أو كيس من الرز وثمنه متغير تنطبق عليه قوانين السوق التجارية ٠

* * *

وعناصر الخبر الجيد : الجدة ، والمحلية ، والأثر ، والشهرة ، والدراما ، والطرافة ، والتقدم ٠

والاخبار ليست نوعا واحدا ٠٠ فمن حيث وسائل نشرها تنقسم الى أخبار صحفية مطبوعة مقروءة ، وأخبار اذاعية مسموعة ، وأخبار تلفزيونية وسينمائية مصورة ٠٠ وهي من حيث مادتها تنقسم الى : أخبار بسيطة كالاخبار الشخصية وأخبار المرضى والوفيات وتقلبات الفصول والاحوال الجوية ٠

وأخبار مركبة : كالخطب والاستعراضات والاحاديث الصحفية والاجتماعات وأخبار المحاكم وأخبار الاعمال التجارية واخبار الدولة والسياسة ٠

وأخبار خاصة : كأخبار العلوم والنقد والرياضة وسواها ٠

- ٢ -

كيف يكتب الخبر :

يؤكد مفكرو الصحافة على كون الخبر جوابا لخمسة أسئلة تبدأ : بمن ، وماذا ، ومتى ، وأين ، ولماذا ٠ وتسمى (الاسئلة الخالدة) ٠

ولايضاح هذا نحلل خبرا من أخبار البصرة :ـ « اقامت متصرفية لواء البصرة حفلة استقبال رائعة مساء يوم ١٥ حزيران في فندق شط العرب تكريما لسيادة رئيس الوزراء » ٠

١ ـ من اقام الحفلة ؟ متصرفية لواء البصرة ٠

٢ ـ ماذا كانت الحفلة ؟ حفلة استقبال رائعة ٠
٣ ـ متى أقيمت ؟ مساء يوم ١٥ حزيران ٠
٤ ـ أين أقيمت ؟ في فندق شط العرب ٠
٥ ـ لماذا اقيمت ؟ تكريما لسيادة رئيس الوزراء ٠

وعند صياغة الخبر يترك للمخبر حرية تقديم وتاخير عناصر الخبر فقد يبدأ بجواب أين . أو بجواب ماذا . أو بجواب متى ٠

ومنطق الخبر يختلف عن المنطق العلمي أو الفلسفي حيث يمكن اعتبار ترتيب الاحداث وفق اهميتها واعتباراتها النفسية هو الترتيب المنطقي الوحيد ٠

وفي الخبر السابق يجب أن نبدأ بجواب لماذا ٠٠ لكي يكون منطقيا من الوجهة الصحفية « تكريما لسيادة رئيس الوزراء اقامت متصرفية لواء البصرة ٠٠٠ الخ » ٠

ويشبه الباحثون في الصحافة أسلوب صياغة الخبر بالهرم المقلوب حيث تكون الحقيقة الاهم هي القاعدة العريضة في الاعلى ثم الحقائق الاقل اهمية حتى نصل ختام الخبر وهو رأس الهرم المدبب ٠

واذا اريد نقل خطاب مثلا : يحاول المخبر أن يزاوج بين التلخيص وبين الكلام المنقول ـ أي انه يتخذ صفة الطبقات المتوازية [ملخص ـ كلام منقول ـ ملخص ـ كلام منقول ٠٠٠ الى أن تتم رواية الخبر ٠٠] ٠

وينصح كبار الصحفيين بأن تكتب الرواية الاخبارية بحيث اذا تعين انهاؤها عند أي نقطة لم يلِ تلك النقطة ما هو اهم منها بحيث تكون الرواية كاملة واضحة عند أي نقطة يتقرر قطعها ٠

ويراعى في لغة الخبر الاستغناء عن الكلمات الزائدة واستخدام الالفاظ البسيطة الصحيحة الواضحة وأن يكون التعبير مقتضب الجمل والفقرات ٠٠ وان يكون المخبر راوية لا معلقا ومن المفيد جدا الاشارة الى مصدر النبأ ٠

وحين يتناول المخبر قلمه ليدون الاخبار فانه انما يتعامل في تقنية غالية هي السمعة الطيبة للناس وسيرهم ٠

ومن أسباب تحريف الخبر التهويل في حادثة معينة وتجاهل حوادث لا تتفق مع ميول المخبر وحذف بعض عناصر الخبر ، واقحام الرأي الشخصي خلال الرواية ، ونشر الصور وكتابة المانشيت بالخط العريض حتى وصل الامر الى المطالبة بتحريم العناوين في أخبار الصحف ٠

والقاعدة الاساسية في بلورة الفاظ المخبر أن يتصور نفسه يتحدث الى عائلة فيها الرجال والنساء ٠٠ لان الخبر عند نشره يصل عن طريق الاذاعة الى الرجال والنساء معا ومن هنا تكون البذاءة في الخبر أسلوبا فاشلا ٠

* * *

وقد حاربت الصحافة الاذاعة في بداية اكتشافها باعتبارها منافسا وثبت فيما بعد أنهما متعاونان فاذاعة الخبر تزيد من توزيع الصحف زيادة كبيرة لان الخبر من الراديو يثير اهتمام رجل الشارع الى درجة يجد نفسه فيها مضطرا لان يقرأ تفاصيله في الجريدة ٠٠ فالخبر الاذاعي بمثابة اعلان عن الموضوع الذي ينشر في الجريدة ٠

ويقال ان الاسباب التي تدعو الصحف الى كتابة عناوين ملخصة للموضوعات في رؤوس الصفحات تدعو الاذاعة أيضا الى أن تبدأ نشرات الاخبار بموجز للانباء التي تتضمنها النشرة ٠٠ ويعتمد توضيب الصفحات في الجرائد المطبوعة على الذوق الهندسي في حين يعتمد الترتيب الزمني للاخبار في النشرات المذاعة على الذوق الموسيقي ٠

وفي الوقت الذي تساعد فيه علامات الترقيم كاتب الخبر الصحفي على ايضاح ما يريده نجد الخبر الاذاعي لا يستفيد من علامات الترقيم فمن الصعب على المذيع مثلا أن يرسم بنبرات صوته علامة التنصيص ليدل على أن الجملة أو العبارة تصريح منقول بالنص ٠

الصوت ٠٠ ويلاحظ أنه قلما نجد سياسيا أو مؤرخا يحترف الكتابة للتلفزيون بسبب من اهتمامه بالكلمة أكثر من اهتمامه بالصورة ٠

وقد تطورت نشرة الاخبار التلفزيونية من كونها ورقة تقرأ من قبل المذيع الى أن تقترن بأفلام متحركة وبشرائح وصور وخرائط جغرافية وبيانية وغيرها من المبتكرات المرئية ٠

ويقال : أهم وظيفة للتلفزيون قدرته على اظهار الحوادث النائية في الوقت الذي تجري فيه (الاخبار الحية) ٠٠ وهي وظيفته الرئيسية التي لا يمكن لاية وسيلة أخرى من وسائل الاتصال أن تقوم بها مثله ٠

وكلمة « تلفزيون » تعني رؤية الاحداث على بعد حال وقوعها باعتبار أن (Tele معناها بعد) و (Vision معناها الرؤية) ٠

* * *

ومصادر الاخبار بصورة عامة هي أولا : المصادر المحلية بواسطة تنقلات المخبرين بين الوزارات والمصالح والهيئات الحكومية والشعبية ٠

ثانيا : عن طريق وكالات الانباء ٠

ثالثا : بواسطة المراسلين المختصين في المدن

رابعا : زيارات الافراد والوفود لمقر الجريدة أو الاذاعة

ومما لاشك فيه أن المقابلة الصحفية من أهم ينابيع الاخبار ٠٠ وقد درس علماء النفس سيكلوجية المقابلة وتوصلوا الى ما يلي :

لن ينجح المخبر الذي يقابل احدى الشخصيات حتى يتعلم أن يضع نفسه مكان الرجل الذي يتعامل معه . ومشكلة الصحفي ليست في مقدار كيف يتكلم بقدر ما هي في معرفته كيف يستمع .

والمهرة من القائمين بالمقابلة لا يظهرون عادة أي قلم أو ورقة أثناء المحادثة لان منظر القلم الحبر يجعل بعض الناس يشعرون كما لو كان .. مدرسا قاسيا يطلب منهم فجأة تسميع درس لم يستعدوا له .

واذا كان قد سبق تجهيز أسئلة مكتوبة فينبغي عدم تقديمها حتى نهاية المقابلة ثم توجه صراحة للتأكد من عدم نسيان شيء .

وينبغي للقائم بالمقابلة ان يتصرف تصرفا طبيعيا وان يكلم المرءالذي يقابله كما لو كان صديقا . وجرت العادة ألا يقول المندوب شيئا بعد تقديمه لنفسه حتى يبدأ الشخص المقصود بالكلام . ومن المستحسن في حالة وجود تصريحات خطيرة أن يأخذ المراسل توقيع صاحب التصريح على مسودة المقابلة .

- ٣ -

وفي ميدان الصحافة نظريتان تتجاذبان المخبر :ـ

نظرية أخلاق الشهرة وهي تعتمد على الكذب والنفاق والمراوغة والتخلي عن المبدأ واطراح المثل العليا وانتهاز الفرص .

وهذه الاخلاق تجعل من الصحفي أو المخبر شخصية لامعة مشهورة ولكنها تؤدي الى أضرار جسيمة بالشعب والمجتمع

والصحافة التي تعتمد أخلاق الشهرة في الشرق كثيرة جدا مع الاسف وهي تسيء الى الشعوب باستمرار وقد أدركت قيادة الثورة خطر الانباء فاقرت في قانون المطبوعات موادا توجه الخبر نحو الخير العام .

أما نظرية الواجب فتؤكد على أن المخبر والصحفي بصورة عامة قائد جماهيري ، ورجل صادق أمين حريص على القيم الفاضلة والسجايا الكريمة .

ويقال للمخبر الجديد : ابحث عن الرجل الذي يعرف فكلمة واحدة من المدير خير من ألف كلمة من موظف صغير .

ومهنة المخبر حساسة جدا .. وقد روي عن أحد قادة الجيش الايراني أنه أعرب لمراسل وكالة انباء أجنبية في طهران اثناء مؤتمر صحفي «بينك وبين السجن نفس المسافة التي بين تليفوني ومكتب رئيس البوليس»

ومراسلو الصحف ووكالات الانباء كثيرا ما يتعرضون للطرد والسجن بسبب اصرارهم على نشر خبر من الاخبار وعدم اذعانهم لرغبة المسؤولين في تكذيبه .

ويروي بعض الصحفيين قصصا مرعبة عن مخبرين اجتازوا الحدود سرا بحثاً عن الاخبار فتعرضوا لعمليات مسح الدماغ .

ومما يتعلق بأخلاقية الخبر : أن الله سبحانه وتعالى قال في محكم كتابه العزيز :

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

* * *

والخبر في ظل النظام الرأسمالي يختلف عن الخبر في ظل الاشتراكية.

فهو في النظام الرأسمالي يخضع لسيطرة رجال المال والزمرة المتنفذة فيستغل في غير مصلحة الشعب .. بل كثيرا ما تؤخر الاخبار أو تكتم نهائيا اذا كان في اعلانها تأثير واضح على حركة السوق التجارية .

أما القيم التي يؤكدها الباحثون في صحافة المجتمع الاشتراكي فهي صحافة هيئات وجماعات وانها تشعر بالمسؤولية الاجتماعية وتساعد على بناء المجتمع وتقوم بتثقيف الجمهور ، وتنشيء القيادات الجديدة وتتعهدها بالرعاية والحنو .

(١) استقاء الانباء فن (صحافة الخبر) تأليف ستانلي جونسون وجوليان هاريس . ترجمة وديع فلسطين .

(٢) الصحافة والمجتمع . تأليف د . عبداللطيف حمزة .

(٣) أخبار الشرق الاوسط في الصحافة العالمية تأليف د. وليم ايري وترجمة د. عبداللطيف حمزة .

(٤) كيف تصبح صحفيا بقلم كارل وارين ترجمة عبدالحميد سرايا .

(٥) الديمقراطية وحرية الانباء محاضرة ألبير شافان في كتاب (مستقبل الديمقراطية ومفاهيمها) .

(٦) العمل التلفزيوني تأليف بول روثا ترجمة تماضر توفيق .

(٧) الكلمة المذاعة تأليف محمد اسماعيل محمد .

(٨) سيكلوجية المقابلة تأليف والتر فانديك بنجهام وبروس فكتور مور ترجمة فاروق عبدالقادر وعزت سيد اسماعيل .

(٩) الصحافة كمصدر للتاريخ تأليف د. حسنين عبدالقادر .

(١٠) برامج التلفزيون تأليف ادوارد ستاشيف ورودي بريتز ترجمة أحمد طاهر .

تحيـــة وفاء ..

وتحيـــة لقـــاء ..

منذ اليوم الأول الذي إجتمعت فيه هيئة تحرير (الأقلام) لتعمل على تقديم جهدها الفكري المتمثل في اصدار هذه المجلة ، لمست من رئيسها السيد عبدالكريم فرحان وزير الثقافة والارشاد السابق كل رعاية وتشجيع ، فقد كان صاحب الفكرة الأولى في اصدارها ، وكان المشرف على تحريرها ، وكان يحرص على أن تظهر المجلة في مظهر خليق بمنبر من منابر الفكر والثقافة والأدب في بلد الفكر والثقافة والادب ، وكان ذلك .. وظهرت المجلة التي احتلت مكانتها الرفيعة بين مثيلاتها من المجلات العربية التي تصدر في ربوع الوطن العربي الكبير .

واليوم ، وقد خلى رئيس تحريرها السابق مكانه لزميل كريم . ليس غريبا عن هيئة التحرير فقد ساهم معها مساهمة مشكورة في اصدار الأقلام . هو السيد الدكتور عبدالرحمن القيسي وزير الثقافة والارشاد . فقد حق على الهيئة ان تقف وقفة التحية للرجلين .. تحية ذكرى ووفاء لرئيسها السابق ، وتحية بشرى ولقاء لرئيسها الجديد .. آملة أن تواصل في عهده خطواتها المنتظرة على طريقها القويم باذن الله .

وفقنا الله جميعاً لخدمة الفكر والثقافة والأدب في هذا البلد العزيز ؟

التحرير

النتاج الجديد

أغنيتان شعرية في
الحب والحرية (١)

بقلم : عادل مهدي حسين

ان من يريد القاء نظرة عميقة متفحصة شاملة لتطور حركة الشعر العربي المعاصر في العراق والوطن العربي لابد له من أن يلمس بوضوح تام مدى العمق والتغيير النوعيين اللذين أحاطا بطبيعة هذه الحركة الوليد التي ما فتئت تشق طريقها بالتطور متفاعلة مع قوى الشعب الكادحة ومتحسسة لمجريات متطلباتها النضالية اليومية .

وكان لهذا التطور الالتزامي الفني من جانب هذه الحركة تجاه اشراقاتنا مهام كبيرة يتحتم على شعرائها تخطي القوالب الشعرية المتكثفة والمزمنة التي أعاقت وما زالت تعيق وظيفة الفنان الرئيسية ، وهي انكشف عن نوازع العصر وتطلعات الجماهير .

وقد ترعرعت مع هذه الحركة الشعرية على مرور مراحلها مفاهيم وقيم رائدة انبثقت عنها بعد تمخض عنيف ابداعات خلق جديدة تميزت بالجمال والشرف الفني والثورة لقضايا البشر المصيرية .

ويبدو لأول كشف لنتاج الحركة الشعري .. ان مجموعة « الحب والحرية » للشاعر محمد جميل شلش صورة مثلى لمثل هذه الأبداعات الجديدة .. ومعرفة بالشاعر يجب التبيان بأن مجموعته قد احاطت احاطة تامة وبصدق فني أصيل بأغلب قضايا شعرنا الحديث تطرقاً واسلوباً ..

يا يداً ترفع مصباح « ديوجين » شعار
يا فماً يبدع سمفونية الأجيال
من نور ونار ،
يا صدى ينداح في ليل مخاض الشرق
خصباً واخضرار ،

---

(١) «الحب والحرية» ديوان شعر للشاعر محمد جميل شلش ، اصدار دارالعلم للملايين.

أيها الشعب الذي يحمل من الف عجاف
في ليالي بعثه ..
عن سارق النار ، عن المستعبدين
عبء كل الناس .. كل الثائرين ،

أن شاعر المجموعة شلشناً يرى أن الأسطورة كظاهرة جديدة طلعت علينا منداحة بتسامقها الفني .. يرى أنها تخلق من نفسها أعمالا فنية تشرك الأنسان معها في المضمون .. وأنها لالتفاتة شعرية نحو تراثنا الانساني .. لذا نلاحظها كميزة من ميزات الشعر الحديث ..

يا رفاقي
يا رفاق الكلمة
لم أزل في ليل « هولاكو »
لينبوع الهوى والفن ..
للشعب أغني
خلف أسوار التتار المجرمة
لم أزل أومن أني :
أعبد الحرف
أغنيـــه
أغانيه : تباركت أزدهيت
يا صليبا للهوى في كل بيت

ومن الملاحظ ان محمد جميل شلش قد رافق الحيـــاة النضالية في العراق ، وأنه يعشق من الشاعر أن يغني لشعبه ما يجوز تسميته بشـــعر المعركة ، أنه يحمل في قصيدة « من أجل القضية » هموم الثوار على اكتافه ، ويعبر بصدق أيقاعي عن مدى توعية المسؤولية الملقاة على عاتق الفنان تجاه شعبه ، أنه شاعر ذو قضية ، يئن لها في الازمة ويغنيها في الأنتصار .

آه يا شعبي
لو كنت بأعماقك بركاناً
وفي قلبك ناراً أبدية ،
آه يا شعبي
لو كنت على ثغرك كبريتاً
وفي عينيك أحلاماً شقيه ،
آه يا شعبي
لو كنت بوديانك زلزالا يهز الأريحيه ،
في جماهير الفداء العربية
آه لو جمعت آلامك في قلب رصاصه
آه لو كنت رصاصه
لتفجرت ، وفجرتك من أجل القضية ،

وأنها لفنية من الشاعر أن يتمثل ظواهر عصره دون أن ينزلق في مهاوي النثر والاسفاف واللا ايقاع ، ان شاعرنا يستعبد فنه من أجل قضايا عصره، عصره الذي يموج بالثورة والحدس البشري لواقع الملايين ٠

يا صديقي
يا صديق الشرفاء
نحن في « أوراس »
اعصار ، وبركان وثوره ،
نحن شعب عربي ، في الذرى يصنع فجره

كذلك أن العمل الشعري الذي يموج بالوعي لقضايا واقع عصره ، لابد ان ينسلخ بعض الشيء عن مكونات البناء الرئيسية للعمل ، والتي هي بلا أدنى شك تشكل في ذاتها جوهر الفن الذي أصطلح عليه الدارسون ، ان المكونات البنائية هذه من ضرورات الرضا الكامل ، وأنا حين أقول من ـ ضرورات ـ لا يعني الفصل بين اطاراتها وبين الوعي لقضايا واقع عصرنا ، انه التزام الشاعر الفنان وعياً بقضايا عصره ، أنه عملية تزاوج بين الشعر والواقع ، لتولد التجربة في الفن ، لذا نرى التطرف في ظاهرة الوعي واهمال مكونات البناء اسفافاً وبالتالي عقماً ، كذلك نرى أن تجاهل لمسات حياتنا الثورية هو جهل وظيفة الفنان وأخيراً خيانة الفن بالفن نفسه ، أني أقول ذلك في وقت أرى فيه شاعر المجموعة يسير متوافقاً وعياً وفناً ٠

ولست بمنه قولي حين أرى كاتب مقدمة المجموعة الدكتور أحمد عبد الستار الجواري يقصر مآخذه على « ما يسميه التجوز أو التسامح في فنية الأسلوب » ذلك أن الدكتور الجواري يرى أن التطور الفني الجديد الذي طرأ على الشعر العربي في مضمونه وشكله يعمد الى سلوب وطريقة في التعبير يفارق فنية الأسلوب في الشعر العربي من حيث قبوله تراكيب من لغة الحديث المعتاد ٠٠ اني احدد كلماتي فأقول بأن أي عملية تجاوز أو تسامح في فنية الأسلوب هو عقم يتفق عليه معظم الدارسين ، وبالتالي ينحذف اصطلاح تسامح فيكون « تجاوز » الشعر الى النثر نفسه ٠٠ وهذا ما يكون عيباً من عيوب حركتنا الشعرية الحديثة ٠٠

ان مجموعة الشاعر شلش لا تنحدر الى ما نسبه « بالتجاوز » من حيث أن شلشاً التزم قضايا وجدانياته من خلال التزامه بفنه ،

يا سنابل
يا عذارى الحقل ، يا حلم العيون المتعبات
يا حلم العذارى
يا هوانا البكر ، يا بقيا حياة
المحاريث الكئيبات ، وأصداء المناجل

والوجوه الصفر ، والكوخ القديم
وحديث الموقد المهجور عبر الظلمات
صلوات وابتهال

انه ينادي السنابل بعيداً عن مضامين التقريريه ، يناديها عن لسان :

وتعلات حيارى ، وابتسامات خيال ،
كغناء الحاصد المكدود تشدو :
يا سنابل
يا عذارى حقلنا المخضوب ..
يوم يجنين الثمارا ،
يوم يمضين كلون الفجر ، والآمال سكرى ،
ورنين المنجل الحاصد في الحقل يغني
والهوى ينضح خمراً

ما أجمل هذا الشعر ، ان الشاعر في مقاطع تفعيلاته يتعالى بفنه عبر الغناء والايقاع والشدو ، انه يهوى الأخضرار في دروب حياته ، ولكنه يهواها محاطة بأزاهير نضاله المرير ، وبآماله الكبرى ، وأنه يعتبرها منبع الهامه الشـــعري :

يا أصدقاء المصير
يا رفقتي على طريق الشمس
يا طليعة النصر لشعبي الكبيرة ،
يا وجه شعبي الصامد المعذب الدامي
يا نبع الهامي
أحبكم يا أصدقاء المصير
أحب في عيونكم أروع حلم نضير ،
أحب شلال انبعاث كبير ،

وبعد فأظنني قد أطلت بعض الشـيء في تناولي لمجموعـــة « الحب والحرية » ، ولست ذاكراً بأني قد قلت كل ما كان يجب أن يقال عن الشاعر وعن مجموعته ، من حيث أن مجموعته تشكل مضموناً لحياة جيل مكافح وأنها كأغنيات شعرية ثورية جديرة بالدراسة من قبل نقاد الشعر الحديث ومناصريه ، وأنها لابد وقد احتلت مكانها المرموق في صف مجموعات شعر المعركة الذي يفخر به تراثنا العظيم بما يجزل هذا الفن للبشرية من عطاء في مجالات الحب والحرية والمتابعة لمصيرها ، واخيرا أراني أشد على يـــد الصديق شلش بما أكرم به الشبيبة المناضلة التي تفخر دومـــاً بالـــذين ينشدون لها شعراً عربياً رصيناً ..

الفروسية في الشعر الجاهلي

تاليف نوري حمودي القيسي ـ رسالة جامعية ـ ٣٦٠ صفحة ـ منشورات دار النهضة مطبعة التضامن ـ بغداد ١٩٦٤

بقلم : جلال الخياط

بحث نال به مؤلفه ، السيد نوري حمودي القيسي ، درجة « الماجستير » في الآداب من جامعة القاهرة بتقدير جيد جدا ! ، يقع في ثلاثة ابواب « الفروسية ، شعر الفروسية ، نماذج من الشعراء الفرسان » ، وفيه مقدمتان : الاولى للدكتور يوسف خليف الذي اشرف على الرسالة ، جاء فيها : « ... البحث في هذا الادب يعد عملا على قدر كبير من المشقة ... » ـ صفحة ٥ ـ ، والصورة الماثلة امامنا عن البيئة الجاهلية : « ... في حاجة شديدة الى جهود الباحثين لتوضيح قسماتها وابراز ملامحها » . ـ صفحة ٥ ـ ، والمقدمة الثانية كتبها المؤلف نفسه ومنها نعلم انه قد كرس كل جهوده للبحث في ميدان الادب الجاهلي ، المجال الخصب الذي تطمح اليه افكار الباحثين دوما ، ان الشعر العربي عبر عصوره مازال مشدودا الى قاعدة الادب الجاهلي فانه اذا تنكر لها فقد يفقد كثيرا من ملامح اصالته الاصيلة ولن يساعده ذلك على النماء والازدهار ، والادب الجاهلي ما زال في كثير من مناحيه غامضا فعمل المؤلف اذن مبارك ، واذا علمنا انه سيتبع دراسته هذه باخريات مثيلات ادركنا اننا مدينون له بالشيء الكثير بعد ان قل رواد هذا الميدان .

يضم الباب الاول من هذا البحث اربعة فصول تتناول التعريف بالفروسية وبواعثها وعناصرها وتقاليدها ، ويلم المؤلف بكل ما قيل عن الفروسية مستعينا بالقواميس والمؤلفات والنصوص في كثير من الشرح الوافي ويخرج في ان مفهومها الجاهلي : « ... البطولة في الحرب والبلاء في المعركة والعفة عند توزيع الغنائم واطعام الضيف وحماية الحقيقة والذود عن المرأة وتلبية دعوة المستغيث ... » ـ صفحة ٢٩ ـ ، ثم ينتقل الى صفات الفارس واخلاقه : « شجاع وكريم وعزيز النفس يحترم المرأة ويدافع عنها ويجير المستجير ويعمل على رفع الظلم ، وهو حليم ، سمح الخلق الا اذا ظلم فعندئذ يصبح ثورة عارمة ... » ـ صفحة ٣٩ ـ ، « ... وقد سئل حاتم هل من العرب أجود منك ، فتبسم وقال : كل العرب اجود مني ... » ـ صفحة ١٢٨ ـ ، ونلاحظ ان المؤلف يعرض موضوعه عرضا لطيفا يستسيغه القارىء ، وليس فيه الجفاف الذي تحتمه طبيعة العمل في بعض الرسائل الجامعية المثقلة بالاشارات والمصادر ، ان جميع النصوص

في الكتاب مشروحة مع تعليقات وافية ولكن الفقرات المقتبسة من المصادر المختلفة لم توضع بين أقواس وذلك لم يؤثر على وضوح الافكار التي ناقشها المؤلف ، ينتهي هذا الباب بفصل عن التقاليد التي سار عليها الفرسان الجاهليون ، ولابد ان تكون هناك علاقة بين هذه التقاليد والفروسية التي زهت في اوربا قبل قرون ، ولعله من الرائع ان يتبع المؤلف دراسته هذه باخرى تظهر مدى تأثر انظمة الفروسية في العالم بتقاليد الفروسية العربية ومثلها العليا وقيمها الخالدة .

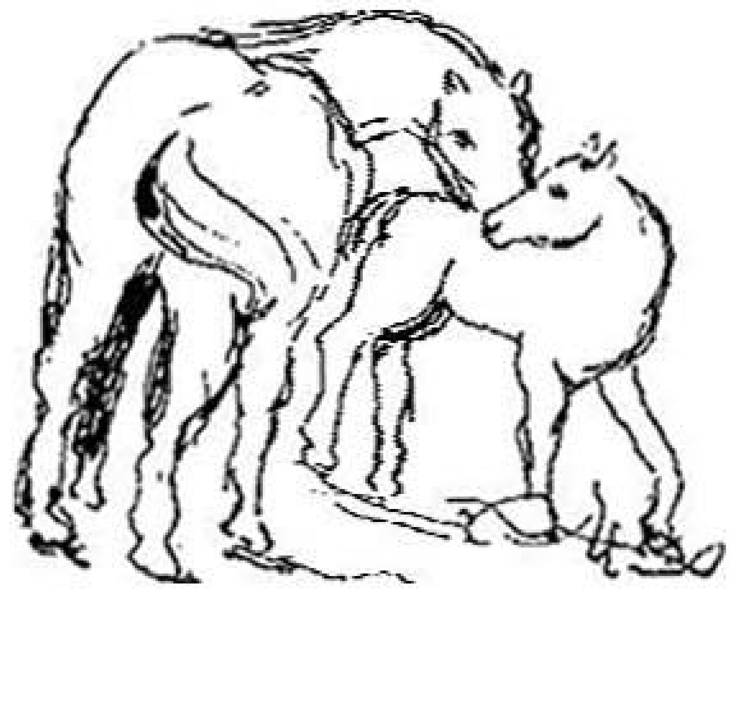
الباب الثاني يضم أولية الشعر الجاهلي والانتحال ، مصادر شعر الفروسية ، وموضوعاتها ، ولقد وددت ان لا يتطرق المؤلف الى أولية الشعر الجاهلي وقضية الانتحال لانه الموضوع يجب ان يحصر في الفروسية وحدها. ان قضية الانتحال مهمة ، ولكن الكتاب عن الفروسية ، وحبذا لو ان المؤلف ادرج هذه القضية ضمن مقدمة شاملة للكتاب تكون مدخلا عاما في الشعر الجاهلي ، على أية حال يناقش المؤلف قضية الانتحال هذه مناقشة وئيدة ليس فيها اندفاع ويدعم كثيرا من آرائه بأدلة يصعب دحضها ، ويعرض لآراء الدكتور طه حسين ويقرر أنها : « طريقة لو اتبعت لانقطعت الصلة بيننا وبين اسلافنا » ـ صفحة ٢١٧ ـ وذلك حق ، ويذكر المؤلف رأي الدكتور طه حسين : « في ان الرواة أنفسهم نظموا الشعر وحملوه على بعض الشعراء حملا .. » ـ صفحة ٢٢٠ ـ ويرد المؤلف عليه : « ولا يعقل ان انسانا يقضي عمره ، ويهدر نبوغه في نظم شعر بليغ ثم ينسبه الى غيره من الموتى أو الاحياء ، وكان اولى به ان ينسبه لنفسه ليفخر به ، بل أية فائدة تعود على رجل يجهد مواهبه في الصياغة والنظم ، ثم يتخلى عن ثمرات فكره باختياره » ـ صفحة ٢٢١ ـ ، ان بعض الرواة حقا نظموا قصائد ونسبوها الى غيرهم كخلف الاحمر وذلك لان سوق الرواية وما يدره التأديب من مال أكثر رواجا من نظم الشعر في وقت كثر فيه الشعراء وقل الرواة وفي وقت كان الناس يحترمون من يروي مئتي قصيدة جاهلية اكثر ممن ينظم الفي قصيدة معاصرة ولهذا السبب وجد الانتحال ، وان صح هذا في قصائد قليلة معينة فان تطبيقه على الشعر الجاهلي كله يخالف الحقيقة وقد ادرك ذلك مؤرخو الادب القدامى وأسهب المؤلف في اثباته .

الباب الثالث يضم ثلاثة فصول : « الحب عند عنترة ، والكرم عند حاتم ، وعروة والاشتراكية » ، وهي فصول ممتعة يعرض الاول لحب عنترة وفروسيته التي أصبحت اسطورة تنتظر من يحيلها الى أثر أدبي عالمي ، والثاني لشمائل الكرم التي اشتهر بها حاتم ، والكرم في طليعة الفضائل التي اتصف بها العربي على مدى الاجيال ، وينتهي البحث في المشاركة الوجدانية التي عرف بها عروة وحبه للخير ومساعدة الآخرين ويقرر المؤلف ان « .. سلوكه في هذا المجال كان طبيعيا مستندا على الشمائل الخيرة التي عاشها الانسان العربي ... » ـ صفحة ٣٠٧ ـ ، وفي خاتمة الرسالة يقول

المؤلف : ان الخطة التي وضعها لـكتابه هي ان يصنع من الفروسية « تيارا شعريا ساد الفترة الجاهلية وعاش أيامها وعاصر حوادثها ٠٠ » ـ صفحة ٣١٩ ـ ، وعندي ان المؤلف ، السيد نوري حمودي القيسي ، قد وفق في ذلك بعد ان بذل جهودا مضنية لابد لمتتبعي تاريخ الادب العربي والحريصين عليه ان يقدروها حق قدرها لاسيما ان المؤلف ماض في هذا الطريق الوعر ليكشف لنا عن كثير من أسرار الحياة الجاهلية ٠

ان الشعر الجاهلي لابد ان يكون والنماذج الخالدة التي اتحفنا بها العصر العباسي نقطة الانطلاق في جعل الشعر العربي ينتشر باجوائه الخاصة الاصلية على نطاق عالمي ، وعلى هذا فان أية دراسة موفقة حول الشعر الجاهلي لن تكون عملية تنقيب عن الآثار وحسب وانما هي خطوات حية في سبيل ابداع جديد ٠

ان هذا الـكتاب سيعتبر مصدرا مهما لدراسة الشعر الجاهلي والبيئة الجاهلية ٠ ولا يسعني بعد هذا التعريف الموجز السريع الا ان اهنيء المؤلف واتمنى له كل التوفيق ٠



آراء وتعقيبات

في الطريقة السهروردية

عباس العزاوي

جوابي على ما ذكر الاستاذ الفاضل عبدالحميد الالوسي في الجزء العاشر من مجلة الاقلام الغراء ، أني آسف أن يقرأ بحثي مرات فلم يدرك المغزى منه • وقد بليت أنا أيضا بمعاودة الموضوع فلم أجد ما يدعو الى الانصراف عنه ، أو التعديل فيه • بينت أن أكثر أرباب المواهب في القرن السادس الهجري امتازوا بالزهد والتقوى وعمل الخير بقدر الاستطاعة ، فتكونت من أعمالهم في الشؤون الدينية الطريقة ، حيث نهجوا بها خططا منوعة تهدف الى توجيه الناس توجيها حقا ، فنالوا مكانة مقبولة • وان الطريقة السهروردية احداها ، كانت قدوة صالحة ، وأمثولة مرغوب فيها ومقتدى •

نشأت أيام أبي النجيب ، ثم جاء ابن أخيه شهاب الدين السهروردي فتعالت به أكثر ، وتكاملت • تولى مشيخات في أربطة عديدة ، وبينت أن من أراد التوسع فيها رجع الى (كتاب عوارف المعارف) من تآليفه ، والى (كتاب الفتوة) في العمل النافع ، والى وصيته وفيها الجهة العملية في الطريقة •

ولا شك أن الزهد والعبادة ، وعمل الخير من النوافل وليست من المفروضات • وانما هي طريقة التوصل الى ارضاء الباري تعالى • وكل الصوفية ـ ما عدا الغلاة ـ تابعوا الدين الاسلامي فلم يعدلوا عنه • وان السهروردية أكثر ما أوصت بعمل الخير • وأوضحت أن (خطة الفتوة) جاءت على هذا • فهي طريق عبادة ، وعمل خير ، وجاء في المقال (خطوة الفتوة) سهوا •

تكونت هذه الطريقة · وكذا غيرها من تتبع أعمال الصالحين من المؤمنين بنص آية « ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى »[1] · وهو صراط الذين أنعم الله عليهم ، وآية « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني »[2] · وبالاتصال بمن سبق من الصلحاء الاكابر ، وجاء ذكرهم في المراجع · وكذا من أخذ عن السهروردية كما أوضحته في مقال بعنوان « انتشار الطريقة السهروردية » · وفيه بيان مدى توسعها في اقطار عديدة · وهو في طريق النشر ·

وموضوعي تاريخي توجيهي · بصرت به بمراجع كثيرة ، ولم أكن (شيخ طريقة) وان الاستاذ أبا الثناء الالوسي أوضح في كتابه (الفيض الوارد) ان الخرقة في سندها خروق · وبيان حياة رجال الطريقة يعين سلوكها في الطريقة · وكل أعمال هذه الطريقة وسائر الطرق (نوافل) ، ومقرونة بالاستطاعة ، يراد بها اكتساب الثواب والقرب من الله تعالى · والاسئلة تفهم أجوبتها مما مر ، ومن المراجع المذكورة ·

أما رباط الشيخ أبي النجيب السهروردي ، فانه متصل بالمدرسة (مدرسة أبي النجيب) والمدرسة لا تزال معروفة · وهو محل الاشكال في أنه في الجانب الشرقي ، أو في الجانب الغربي · وان كلام ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان في ترجمة المومأ اليه[3] أنه في (الجانب الغربي) والتواريخ لمختلف العصور ووضع الرباط والمدرسة مما يعين أنه في الجانب الشرقي ·

وقال تاج الدين السبكي : « وكانت له خربة على دجلة فاوى اليها هو واصحابه واشتهر اسمه وبعد صيته واستقامت كراماته وبنى تلك الخربة رباطا وبنى الى جانبها مدرسة فصار امنا لمن التجأ اليه من الخائفين »[4] ·

وقال ابن كثير : ابتنى لنفسه مدرسة ورباطا · وكان مع ذلك متصوفا يعظ الناس · ودفن بمدرسته[5] · وهنا أيضا لم يفرق بين الرباط والمدرسة لانهما في محل واحد ·

وجاء في الشذرات : وبنى الخربة التي كان يأوي اليها رباطا ، وسكنه جماعة من صالحي أصحابه ، وبنى الى جانبه مدرسة ، وصار ملاذا يعتصم به الخائف من الخليفة فمن دونه (الى أن قال) ودفن في مدرسته[6] · ولم يفرق بينها وبين الرباط ·

وذكر هذه المدرسة صاحب (سياحتنامه حدود) : فبين أنها متصلة بسراي الوالي · وهي مدرسة أبي النجيب السهروردي وذكر مسجده المتصل بها ، وبين أن واردها السنوي (١٥٠) ألف قرش ، وأوضح أنها من الاوقاف الهمايونية المضبوطة[7] ·

وفي كتاب (تراجم الوجوه والاعيان) بعد أن نقل نص (ابن خلكان) في كتابه وفيات الاعيان قال الاستاذ عيسى صفاء الدين البندنيجي : « قلت المشهور أن رباطه الذي دفن فيه هو في الجانب الشرقي من بغداد في جنب المدرسة السليمانية التي بناها سليمان باشا الكبير بقرب حرم دار الامارة . واشتهر في ألسن الناس غلطا برباط الشيخ نجم الدين . فما ذكره ابن خلكان من أنه في الجانب الغربي من بغداد على خلاف ما اشتهر ... »[8] .

وقال الاستاذ عبدالحميد عبادة : « وبنى رباطا على الشط في الجانب الشرقي ببغداد ، وسكنه جماعة من أصحابه الصالحين (الى أن قال) ودفن ... في رباطه »[9] .

هذا وان النصوص المذكورة ، والمدرسة المشاهدة والرباط المقرون بها ، كل هذه تعين أنه حدث (سهو ناسخ) بذكر (الجانب الغربي) بدل (الجانب الشرقي) . وان الاستاذ البندنيجي قد شاهد الرباط والمدرسة . وعلق ما شاع وبين الغلط . وجاءت نصوص المؤرخين الآخرين مؤيدة ، فلم يفرقوا بين الرباط والمدرسة ، فمنهم من قال دفن في المدرسة ، ومنهم من قال دفن في الرباط . وكان الأحرى بالاستاذ أن يرجع الى مصادر البحث قبل أن يبدي اعتراضه .

وقد سبق أن ذكرت لابن خلكان بعض الاغلاط نقلا عن (تاريخ العظليمي) ونشرت البحث في (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق)[10] ، وان الاستاذ ابن خلكان لم يكن معصوما فيما تبين غلطه . واعتقد أنه (غلط ناسخ) . وهذا أمر سهل بالنظر لمكانة (كتابه) في الاوساط التاريخية ، فلا يصح أن نتجاوز حدود ما ظهر غلطه .

وعلى كل حال أشكر الاستاذ الفاضل على ما أثار من مطالب ، وله الفضل فيما أبدى . وأرجو له التوفيق فيما قصد .

والله ولي الأمر

---

(١) سورة النساء ١١٤

(٢) سورة يوسف ١٠٨

(٣) وفيات الاعيان ج١ ص ٤٢٣ و٤٢٤ طبعة سنة ١٢٧٥هـ بمصر

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص٢٥٦ و٢٥٧ .

(٥) البداية والنهاية ج١٢ ص٢٥٤ في حوادث سنة ٥٦٣هـ

(٦) شذرات الذهب ج٤ ص٢٠٩ .

(٧) (سياحتنامه، حدود) مخطوطة خزائنية باللغة التركية في خزانتي ص٧١

(٨) تراجم الوجوه والاعيان مخطوطتي ص٤٩١ .

(٩) العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع مخطوط في خزانتي بخط مؤلفه ج١ ص٥٤

(١٠) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج١٨ ص١٩٩ وما بعدها .

تعقيب على تعقيب

شاكر حسن آل سعيد

ساهمت في الجزء التاسع من مجلة الاقلام الغراء للسنة الاولى ١٩٦٥ بتعليق على رأي الدكتور عبدالعزيز مرزوق في موضوع (الاسلام والفن الجميل) وقعت لي فيه بعض الاخطاء كما حدث فيه بعض السهو · ارجو منكم تقديمها ، واستغفر الله تعالى اولا وآخرا ·

١ ـ استشهدت في مناقشة رأي الدكتور على معنى الزينة والجمال في الفن الاسلامي بالآية الكريمة (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير) وقد أخطأت في ايراد النص القرآني عند خاتمة الآية فذكرت عبارة (عذا أليما) بدلا من (عذاب السعير)

وزيادة في التحقق أورد فيما يلي تفسير ابن كثير للآية الكريمة وبضمنها النص : « ··· (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ») وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت · وقوله تعالى (وجعلناها رجوما للشياطين) عاد الضمير في قوله وجعلناها على جنس المصابيح لا على عينها لانه لا يرمي بالكواكب التي في السماء بل بشهب من دونها · وقد تكون مستمدة منها والله اعلم · وقوله تعالى (واعتدنا لهم عذاب السعير) اي جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا واعتدنا لهم عذاب السعير في الاخرى · كما قال الله تعالى في أول الصافات (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب · وحفظاً من كل شيطان مارد · لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب · دحوراً ولهم عذاب واصب · الا من خطف الخطفة ماتبعه شهاب ثاقب) قال قتادة : انما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله تعالى زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها) · فمن تأول غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به · وقد كان قصدي من ذكر الآية هو مجرد بيان المعنى الكامل للعمل الفني وأعوذ بالله في ان أكون مؤولا من أن أكون متأملا متفكرا ·

٢ ـ وقع بعض السهو وبعض الاخطاء النحوية في نص التعليق وهي بسيطة لا تفوق القارىء اللبيب ·

٣ ـ في حاشية (٣) من التعليق وردت عبارة (جميع ما بين الاقواس الخ ···) والصحيح هو (معظم ما بين الاقواس ··) فقد حصرت ما بين الاقواس عبارات لعلها لم ترد في مقال الدكتور مرزوق ·

وشكرا ·

اسناد الردف والتأسيس في قصائد العـدد الثامن

احمد التكريتي

أنا لست بشاعر ولا أريد أن اصدر أي حكم على أي شاعر ، أعبر عن قلبه تعبيرا صادقا بألفاظ جزلة أم معقدة أم لم يعبر ؟ أأعطى المعنى حقه أم لم يعطـه ؟ أستعمل اللفظـة في موقعهـا أم لم يستعملهـا ؟

هذا كله لايهمني انما الذي يهمني هو ان القاعدة العروضية الواضحة البينة والتي تعب واضعو العروض لاخراجها وضبط أوزان الشعر بهـا أرى هذه القاعدة تخالف من الشعراء أنفسهم وفي مؤتمرهم فنقف نحن دارسي العروض حائرين نتساءل : هل ما يقولـه العروضي حقا واجب الاتباع في بناء القصيدة أو ما ذهب اليه الشاعر هو الأحق ؟.

والمثل على ذلك أن العروضيين يقولون أنه اذا أراد الشاعر أن يأتي بقصيدته مردفة بحرف علة ــ والردف هو حرف علة ساكن يأتي قبل حرف الروي ــ وجب عليه أن يلتزم ذلك الحرف في قصيدته فلا يخرج عنه الى حرف صحيح وقد تساهلوا قليلا فجوزوا للشاعر أن يخرج من الواو الى الياء ــ كما نرى في قصيدة الأستاذ الشاعر عبدالله بن خميس بعنوان ــ بغداد ــ فاذا خرج الشاعر الى الحرف الصحيح يكون قد أخل بنظـام قصيدته وأدخل اليها عيبا من عيوب القافية وهو ما يسمى عند العروضيين ــ سناد الردف ــ أي عيب الردف .

نجد هذا السناد بينا في قصيدة الشاعر (محمد التهامي) بعنوان (بغداد) فانه قد أدخل اليها هذا السناد بالواو في البيتين :

هذي حقيقتنا تجلجل حولنـا كالرعد يجتاح المكابر صـوته
من كان فينـا لا يحس نـداءنا سيان منـه حياته أو موتـه

بعد أن كانت الابيات التي تسبق هذين البيتين غير مردفة وعندما يأتي بالبيت الذي بعد هذين البيتين مباشرة يأتي به غير مردف :

والسارقون لنـا يجن جنونهـم ويقض مضجع أمنهم ما فاتـه

ثم يستمر الى أن يأتي بقطعة تتكون من سبعة أبيات كلها مردفـة بالواو أولها البيت :

النـاهبون تسيل في أنيـابهم حريـة الشعب الكريم وقوتـه

يتحول بعدها تاركا هذا الواو بأبيات عديدة ثم يعود بعدها الى هذا الواو في البيت :

من لهفـــة الظمآن في وهـــج اللظى   من صرخة الجوعان يسرق قوته

ثم ينتقل من الواو الى الياء وهو الذي أجازه العروضيون على أن يكون في قصيدة كلها مردفة لا أن ينتقل الشاعر من حرف صحيح الى واو ثم الى ياء كما في هذا البيت :

من لاجيء نهش الـــذئاب عظـــامه   لما غدا نهب الضـــياع مبيتــه

ونجد ذلك أيضا في البيتين :

للحق والتـــاريخ كنت مقيـــدا!   لو كان أمري في يدي لفديتـــه
قد كنت أعـــرف أنني لو ذدتهم   لحميت نفسي منهم وحميتـــه

ونجد هذا السناد في قصيدة أخرى هي للاستاذ أحمد اللغماني ففي البيت :

أتراك اذا ما تسربلت ليـــلى   واما تلحف بالصمت كوني

نجد الواو الذي قبل النون ردفا الا انه ينتقل من الواو الى الياء

فيتمتني وفتتت الجوانـــح من قبـــل أن تفتني المقلتـــين

فتأتي بعد هذا البيت أبيات غير مردفة ويعود مرة أخرى ليأتي بهذا الياء ردفا في البيت :

أحمـــل من زمل شـــطآننا   صراخ النضار ومحض اللجين

ثم يتكرر هذا السناد في أبيات أخرى من نفس القصيدة .

ونجد سنادا آخر وقع به بعض الشعراء - هو سناد التأسيس وهو الف يفصل بينه وبين الروى حرف آخر يسمى الدخيل - يوجب العروضيون على الشاعر اذا جاء بقصيدته مؤسسة أن يلتزم هذه الألف بكل أبياتها فلا يخرج عن ذلك .

ولكن نجد الاستاذ (حسن الأمين) في قصيدته «حب يظل على المدى» قد ارتكب هذا السناد فمطلع قصيدته مؤسس :

حب يظل على المدى متجددا   وهوى يعود به الوفاء كما بدا

ولما انتقل الى البيت الثاني أتى به خاليا من ألف التأسيس فيلاحظ القارىء أن الرنة الموسيقية قد انخفضت وأحس بنشاز بين البيتين الاول والثاني الذي هو :

الوجد فيك كما عهدت ولم يزل   شوق الأحبة ما عرفت توقدا

وتستمر القصيدة غير مؤسسة الى أن يصل الى بيت مؤسس :

هذي الخمائل ما نسيت عهودها   هذي الشواطيء ماجحدت لها يدا

وتتناوب الابيات المؤسسة وغير المؤسسة في أبيات القصيدة التالية فكان عليه ان يتلافى ذلك ويأتي بقصيدته كلها مؤسسة كما نجد في قصيدة الاستاذ حافظ جميل والشاعرة كريمة زكي مبارك لانه جاء بمطلع قصيدته مؤسسا أو يترك هذا التأسيس منذ البداية ٠

هذا ما لاحظته أرجو أن يحظى بالقبول وتقبلوا تقديري ٠

حول « رأي للمناقشة »

بقلم : هادي طعمة

انه لرائع حقا ، أن يطرح الدكتور علي عبدالواحد وافي موضوع (العامية) للمناقشة وابداء وجهات النظر فيه ٠ وحسناً فعل اذ أتاح لنا أن نبدي رأينا في موضوع يحمل في باطنه اموراً جد خطيرة ، وبين جوانبه سموماً انفذ قتلا من السموم ذاتها ٠٠ موضوع لا يستهدف من ورائه سوى قتل العروبة في نفوس العرب ، عن طريق شيئين ، هما : قطع الصلة بين العرب وتراثهم الاسلامي المجيد المتمثل بالقرآن الكريم ، وبقية التعاليم الدينية المتمثلة بالحديث النبوي الشريف ، وكل التفاسير والشروح التي تشكل فروعاً للأصل : القرآن المجيد ، الذي قال بصدده ـ جلادستون رئيس وزراء بريطانيا ـ ، مشيراً الى خطره بأنه : لن يقر للغرب قرار ما لم يقض على هذا الكتاب ، وتمعن ـ أيها القارىء ـ بهذا ٠

وبديهي لدينا ، بل ومن غير المعقول أن تبقى شجرة ما مزهرة الغصون ، مثمرة مورقة ، اذا هي اجتثت اصولها وقطعت جذورها ٠٠ فهذا أمر مفروغ منه ٠ هذا أولا ٠

وان الغرب لن يقر له قرار على الأطلاق ما لم يستتب له اخضاع النفوس العربية الى ما يرغب هو ، والى ما يمكنه من السيطرة التامة عليهم ، بحيث يكون معها قرير العيون في نومه ، مرتاح البال في حله وترحاله ، آمناً مطمئناً الى أنه اذا ما بات ليله فأنه سيفتح عيونه صباح اليوم التالي ليجد المنطقة العربية كما أغمض عليها جفونه ٠ وهذا لا يتم الا بالقضاء على اللغة العربية ، كحلقة ثانية من سلسلة حلقات السيطرة عن طريق التجزءة ٠ ذلك ان اصطناع الحدود على الأرض العربية الواحدة ، ليس هو كل ما يطمع اليه الاستعمار ٠ وهذا أمر مسلم به أيضاً ٠

والتجزءة موضوع ليس هنا مكان بحثه ، ولكن الذي يعنينا منها أنها ليست قاصرة على الحدود وحسب ، وأنما لها وجوه عدة ٠ والدعوة الى العامية أحد هذه الوجوه ٠٠ وهذا ما يعنينا هنا ٠٠

فالدعوة الى استخدام العامية في آدابنا وتعاملنا ودراساتنا ، وسائر علومنا وفنوننا ، تعني التمهيد لقيام (لغة!) جديدة ٠ ذلك أن العامية ليست لغة كما وصفها البعض ، لأن اللغة كما أفهمها ، ويفهمها رجالاتها بشكل أدق وأوضح ، أنما لها قواعد خاصة بهاتخضع لهاحروفها والفاظها وتراكيبها ٠٠ أي ان لها أركانا ثابتة محددة تتشعب عنها سائر الفنون الادبية في البلاغة والبيان والبديع والعروض ، وفي النحو والصرف وما الى ذلك ٠٠ لا كما عليه لهجاتنا المحلية ٠ وفوق ذلك فانه لابد لكل لغة اصيلة ، كالعربية ، من شعب يتمتع بكل المقومات التي تؤهله لأن يكون شعباً يتسم بسمة قومية واحدة ، تطبعه بخصائصها التي هي من نتاج مجموع أفرادها ٠ وبعبارة أدق ، فان الشعب العربي ليس بذي قوميات عربية متعددة ، بل قومية عربية واحدة ، ولغة عربية واحدة ٠٠ ولا يختلف على هذا اثنان٠ ومن هنا لا يصح أن نقول كما قال الادباء ـ بأنها : لغة عامية ٠

وقد اجمع الكل الذي كتب عن العامية ، بأنها لا تصلح أن تكون اداة للتفاهم بين ابناء العرب قطعاً ٠٠ بل أنها لتختلف في البلد الواحد بشكل يكاد لا يمكن لاثنين التفاهم بواسطتها الا بشق الأنفس ، ومع الأجهاد باستعمال الاشارات الكثيرة بواسطة اليد والرأس والعين ٠٠ و٠٠ و٠٠٠ الخ٠ كما لو كان الحديث يدور بين أبكم وناطق أو بين غريبين ٠ وما أن وجد الاستعمار في هذا الضعف المستشري الذي يدب في كيان العرب ، خير سانحة له ، حتى جعل يشميه ويعمقه، ثم جعل يفلسف له ويفذلك ، بغية قطع الصلة بين العرب ولغتهم ، من جهة ، وبين ابناء العرب في كل قطر على انفراد ، من جهة ثانية ٠٠ مما يمكن له فرض سلطانه التام على المنطقة العربية ، مفككة الأوصال مجزأتها ، مفرقة الشعب مبعثرته ، لا يفهم بعضهم بعضاً ٠ وهذا ثانيا ٠٠

وهنا يكمن الخطر الأعظم الذي تبيته الدعوةالى استخدام العامية بدلا عن الفصحى ٠ وذلك أن القضاء على اللغة العربية ، يعني بالنسبة للاستعمار، قضاء مبرماً على الدين الاسلامي في نفوس العرب ، وعلى وحدتهم ، وهما بمثابة الشوكة المرهفة التي تشكه في أعماقه ٠

ان الدعوة الآثمة الى العامية ، نشأت اول ما نشأت على أيد اعجمية ، شعوبية ، تقطر حقداً مراً ، وسماً زعافاً ، وهي تستهدف الاجهاز على العروبة ، ومحو آثارها وكيانها ٠ وللشعوبية وجوه متعددة ، مختلفة ، هذا وجه منها ٠ فمنذ سنوات متقادمة خلت ، كان نعب ناعب في الغرب ، وردد نعيبه هذا الشعوبيون في الوطن العربي ، ينصحون للعرب ان ارادوا بناء حضارة لهم ٠٠ ان ارادوا الارتقاء ببلادهم الى مصاف الدول المتحضرة ، فيرتفعوا بها الى ما تحت الشمس ، فلا بأس عليهم أن هم التزموا هذهالوصفة الطبية ـ الحضارية ، المخلصة والصادقة : دونوا دراساتكم وعلومكم ، واكتبوا آدابكم وفنونكم بالعامية ، ففي ذلك خير لكم أن كنتم تبتغون !

ذلك أنها هي وحدها القادرة على أستيعاب العلوم ، المتمكنة من أنشاء الحضارة ·· فهي الكفيلة ـ دون سواها ـ بهذا كله !·

هكذا صدرت الفتوى عن المستشرقين ، وبها تمسكت شراذم الشعوبيين أمداً طويلا ، والى يومنا هذا الا ترون أنها دعوة ظاهرها حق يراد به باطل !· والا متى عجزت اللغة العربية عن مواكبة الحضارة الانسانية ، ان لم تكن هي الوسيط الوحيد لقيام حضارة اليوم ؟!·· ان لم تكن هي جزء منها ؟!· أفلا ترون أنها دعوة تدليس وتلبيس ؟·· والا فهل كانت تعرب مثل لهجاتنا الحالية ، يوم بلغت حضارتهم الذروة ؟!·· تلك الحضارة التي على أركانها ودعائمها حضارة الغرب اليوم ، ثم جعلوا يباهوننا ، واذنابهم بشكل أخص ، ويتشامخون !·

وبعد ، فاني لست في مجال عرض لماضي هذه الدعوة الآثمة·خاصةوقد سبقني اليه كثيرون ؛ فضلا عن أنه موضوع لا يوفيه حقه غير كتاب يفرد لهذا الغرض · وقد اكتفيت بذكر بعض الخطوط الرئيسة لهذه الدعوة الشعوبية ، فبينت أغراضها وما تنطوي عليه من مقاصد خبيثة ، باقتضاب ، تسهيلا على القاريء في فهمها ، والمامه ببعض خيوطها ، ولاعتقادي بأنه كان ينبغي على الدكتور علي عبدالواحد وافي أن يقصر كلمته التي طرحها كرأي للمناقشة ، على هذا المعنى والمنطلق · اذ أنهما أقدر على توضيح ما تبيته هذه الدعوة من شر للعروبة والاسلام ·· اذ أنهما أمكن على حمل النفوس العربية واستنفارها للذود عن حياض الأمة العربية ، والذب عن كيان اللغة العربية المقدسة ·· لغة القرآن الكريم · اعتقد ذلك لذلك ، ولان الدكتور وافي ، وهو الذي أشبع موضوع العامية دراسة وتحليلا ، وبالذات كتابة في مجلة الرسالة الزاهرة ، كان حرياً به أن يبتعد عن طرح ما طرحه من مسألة : ان أعيننا اعتادت صور الكلمات العربية في الكتابة ، وأن قراءة الكلمات العامية يقتضي منا اسراف كبير في الوقت والمجهود ، كجزء مهم في الموضوع ، وجانب رئيسي في كلمته ؛ ثم جعل يشرح ذلك · لأن مثل هذه الأمور لا تعدل ما تحمله الدعوة الشعوبية : الى استخدام العامية ، من مخاطر · فضلا عن أنها ليست جوانب ثانوية فيها ، انما دونها · على حين أن الدكتور قد ذكر ما سبق لنا تبيانه في مستهل هذه الكلمة ، ببضع سطور لا تتجاوز الثلاثة ، جاءت في نهاية كلمته · حتى ليتبادر الى الذهن بأن مسألة احلال العامية كبديل للفصحى وزحزحة الأخيرة عن « ميادين الأدب والثقافة » ما هي الا مسألة ثانوية، وان مزاج القراء وانفاق الوقت أو اتعاب العيون هو الشيء الرئيس· أو هكذا خيل الي ·

وعلى أية حال فان القضية التي طرحها الدكتور وافي والتي اوجبت ذكر ما سلف ، ملخصها : أن الزعماء العرب يلقون خطبهم باللهجة العامية ، وان الصحافة في الجمهورية العربية المتحدة تحرص على نشرها كما هي ·

هذا وان الدكتور يقترح صياغتها بالفصحى السهلة دونما اخلال بالمعنى • فأيهما أفضل ؟!•

وقبل أن أشير بالتعيين الى تفضيل هذه، دون تلك، فان رأيي لاينحصر عند هـذا الشأن ، وملخصه : ان هؤلاء الزعماء ، وعلى الأخص منهم : الرئيس عبدالناصر ـ باعتباره أكثر الزعماء العرب القاء للخطب والكلمات وأطولهم في ذلك ، كما انه أكثرهم استخداماً للكلمات العامية • فأنه ينبغي عليه ، وهو القائد الوحدوي ، ان يتمسك بالفصحى جهد الأمكان ودون أن تؤثر على فهم المواطنين للمعنى المقصود • أي دون أن تقف حائلا بين ما يبتغي الرئيس قوله ، وبين فهم الجماهير له •

وثم ، فأن الخطب التي تلقى اليوم هي ليست كخطب العرب بالأمس ، في اشتمالها على أضراب الفنون الادبية ، بلاغتهـا وبديعها ومحسناتهـا اللفظية ••• الخ •• ، انما هي أشبه بأحاديث ، وأحاديث ليست كل كلماتها فصيحة ، أنما الأغلب الأعم منها غير فصيح ، فضلا عن خلو فصيحها مـن الأعراب والتحريك •• كل ذلك يمكن الخطيب أكثر في استعمال الكلمات الفصيحة السهلة ، ويسهل على الجماهير استيعابها وفهمها دونما حاجة الى نظر أو تدقيق •

فما دامت الدعوة الى استخدام العامية هي جزء من الحرب الشرسة الحقود التي يشنها الاستعمار ، والشعوبية في بلادنا ، ضد الوحدة العربية والدين الاسلامي الحنيف ، بل وضد الوجود العربي بالذات ، فأنه حري بالقائد الوحدوي أن يكـون أول من ينبرى للحرب عليهـا ، ولمناضلتها باستمرار ، عن طريق تجنبها ما وسعه ذلك ، وحتى تندرس عن آخرهـا ، ودعاتها • هذا أولا •

وثانيا ، فأن على الصحافة العربية لكيما تثبت أنها صحـافة عربية مخلصة للعروبة وتراث العرب ، حريصة على وحدتهم ـ وهي على علم تـام بمخاطر هذه الدعوة الآثمة ـ ، عليها أن تكف عن تدوين ، وتعزف عن نشر أية كلمة بالعامية • اذ أن ذلك أول مثلبة تتركها في جبين العروبة ، وهـذا على أحسن الفروض وأخف الكلمات التي نوجهها لها• ان لم نطالبهابالوقوف لمناضلة العامية ودعاتها ، والرد عليهم وافحامهم • والا فهل يرضـينا ، أو قل هل هو من قبيل المفاخر لنا ، أن يقول قائل : ما اسخفهم من قـوم !.•• يحاربون لغتهم ، فيئدون روحهم وشخصيتهم من أجل تنفيذ رغبة قال بهـا المبشرون ، فرددها الشعوبيون لغرض في نفوس الغرب ، ان لم يكن بصريح العبارة : الارتماء في عبوديته ! وهم يتأهبون لخوض المعركة الحاسمة مع ربيب هذا الغرب ، عدوهم اللدود : الصهيونية •

بلى والله ما اسخفنا من قوم ! ، أن نقف اليوم لمناقشة أيهما أفضل[1]: هل اللغة الفصحى وفيها حياتنا ، أم العامية وبين جوانبها يكمن موتنا ؟!•

---

(١) أعني دعاة العامية ، والحال التي صرنا عليها •

واذا علمنا أن الصهيونية تعمل جاهدة دائبة لتغذية هذه الدعوة وتحبيذها، لحاجة في نفس يعقوب ، ويعقوب هذا اسمه أيضاً ٠٠ اسرائيل ٠٠ فاذا علمنا هذا نكون ادركنا مبلغ السخف الذي نحن فيه ٠ من حيث اننا نريد حرب اسرائيل في غد، ونحن نحارب من داخل، عدوها الذى هو نحن انفسنا، اليوم هذا من جهة ٠

ومن جهة أخرى فانه خليق بالجماهير العربية المثقفة ، على مختلف المستويات ، أن يوطنوا أنفسهم على النطق بكل ما يتيسر لهم من الكلمات الفصيحة السهلة الفهم واللفظ ، وباستمرار ٠٠ فما أن يمارسوا ذلك ، ماأن يراقبوا أنفسهم حتى تتكون لديهم حصيلة هائلة من الكلمات الفصيحة ٠ وبيناهم على هذا ، حتى تكون اندثرت العامية على ألسنتهم ، أو كادت ٠ ولا نحسب أن في ذلك الكفاية ، انما أن يواصلوا الجهود بلا انقطاع ، لحرب هذا اللسان الأشوه ٠٠ وانما تصحيح بعضهم للبعض كل كلمة أعجمية ٠ وما هم بعاجزين عن هذا قطعاً ٠ لأن من يحمل السلاح ، ومن يعرض حياته للموت دفاعاً عن أرض العروبة وهو يتطلع الى الوحدة ـ الحرية ، ذلك الهدف الأسمى ، لا يجد غضاضة في أن يناضل هذه الدعوة الآثمة ، لا يجد أهون من أن يمارس هذه الحرب اللسانية ، استمراراً لنضاله القومي ٠ ولسوف يجد بعد ذلك ، وفيه طاقات من معاني ، عظيمة ، تكمن في الكلمات العربية ، وزخماً هائلا في التعبير عن مكنون النفس ، لا تشتمل عليها ولا تضاهيها أية لغة ٠ فكيف بالعامية العاجزة ، السقيمة الكسيحة !؟ ٠٠ ولسوف يجد فضلا عن ذلك ، متعة نفسية ما بعدها متعة ، في انه ادى واجباً قومياً لا يعدله واجب ٠ خاصة ونحن بين اهلينا وذوينا ، ننام رغداً ، ونخرج هنا وهنالك طمعاً بالتسرية والترويح عن النفس ٠ اى اننا لسنا في مجال حرب فعلية تعوقنا عن القيام بمثل هذا ٠ وعندي ان الحرب التي ينبغي ان يمارسها ويخوضها ابناء القطر المتحرر،هي من حربهم على كل ماهو شعوبي ،كالعامية مثلا ، والدعوة لسحق العروض العربية وكسر عمودها في الشعر ٠٠ وغير هذه وتلك ٠٠

وما يزال المرء العربي ـ او المرأة العربية ـ يناضل كل ذلك ، حتى يلقى نفسه وقد امتلأ من العروبة معنوية ، وازداد بالشعب ارتباطاً ، وبالوطن تمسكاً ٠ وحتى يلقى نفسه اصلب عوداً ، واقوى شكيمة ، وانقى نفساً ، واقوم شخصية ، واسلم ارتكازاً ، واوثق اعتماداً على نفسه ، وثقة بالآخرين ٠٠ ومن شاء ذلك فليرجع الى معين الحضارات الانسانية : التراث العربي والاسلامي ، فلسوف يجد مصداق قولنا ٠

وان نظرة عجلى يلقيها من اراد تصديق ذلك ، على مواطنين عدة ، مختلفى الثقافات ، في مشاربها ومواردها فانه لواجد توكيداً اكثر لما ذهبنا اليه ٠ ذلك ان من اعتمد ثقافة عربية ، ثم اضاف اليها من سائر الثقافات ، صالحها ، وهكذا كان اجدادنا يفعلون ، فأنه ليتميز على كل اقرانه ممن

تثقفوا على جامعات الغرب ، اجمع · ولا اقول هذا بدافع التعصب بتاتاً · ولكن ، هكذا ثقافة العرب ·

اما ثالثا ، فاني واجد ان قسطاً كبيراً من مناضلة العامية ـ كجبهة من جبهات الحرب الشعوبية على كياننا العربي ـ يقع على عاتق رجالات الادب · وذلك في دأبهم المتواصل على هتك وفضح كل ما من شأنه النيل من تراثنا المجيد ، والتنبيه الى مواطنه · ولكن هذا لا يتم ، والحال ليست الحال التي يمكن لها ان تتحمل مثل هكذا مسؤوليات ، فمن تفتت وتشتت بين الادباء العرب ، ومن تفرق وتباعد ، لا يجمع بينهم جامع ولا ينتظمهم منهج ، يقف له بالمقابل تكتل وتجمع ، وشد ازر وحرص على تنفيذ ما اتفقوا عليه ، من طرف الشعوبيين ، الى انطلاق الأيدي العابثة حسب اهوائها تعمل بتراثنا ما تشاء ، وفق خطة محكمة الرسم والحبك ، دون حسيب او رقيب ، كل ذلك لا يدعو ـ ان بقيت الحال هكذا ـ الى التباشر بخير نحن واجدوه في الأقبال · وبئست الجهود جهود الشعوبيين ، ولا خسران لجهود غير جهود المفككين · ولا استثني هنا مسؤولية السلطة التي تعدل كل تلك الطاقات والجهود ، والتي بوجودها تكفل تنظيم هذه الطاقات الغزيرة والجهود والامكانات الخصبة ، وبالتالي ضمان النصر المبين ·

واخيراً ، واذ اهيب بالادباء العرب ، فاني في الوقت نفسه ، لأهيب بالجماهير العربية جميعا ، ان يجعلوا شعار الحرب على الشعوبية في الادب ، المختلفة الوجوه والمتعددة الجوانب ، شعارهم اليومي ـ تعبيرا صادقاً عن وحدة النضال العربي ؛ وريثما تكون قد انطمست آثارها ، وانمحت مواقعها ، واندرست انفاس اشخاصها · فاني لأرى خيوطاً تشير الى بوادر اقتراب يوم حالك اسود ، ينذر بخطر داهم لا مفر منه ، ولا ينفع يومئذ الندم ؛ ولات ساعة مندم حين تكون اطبقت ساعة الندم !!·

نظرات لغوية في بعض مقالات العدد العاشر من مجلة الاقلام

يوسف حسين بكار

طلعت علينا مجلة الاقلام الغراء بعددها العاشر كعادتها من حيث تنوع المقالات وتشعبها في اكثر ميادين المعرفة من أدب وتربية وفكر وفلسفة وغير ذلك · وفي أكثر مقالات هذا العدد وصفحاته أشياء تلفت الانتباه لا من حيث محتوياتها ومضمونها وانما من حيث استعمال بعض السادة من كتاب هذا العدد تعابير وصيغ والفاظ لا تتفق هي والمفهوم اللغوي الصحيح في وعربيتنا الفصيحة ، وأرجو ألا يفهم من هذا انني أقصد تخطئة هذا النفر من

الكتاب أو تسجيل مآخذ عليهم ، فما هذا أردت ولا اليه قصدت ولكن الذي أريده وأحب أن أؤكد عليه اننا في هذه الايام أخذنا نبتعد تدريجيا عن الاساليب اللغوية الصحيحة واستعمالاتها من حيث لا نشعر فشاعت في لغتنا الحاضرة واندست فيها كثير من الاستعمالات التي قلما نجد لها نظيرا في اللغة الفصيحة وكنا نظن ان مثل هذا الجديد أو قل الخطأ الشائع اكثر ما يكون في لغة الجرائد المحلية والاذاعات الا ان الامر امتد الى أكثر من هذا حتى اصبحنا نجد مزيدا منه فيما تسطره اقلام الكتاب على صفحات المجلات الادبية والفكرية لا في (الاقلام) حسب وانما في غيرها ايضا ٠

ونحن اذ ننبه الى مثل هذا نهيب في الوقت نفسه بحملة الاقلام وابناء العربية ان يبتعدوا عن استعمال مثل هذه الصيغ والاستعمالات غير المقصودة كيما نحافظ بذلك على قوة لغتنا وفصيح استعمالها فهي قوية وقادرة على مسايرة ركب الحضارة وقد برهنت على هذا منذ أقدم عصورها ٠

ومعذرة لاخواني الكتاب ان كان يضايقهم النظر فيما يكتبون ـ ولا أظن هذا ـ فلا تعدم الحسناء ذاما وأي الرجال المهذب وما الكمال الا لله وحده والآن الى مناقشة ما جاء في الاقلام :

اولا : جاء في حاشية ص ٩ ما يلي « تعريب محاضرة القيت بكلية وست منستر بالولايات المتحدة ٠٠٠٠ » ٠ والمراد بهذا محاضرة الدكتور ناصر الحاني « حقائق عن العالم العربي » والذي يهمنا من هذا كلمة « تعريب » فقد جاءت في غير موضعها وكان أفضل بكثير أو قل أصح لو استبدلت بكلمة « ترجمة » ذلك ان لكل من « تعريب » و « ترجمة » مفهوما اصطلاحيا خاصا ، ولا اريد ان اخوض في هذا كثيرا ويكفي ان نعلم ان التعريب عبارة عن نقل الكلمة أو الاصطلاح الاجنبي ـ ايا كان نوعه ـ الى العربية بحروفه ووزنه ولا مانع اذا طرأ بعض تغيير في حروف الكلمة اذا ما احتيج الى ذلك كيما تتفق أو تتلائم هي والصيغ العربية ، وعلى هذا المنوال سار الاقدمون في تعريب كثير من المصطلحات الدخيلة ٠ ولماذا نذهب بعيدا ، فدونك على سبيل المثال الكلمات : (راديو) و (تلفون) وغيرها فما هي في الحقيقة الا تعريب للكلمتين الاجنبيتين Radio , Telephone ومثل هذا في لغتنا الحاضرة كثير ٠

ويقول آخرون : « وتعريب الاسم الاعجمي ان تتفوه به العرب على مناهجها ، تقول عربته العرب واعربته ايضا ، والمعرب هو ما استعمله العرب من الالفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها »(١) ٠

أقول ان استعمال « ترجمة » أفضل لان التعريب غير الترجمة ، فالترجمة هي السعي لايجاد كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية أو تقرب منها ٠ وقديما قال الصفدي صاحب (الوافي بالوفيات) بطريقتين للترجمة : الاولى النظر في الكلمة الاجنبية المفردة وما تدل عليه من معنى واثباته وهكذا دواليك في بقية الكلمات ، وهذا عينه ما يسمى اليوم (بالترجمة الحرفية) ٠

اما الثانية فهي النظر في الجملة ككل والتعبير عنها باللغة الاخرى سـواء ساوت الالفاظ ام خالفتها(٢) ٠

ويرى الدكتور احمد عيسى بعد ان نقل رأي الصفدي السـابق في الترجمة رأيا وسطا هو « أن يتفهم الناقل معنى الكلمات منفردة اولا ثم يحصل معنى الجملة في ذهنه ويرتب الترجمة حسب الاسلوب العربي في الكتابة دون ان يترك لفظا أو اصطلاحا قد يكون له صفة ما في الموضـوع فلا يكون قد ترجم ترجمة حرفية تنبو عن الذوق العربي ولا تصرف فيها فيهمل الفاظا قد يتغير باهمالها مجرى الكلام كما يريده مؤلفه »(٣) ٠ هذه هي الترجمة وذلكم هو التعريب وما أكثر ما يخلط الناس في هده الايام بين مفهومي الاصطلاحين ٠

ثانيا : في ترجمة الاستاذ عبدالوهاب الوكيل (المدرسة الحديثة في النقد) يقول : « فالمدرسة الحديثة في النقد تقوم على قراءة النص وتتبعه (عن كثب) ٠٠٠٠ » ص ٤٦

ويظهر ان السيد الوكيل مغرم باستعمال « عن كثب » يقول في موضع آخر « ولننظر الآن عن كثب ٠٠٠ » ص ٤٨ ٠

ويقول « عن كثب » في المرتين خطأ ، والصواب الجر (بمن) لا (بعن) ٠

جاء في لسان العرب : « وهو يرمي من كثب ٠٠٠ »(٤) ، وفي أساس البلاغة « رماه من كثب ، من قرب ، وهو مني كثب ٠٠٠ »(٥) ٠

وقال ابن الزبعرى الشاعر :

فهـــذان يـــذودان وذا من كثب يرمي(٦)

ثالثا : اما السيد ابراهيم الخال في مقاله عن (الغزالي) فقد كـرر الاستعمال « الجواب على » أو « الاجابة على » اربع مرات واليكها بالترتيب :

(١) « انما كانت في الواقع جوابا على جميع القضـايا المختلـف عليها ٠٠٠٠ » ص ٦١ ٠

(٢) « وكان منطق الاحداث الفكرية لذلك العصر قد أجاب على هذه الرسالة الغشيرية ٠٠٠٠ » ص ٦٢ ٠

(٣) وقال « انه سؤال لا نود ان يجيب عليه غير الغزالي ٠٠٠ » ص ٧١

(٤) واخيرا « ان الجواب على هذا يتمثـــل في ركن الصوفيـة الثالث ٠٠٠ » ص ٧٧ ٠

والذي نقوله انـه لم تسمع تعـدية الفعل (أجاب) بحرف الجر (على) وانما بالحرف (عن) وقد نبه الى هذا الدكتور ابراهيم السامرائي في مقال له نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق(٧) ٠

واضيف الى هذا ما ورد في لسان العرب ، جاء في مادة (جوب) ما يلي :
« الاجابة رجع الكلام ، تقول : اجابه عن سؤاله ، وقد اجابه اجابة واجابا وجوابا وجابة » ٠

وما اكثر هذا الاستعمال « الاجابة عن » في كتاب ابن الانبـــاري (الانصاف في مسائل الخلاف) فهو لا ينفك يذكر في كل مسألة من مسائل كتابه عبارته التقليدية « واما الجواب عن كلمات الكوفيين »

وليس السيد الخال وحده الذي يستعمل هذا ، والحق انه استعمال شائع في لغة الصحافة والاذاعة وحتى عند الاساتذة والمدرسين في أوراقهم الامتحانية ٠

رابعا : ادخل السيد (صلاح الدين حسن) في مقاله « عندما يخطيء الآباء » الالف واللام على (بعض) في قوله « قال : الامثلة متنوعة وعديدة ، وساكتفي بذكر البعض منها ٠٠٠٠ » ص ٤٤

ولكن (بعض) و (كل) لا تدخلهما الالف واللام ، وقد انكر الاصمعي وابو حاتم دخول الالف واللام عليهما واليك ما جاء في مادة (بعض) في لسان العرب :

« قال ابو حاتم » : قلت للاصمعي رأيت في كتاب ابن المقفع : العلم كثير وأخذ البعض خير من ترك الكل ٠ فانكره أشد الانكار وقال : الالف واللام لا يدخلان في بعض وكل منهما معرفة بغير الف ولام ، وفي القـــرآن العزيز « وكل أتوه داخرين » ٠

قال ابو حاتم : ولا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعملـــه الناس حتى سيبويه والاخفش في كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو فاجتنب ذلك فانه ليس من كلام العرب » ويقول ابن منظور أيضـا : « واستعمل الزجاج بعضا بالالف واللام فقال : وانما قلنا البعض والكل مجازا وعلى استعمال الجماعة له مسامحة ، وهو في الحقيقة غير جائز يعني ان هذا لاينفصل عن الاضافة »(٨) ٠

ولا بأس ان نذكر ان ابا العلاء المعري في (رسالة الغفران) عاب على الحلاج الصوفي المعروف ادخاله الالف واللام على (كل) في قوله :

يا جملة الكـــل لسـت غيري فما اعتذاري اذا الي(٩) ٠

قال ابو العلاء « ادخاله الالف واللام مكـــروه ، وكـان ابو علي ـ الفارسي ـ يجيزه ويدعي اجازته على سيبويه ، فاما الكلام القديم فيفتقد فيه الكل والبعض »(١٠) وقول ابي العلاء هذا يزيد ما ذهب اليه الاصمعي وابو حاتم ٠

ولا يفوتني ان اقول ان هناك من يشارك السيد صلاح الدين فيما وقع فيه ، انه الدكتور حكمت الاوسي في مقاله (من مظاهر التأثير العـــربي في الثقافة الاسبانية) يقول الدكتور الاوسي « ودخلت اداة التعريف العربية (ال) في كثير من الكلمات الاسبانية واصبحت جزءا لا يتجزأ منها حتى ان (البعض) قرر ان ٠٠٠٠ » ص ٢٣ ٠

خامسا : في كلام الاستاذ يحي الجبوري على كتاب (العراق في العصر

الاموي) للاستاذ ثابت الراوي ، قال الجبوري « ويتكلم عن جغرافيـــة العراق ۰۰۰۰ » ص ١٥٠

وقال ايضا « وفي الفصل الخامس يتكلم عن تعريب العراق ۰۰۰۰ » ص ١٥٠ ايضا ·

كما ورد هذا الاستعمال ايضا عند الدكتور الاوسي في مقاله الذي أشرت اليه قبل قليل ، قال « وفي تاريخ الفونسو الحادي عشر عندما يتكلم عن دخول الملك الى اشبيلية ۰۰۰۰ » ص ٣٢ · ان تعدية الفعل (تكلم) بالحرف عن غير مسموعة ايضا ، والوجه فيه ان يقال « تكلم على الشيء ويتكلم عليه » وليس « تكلم عنه » كما هو شائع في لغتنا الحاضرة(١١) · واذا ما حاولنا استقراء الاستعمال القديم فلا نجد الا « تكلم على » و « الكلام على » واليك على سبيل المثال ما جاء في (نهاية الارب في فنون الادب) للنويري ·

قال « ذكر الكلام على مشكل حديث السحر » ·

وتحت هذا العنوان يقول « وقد تكلم القاضي عياض بن موسى بن عياض على هذا الحديث فقال ۰۰۰۰ »(١٢) ·

سادسا : جاء في كلام الاستاذ عباس العزاوي على كتـــاب (الادب الشعبي في جزيرة العرب) للشيخ عبدالله الخميس مايلي « وان مؤلف هذا الكتاب تعرض لمصادر كثيرة ومن حسن الحظ ان (تعرفت به) ۰۰۰ » ص١٥٣

لنقف عند قول الاستاذ (تعرفت به) لنقول له انه وان تم التعـارف بينكما ايام انعقاد مؤتمر الادباء العرب الخامس ببغداد الا ان هذه المعـرفة من حيث الصحة اللغوية لم تتم لانك ترى انك اذا قلت (تعرفت بزيد) كانك قلت «سميت بزيد» وعرفت بهذا الاسم بين الناس · واما معرفـة الناس والصلة بهم فذلك ان تعدي الفعل بحرف الجر (الى) فتقول « تعـرفت الى فلان ۰۰۰ »(١٣) ·

وفي لسان العرب : عرفه به : وسمه ، قال سيبويه : اذا قلت « عرفته بزيد » فانما تريد عرفته بهذه العلامة واوضحته بها ، وانما بزيد كقولك سميته بزيد(١٤) ·

سادسا : واختتم هذه الملاحظات بكلمة « الشقاة » التي ورد في القول التالي : « وتحدث عدد من رؤساء العشائر الاكراد ۰۰۰ عن جرائم عصـابة الشقاة والعلاقة الوثيقة التي تربط ۰۰۰ » ص١٦٠ ·

وجمع (شقي) على (شقاة) خطأ والصحيح (اشقياء) لان المفرد (شقي) وليس (شاقي) ولو كان كذلك لجاز ان يجمع على (شقاة) كما نجمع (غازي) على غزاة ، ومثل (شقي) ايضا (دعي) على سبيل المثال الذي يجمع عـــلى (ادعياء) ، وعلى هذا يكون جمع شقي على شقاة جمع توهم ولكنه توهم على خطأ(١٥) ·

وبعد .. فما هذه الا ملاحظات رغبت في التنبيه اليها وتسجيلها لكثرة شيوعها واستعمالها في لغتنا الحاضرة ولم ابلغ من وراء هذا كله الا خدمة لغتنا والحفاظ على فصيح استعمالها وصيغها ، ومعذرة مرة ثانية لمن جاء التنبيه والاشارة الى مثل هذه الاشياء عن طريقهم ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه .



(١) التهذيب في اصول التعريب للدكتور أحمد عيسى ص١٢٠ نقلا عن (تاج اللغة) .

(٢) يراجع هذا في المرجع السابق نفسه ص١١٣ .

(٣) المرجع السابق ١١٣ ـ ١١٤ .

(٤) انظر : لسان العرب . مادة (كذب) .

(٥) أساس البلاغة . للزمخشري . مادة (كسب) أيضا .

(٦) حول الغلط والتصحيح على ألسنة الكتاب . كتيب لاحمد منسى ص٤٠ .

(٧) راجع مقال الدكتور السامرائي (تحقيق لغوي في الصيغ والاستعمالات) . مجلة المجمع العلمي بدمشق . الجزء الاول . المجلد (٤٠) . كانون الثاني ١٩٦٥ . ص٢٢٣ .

(٨) انظر : مادة (بعض) في لسان العرب .

(٩) كما عاب أبو العلاء على الحلاج أيضا كسر الياء في (الي) .

(١٠) رسالة الغفران ـ للمعري . تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء ص٤٥٥ ـ ٤٥٧ . الطبعة الثالثة ١٩٦٣ .

(١١) انظر : الدكتور السامرائي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق آنفة الذكر ص٢٢٣ .

(١٢) نهاية الأرب . الطبعة الجديدة (تراثنا) ١٩٦٥ ج١٦ ص٢٩٣ .

(١٣) انظر ايضا : حول الغلط والتصحيح لاحمد منسى ص٧ .

(١٤) لسان العرب . مادة (عرف) .

(١٥) انظر : الدكتور السامرائي . مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ص٢١٦ .